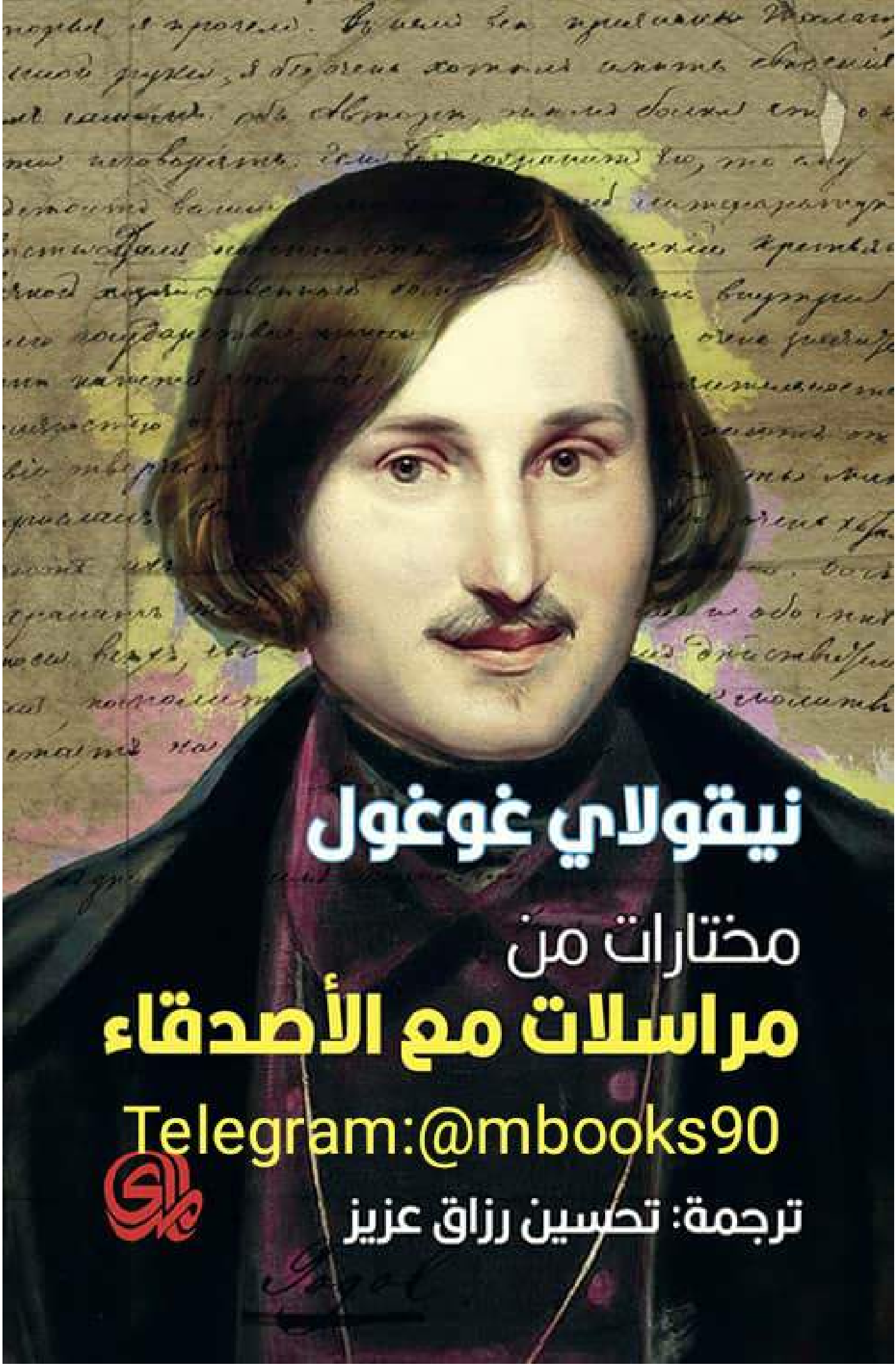

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسائل

Author: **Nikolai Gogol**

اسم المؤلف: نيقولاي غوغول

Title: **Selections from Letters with Friends**

عنوان الكتاب: مختارات من مراسلات مع الأصدقاء

Translated by: **Tahseen Razzaq Aziz**

ترجمة: تحسين رزاق عزيز

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2023**

الطبعة الأولى: **2023**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 +964 (0) 780 808 0800

+964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 706 15017 +961 175 2617

+961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 +963 11 232 2275

+963 11 232 2289 ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أية مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

المقدمة

مرضتُ مرضاً شديداً؛ وكان الموت قاب قوسين أو أقرب مني. وبعد أنْ استجمعتُ ما بقي من قوتي واستفدت من الدقيقة الأولى من صحوتي الذهنية الكاملة، كتبتُ وصيةً روحية كلّفت من خلالها أصدقائي أنْ ينشروا بعض رسائلي بعد وفاتي. أردتُ بهذا، على الأقل، التكفير عن عدم جدوى كل ما نشرته حتى الآن، لأنّ في رسائلي، وفقاً لاعتراف أولئك الذين كُتبت لهم، ثمة شيئاً ضرورياً للإنسان أكثر مما هو عليه في كتاباتي. ولكنّ رحمة الله السماوية رفعت يدَ الموت عني. وأصبحتُ على وشك الشفاء؛ أشعر بتحسن الآن. ولكن، مع ذلك، لأنّي أشعر بضعف قوتي، التي تعلن لي كل دقيقة أنّ حياتي في خطر، ولأني أستعد لرحلة بعيدة إلى الأماكن المقدسة، الضرورية لروحي، والتي يمكن أن يحدث لي خلالها كل شيء، أردتُ أنْ أترك عند الفراق شيئاً من كياني للمواطنين في بلدي. لقد اخترتُ بنفسي من رسائلي الأخيرة، التي تمكنت من استعادتها، كلّ ما هو أكثر ارتباطاً بالقضايا التي تشغل بال المجتمع اليوم، بعد أنْ استبعدتُ كل ما يمكن أن يكتسب مغزى بعد موتي فقط، مع استبعاد كل ما يمكن ألّا يكون له مغزى إلا لعدد قليل فقط. وأضيف مقالتين أو ثلاث مقالات أدبية، وأخيراً، أرفقُ الوصية نفسها، لكي تأخذ، على الفور في حالة وفاتي، إذا ما وافتني المنية في طريقي، قوتها القانونية كما يشهد عليها جميع القراء.

Telegram:@mbooks90

قلبي يقول إنّ كتابي هذا ضروري وإنه يمكن أن يكون مفيداً. لا أقول ذلك لأنني أُقدّرُ نفسي عالياً وأتصوّر أنّ إمكاناتي مفيدة، بل لأنني لم أشعر من قبل بهذه الرغبة القوية في أن أكون مفيداً. يكفي منّا أن نمدّ أيدينا للمساعدة، لكننا لسنا مَن يساعد، الله هو الذي يساعد، عندما أفاض القوة على الكلمة الضعيفة. لذا، مهما كان كتابي زهيداً وغير مهم، أسمح لنفسي بنشره وأطلبُ من أبناء وطني قراءته عدة مرات؛ وفي الوقت نفسه، أطلب من أصحاب المقدرة المالية شراء عدة نسخ منه وتوزيعها على من لا يستطيع شراءه بأنفسهم، وأحيطهم علماً في هذه الحالة بأنّ كل الأموال التي ستزود عن تكاليف رحلتي القادمة سوف تُحوّل، من جهة، إلى مساعدة أولئك الذين، مثلي، يشعرون بالحاجة الداخلية للذهاب في الصوم الكبير القادم إلى الأراضي المقدسة وليسوا قادرين على تحقيق ذلك بوسائلهم الخاصة، ومن جهة أخرى، لمساعدة أولئك الذين سألتقيهم في الطريق إلى هناك والذين سيُصَلّون جميعهم في القبر المقدس من أجل القراء المحسنين.

أود أن أقوم برحلتي كأيّ مسيحي طيب. ولهذا السبب أطلب المغفرة من جميع أبناء وطني هنا على كل ما بدر مني مما يمكن أنْ يكون قد ألحقَ بهم إساءة. أعلمُ أني من خلال مؤلفاتي

الطائشة وغير الناضجة، تسببت بالحزن للكثيرين، بل وحتى أثرت امتعاض الآخرين ضدي، بشكل عام تسببت في استياء الكثيرين. كعذر، لا يسعني إلا أن أقول إنّ نيتي كانت حسنة وإنني لم أرغب في إثارة غضب أحد، ولا أن أثير امتعاض أحد، لكنّ حماقتي وحدها وتسرعي وحده هما السبب في ظهور كتاباتي بمثل هذا الشكل غير الكامل وقد ضلّلا الجميع تقريباً عن المعنى الحقيقي؛ وإني أطلب العفو عن أي شيء يسيء إليهم عمداً، بالسخاء الذي لا يمكن أن تسامح به إلا الروح الروسية فقط. كما أعتذر لكل من صادفتهم على طريق الحياة لمدة طويلة أو قصيرة. أعلم أنني سببت المتاعب للكثيرين، وربما، لبعض منهم عن قصد. وبشكل عام، في تعاملي مع الناس، كان ثمة دائماً الكثير من الأشياء غير السارة والمثيرة للاشمئزاز. ويرجع ذلك جزئياً إلى حقيقة أنني كنت أتجنب اللقاء والتعارف، لشعوري بأنني لا أستطيع بعد أنْ أقول كلمة ذكية وضرورية لشخص ما (لم أرغب في نطق كلمات فارغة وغير ضرورية)، ولأني في الوقت نفسه كنت مقتنعاً أنه بسبب العدد الذي لا يحصى من مساوئي كنت بحاجة لأربي نفسي، وإنْ قليلاً، بالابتعاد عن الناس. وفي أحيان أخرى نشأ هذا جزئياً أيضاً من الفخر التافه، الذي يمتاز به فحسب أولئك الناس منا الذين شقوا طريقهم للخروج من الأوساخ إلى الناس فعدّوا أنفسهم مؤهلين للنظر إلى الآخرين بغطرسة. مهما كان الأمر، لكني أعتذر عن كل الإهانات الشخصية التي حدثَ أن ألحقتها بشخص ما، من أيام طفولتي إلى الوقت الحاضر. كما أنني أطلب العفو من زملائي الكتّاب عن أي ازدراء أو عدم احترام من جانبي، سواءً كان بقصد أو عن غير قصد؛ أما أولئك الذين لسبب ما يصعب عليهم أن يسامحونني، فإنّني أذكّرهم بأنهم مسيحيون. إنّي مثل أيّ إنسان صائم قبل الاعتراف الذي يستعد للقيام به أمام الله يطلب المغفرة من أخيه، أطلب منهم المغفرة، وكما لا يجرؤ أحد في هذه اللحظة على عدم مسامحة أخيه، فلا يجرؤون هم أيضاً على ألا يغفروا لي. أخيراً، أطلب من القراء العفو إذا ما كان في هذا الكتاب بالذات شيء مزعج ومهين لأي منهم. أطلب منهم ألا يضمروا غضباً مكنوناً ضدي، ولكن بدلاً من ذلك أنْ يصفوا بكرم كل النواقص التي يمكن أن يجدوها في هذا الكتاب – سواءً عيوب الكاتب أو أوجه تقصير الإنسان: حماقتي وعجزي وغروري وثقتي الفارغة بالنفس، باختصار، كل ما يحدث لجميع الناس، على الرغم من أنهم لا يرون ذلك، والذي ربما يكون في داخلي أكثر بكثير مما يرونه.

وفي الختام، أطلب من الجميع في روسيا أن يصلّوا من أجلي، بدءاً من القديسين، الذين حياتهم كلها مكرّسة للصلاة وحدها. وأطلب الدعاء من أولئك الذين لا يثقون بتواضع بقوة دعائهم، ومن أولئك الذين لا يؤمنون بالدعاء على الإطلاق وحتى لا يعدّونه ضرورياً: ولكن بغض النظر عن مدى ضعف دعائهم وقساوته، أسألهم دعاءهم هذا الأكثر ضعفاً وقساوة. وإني سأصلي في القبر المقدس من أجل جميع أبناء وطني من دون استثناء واحد منهم؛ ستكون صلاتي بلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول ولا قوة إذا لم تحوّلها الرحمة السماوية المقدسة إلى ما ينبغي أن تكون عليه صلاتنا.

1846، يوليو (تموز)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الأول

الوصية

أستعرض هنا، بكامل ذاكرتي وقواي العقلية، إرادتي الأخيرة.

أولاً: أوصي بعدم دفن جثتي حتى تظهر عليها علامات التحلل الواضحة. وإني أذكر هنا لأنه أثناء مرضي نفسه مرت عليّ لحظات من التنميل الحيوي، وتوقف قلبي والنبض... ولأني شهدتُ في حياتي العديد من الحوادث المحزنة بسبب تسرعنا غير المعقول في جميع الأمور، حتى في قضايا مثل الدفن، وأعلن هذا هنا في بداية وصيتي، على أمل أن يُذكّر صوتي بعد وفاتي بالحكمة بشكل عام. وأنْ يودع جسدي الأرض، من دون التفكير في المكان الذي يرقد فيه، وعدم تعلق أي شيء بالرفات المتبقي؛ إنه لعار على من ينجذب باهتمام إلى الرفات المتعفن الذي لم يعد لي: لأنه سوف ينحني للديدان التي تقضمه؛ أطلب منكم الصلاة بشكل أفضل من أجل روحي، وبدلاً من التكريم الجنائزي، ضيفوا نيابة عني بغداءٍ بسيط عدداً من الذين لا يملكون قوت يومهم.

ثانياً: أوصي بعدم بناء أيّ نصبٍ فوق قبري وعدم التفكير في مثل هذا الأمر التافه الذي لا يليق بمسيحي. أما مَن كنتُ عزيزاً عليه حقاً من ذويي، فليقم لي نصباً تذكارياً بطريقة مختلفة: ليقِمه في نفسه بحزمه الذي لا يتزعزع في الحياة، وبإحياء وإنعاش كل من حوله. ومَن يسمو بعد موتي في الروح أعلى مما كان عليه خلال حياتي، سيظهر أنه كان يحبني وكان صديقي، وبهذا فقط يُشيد لي نصباً تذكارياً. لأنني مهما كنت ضعيفاً وضئيلاً في نفسي، فقد كنت دائماً أرفع من معنويات أصدقائي، ولم يَرَني أحدٌ ممن كان بقربي في المدة الأخيرة في لحظات حزني وكآبتي حزيناً، برغم أنّ دقائقي كانت صعبة، وحزني لا يقل عن حزن الآخرين – ليتذكر كل واحد منهم هذا بعد وفاتي، وليتدبّر في جميع الكلمات التي قلتها له، وليُعِد قراءة جميع الرسائل التي كتبتها إليه قبل عام من هذا.

ثالثاً: أوصي ألا يبكي لوفاتي أحد على الإطلاق، وسيكسب الخطيئة على نفسه مَن سيعدّ موتي خسارة كبيرة أو عامة. حتى وإنْ كنتُ قد أفلحتُ بتقديم شيء مفيد وبدأت في أداء واجبي حقاً كما ينبغي، وأخذني الموت بعيداً في بداية عملٍ لم يكن المقصود به إمتاع البعض، بل عمل ضروري للجميع، – فحتى عندئذٍ لا ينبغي للمرء أن ينغمس في الأسى غير المُجدي. وحتى لو مات في روسيا بدلاً مني رجلٌ، هي بحاجة فعلية له في ظروفها الحالية، فحتى هذا الأمر لا ينبغي أن يؤدي إلى غمّ لأيّ أحد من الأحياء، مع أنّ الصحيح أنّ الموت إذا ما اختطف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل الأوان الأشخاص الذين يحتاجهم الجميع، فهذه علامة على الغضب السماوي، الذي اتخذ من هذا الفعل أداةً ووسيلةً من شأنها أن تساعد الآخرين على الاقتراب من الهدف الذي يدعونا. ولا ينبغي أن ننغمس في اليأس عند أيّ خسارة مفاجئة، بل أنْ ننظر بحزم إلى أنفسنا، وألا نفكر بعد الآن في سواد الآخرين ولا في سواد العالم كله، بل في سواد أنفسنا. السواد الروحي فظيع، فلماذا، يا ترى، يظهر فقط عندما يكون الموت الذي لا يرحم أمام أعيننا!

رابعاً: وصيتي لجميع أبناء وطني (استناداً فحسب إلى حقيقة أنْ كل كاتب يجب أن يترك وراءه فكرة مفيدة كإرث للقراء) وأورّثهم أفضل ما أنتجه قلمي، وأوصي لهم عملي بعنوان «قصة الوداع»(1). وهو، كما سيتبين، يشير إليهم بالذات. حملته في قلبي من مدة طويلة، كأفضل كنز لي، وكعلامة على رحمة الله السماوية لي. كان مصدرَ دموعٍ، لم يزها أيّ أحد، منذ أيام طفولتي. أتركه لهم كإرث. لكنني أتوسل بكم، ألا يشعر أيّ أحد من أبناء بلدي بالإهانة إذا ما سمع فيه شيئاً يشبه الوعظ. أنا كاتب، وواجب الكاتب لا ينحصر بتقديم شغل ممتع للعقل والذائقة؛ سيسترجَع منه بصرامة إذا لم تنتشر بعض الفوائد للروح من كتاباته ولم يبق منه شيء لتعليم الناس. آمل أن يتذكر أبناء وطني أيضاً أنه حتى لو لم أكن كاتباً، فإن كل أخ رحلَ عن العالم له الحق في أن يترك لنا شيئاً في شكل وعظ أخوي، وفي هذه الحالة لا ينبغي النظر إلى ضآلة رتبته، أو إلى عجزه أو حماقته الشديدة، يجب على المرء أن يتذكر فقط أنْ الشخص الذي يرقد على فراش الموت يمكنه أن يرى شيئاً آخرَ أفضل من تلك الأشياء التي تدور في العالم. على الرغم من جميع حقوقي هذه، إلا أنني لن أجرؤ على الحديث عما سوف يسمعونه في «قصة الوداع» لأنْ مَن يقول هذا الكلام ليس أنا، أسوأ الجميع من ناحية الروح، الذي عانى من أمراض نقصه الشديدة. لكنني مدفوع إلى القيام بذلك بسبب آخر، أهم سبب: يا أبناء وطني! إنْ الأمر مخيف!... الروح تتجمد من الرعب من مجرد هاجس هول ما وراء القبر ، ومن مخلوقات الله الروحية السامية، التي كل عظمة خلق الله التي نراها هنا ونندهش منها مجرد غبار قياساً بها. إنْ كياني المحتضر كله يتأوّه، عندما يستشعر الحجم الهائل للثمار التي زرعنا بذورها في هذه الحياة، من دون أنْ نرى أو أنْ نسمع ما هو الرعب الذي سينشأ منها... ربما سيكون لـ «قصة الوداع» بعض التأثير على أولئك الذين كانوا وحتى يومنا هذا ما زالوا يعدّون الحياة لعبة، وستشعز قلوبهم، وإنْ كان جزئياً، بسرّها الصارم وبالموسيقى السماوية الأكثر حميمية لهذا السر. يا أبناء وطني!... لا أقدر ولا أعرف كيف أتواصل معكم في هذه اللحظة. بعيداً عن العظمة الفارغة! يا أبناء وطني، لقد أحببتكم؛ أحببتكم بذلك الحب الذي لا أستطيع أنْ أصفه، والذي منحني إياه الله، والذي أشكره عليه، بوصفه أفضل النعم، لأن هذا الحب كان فرحتي وعزائي في خضم أسوأ المعاناة، – باسم هذا الحب أطلب منكم أنْ تصغوا بأفئدتكم إلى قصتي «قصة

الوداع». أقسم لكم: لم أؤلفها ولم أخترعها، لقد فاضت بنفسها من روحي، التي رباها الله بنفسه من خلال الاختبارات والمحن، وأخذتْ أصواتها من القوى الكامنة في سلالتنا الروسية المشتركة بيننا، والتي أنا، وفقاً لها، من أقرب الأقارب لكم جميعاً.

خامساً: أوصي بعد وفاتي بعدم التسرع في مدح أعمالي أو إدانتها في الصحف والمجلات العامة: سيكون كل شيء متحيزاً كما كان خلال حياتي. ثمة الكثير مما في كتاباتي يستحق الإدانة، وهو أكثر من ذلك الذي يستحق فيها الثناء. كانت جميع الهجمات عليها عادلة في أساسها بشكل أو بآخر. وإني لا أتهم أحداً. فالجاحد والظالم هو الذي يوبخ أيّ شخص في أي مجال من أجلي. كما أعلن جهاراً أنه لا يوجد شيء من أعمالي سوى ما سبق طباعته: كل ما كان في المخطوطات، أحرقته، لأنه كتابةُ محتضرٍ عاجزٍ مرّ في حالة مرضٍ وتكلّف. لذلك، إذا ما قدم أيّ شخص شيئاً باسمي، أطلب منكم عدّه تزويراً حقيراً. لكني بدلاً من ذلك، أضع على عاتق أصدقائي مهمة جمع رسائلي كلها التي كتبتها إلى أيّ شخص، بدءاً من نهاية عام 1844، وبعد أن يختاروا منها اختياراً صارماً ما يمكن أن يجلب أي منفعة للروح فحسب، ويرفضوا كل شيء آخر يخدم الترفيه الفارغ، أنْ ينشروها في كتاب منفصل. لأنّ في تلك الرسائل ثمة شيئاً يصلح لجلب المنفعة للذين كُتبت لهم. والله رحيم؛ فلربما تصلح لمنفعة الآخرين أيضاً، وبذلك ترتفع عن روحي، وإنْ جزئياً، المسؤولية الجسيمة عن عدم جدوى ما كتبته سابقاً.

سادساً: (2).....

سابعاً: أوصي... لكنني تذكرت أنه لم يعد بإمكاني التصرف بهذا. لقد سرقت مني بتهوّرٍ حقوق الملكية الخاصة بي: بدون إرادتي وإذني، ونُشِرَت صورتي. لأسباب كثيرة لا أحتاج إلى الإعلان عنها، لم أكن أرغب في ذلك، لم أبِع أي شخص حقوق نشرها علناً وصددتُ جميع تجار الكتب الذين اتصلوا بي حتى الآن بعروض، وفي هذه الحالة فقط نويت أنْ أسمح لنفسي، لو ساعدني الله لأقوم بالعمل الذي شغل فكري طوال عمري، علاوة على ذلك، أنْ أفعله حتى يقول جميع مواطني بلدي بصوت واحد إنني قمت بعملي بصدق، بل وحتى أنهم كانوا يرغبون في معرفة ملامح وجه الشخص الذي كان حتى ذلك الحين يعمل في صمت ولا يريد أن يتمتع بشهرة لا يستحقها. وقد ارتبط بهذا ظرف آخر: إنّ صورتي، في مثل هذه الحالة، كان يمكن فجأة أنْ تُباع في العديد من النسخ، مما يحقق دخلاً كبيراً للرسام الذي كان من المفترض أن ينقشها. يعمل هذا الفنان منذ عدة سنوات في روما على رسم لوحة رافائيل الخالدة «تجلي الرب». لقد ضحى بكل شيء من أجل عمله، وهو عمل قاتل يلتهم العمر والصحة، وبهذا الكمال أدى عمله، وقد انتهى الآن، والذي لم يفعله أي رسام آخر حتى الآن. ولكن نظراً لارتفاع السعر وقلة عدد الخبراء لا

يستطيع نشر صورته المنقولة بأعداد تجعله يحصل على المكافأة المجزية مقابل كل شيء فعله؛ كانت صورتي ستساعده. ولكن الآن تغيرت خطتي: طالما أن صورة أي شخص إذا نُشرت تصبح ملكاً لكل من يشتغل في نشر المطبوعات والطباعة الحجرية. ولكن إذا ما حدث أنه بعد وفاتي، نُشرت الرسائل المنشورة بعدي وجلبت نوعاً من المنفعة العامة (حتى لو كان ذلك فحسب برغبة صادقة واحدة في إيصالها) وكان مواطنو بلدي يرغبون في رؤية صورتي، فعندئذ أسأل كل هؤلاء الناشرين أن يتنازلوا تكرماً عن حقهم؛ وكذلك أتوجه إلى قرائي، الذين حصلوا على صورة لي بدافع من الرضا الزائد بكل ما هو مشهور، وأطلب منهم تدميرها فور قراءة هذه السطور، لاسيما وأنها ظهرت بشكل سيئ وبدون شبه لي، وأن يشتروا الصور فقط التي يوضع عليها: «نقشها يوردانوف». وبهذا نكون، على الأقل، قد أنصفناه. وسيكون الأمر أيضاً أكثر إنصافاً إذا ما اشترى أولئك الذين لديهم القدرة المالية، بدلاً من صورتي، الصورة المنقولة من لوحة «تجلي الرب»، والتي، وفقاً لاعتراف الأجانب، هي قمة الرسم وتشكل مجداً روسياً.

يجب أن تُنشر وصيتي فور وفاتي في جميع المجلات وصحف الوقائع، وحتى في حالة الجهل بها، لن يصبح أحد مذنباً ببساطة أمامي، وبالتالي، لا يوبخ روحه.

1845

الموضوع التالي

المرأة في الناس

(رسالة إلى.... ما)

إنكِ تعتقدين أنه لا يمكن أن يكون لكِ أيّ تأثير على المجتمع؛ وأنا أعتقد العكس. إذ يمكن أن يكون تأثير المرأة كبيراً جداً، لاسيما في الوقت الحالي، وفي اتساق المجتمع أو اضطرابه الحالي، الذي يتمثل فيه التعليم المدني الفتعب، من ناحية، ومن ناحية أخرى – نوع من الفتور العقلي، ونوع من التعب الأخلاقي الذي يتطلب زخماً. ولتحقيق هذا الزخم، لا بد من الحاجة إلى مساندة من جانب المرأة. هذه الحقيقة، اندفعت على شكل حدس غامض فجأة في جميع أنحاء العالم، والجميع ينتظر الآن شيئاً من المرأة. وإذا ما تركنا كل شيء آخر جانباً، وألقينا نظرة على بلدنا، روسيا، وعلى وجه الخصوص على ما لدينا في كثير من الأحيان أمام أعيننا – على الكثير من جميع أنواع التعسف. اتضح أنّ معظم الرشاوى والمظالم في الخدمة وما في حكمها، التي يُتهم بها موظفونا وغير الموظفين من جميع الطبقات، نشأت إما من إسراف زوجاتهم، اللائي يتعطشن للغاية من أجل التألق في مجتمع الكبار والصغار ويطالبن بسبب ذلك أزواجهن بالمال، أو بسبب فراغ حياتهنّ المنزلية المكرسة لبعض الأحلام المثالية، وليس لجوهر مسؤولياتهنّ التي هي أجمل وأسمى عدة مرات من أيّ أحلام. ولما سمح الأزواج لأنفسهم بغشر الاضطرابات التي تسببوا فيها، لو كانت زوجاتهم يؤدين واجبهنّ بأي شكل من الأشكال. إنّ روح الزوجة تعويذة واقية للزوج، تحميه من عدوى الأمراض الأخلاقية؛ إنها القوة التي تبقيه على الطريق المستقيم، والدليل الذي يعيده من الطريق الأعوج إلى الطريق المستقيم؛ والعكس صحيح، روح الزوجة يمكن أن تكون شرّاً له وتدمره إلى الأبد. أنتِ نفسكِ شعرتِ بها وعبرّتِ عن ذلك بشكل جميل لم تعبر عنه أي سطور خطتها النسوة من قَبل. لكنكِ تقولين إنّ جميع النساء الأخريات أمامهن مضامين، ولكن ليس أمامكِ ثمة مضمار. وتزيّنّ لهنّ عملاً في كل مكان، إما تصحيح وتعديل ما أفسد، أو البدء بشيء ضروري من جديد، باختصار – المساعدة بكل طريقة ممكنة، لكنك لا ترينّ أيّ شيء لنفسك وتكررين بأسف: «لماذا أنا لست في مكانهنّ!» اعلمي، إذاً، أنّ هذا فقدان إحساس بالواقعية عام لدى الجميع. فكلّ فرد اليوم يتصوّر أنه يمكن أن يفعل الكثير من الخير لو كان في مكان آخر وفي وظيفة أخرى، ولكنه غير قادر على ذلك في وظيفته الحالية. هذا هو سبب الشرور كلها. يجب أن نفكر الآن في الكيفية التي يمكننا أن نفعل فيها الخير في مكاننا. صدقيني، ليس من العبث أنّ أمر الله كلّ واحد منّا أن يكون في المكان الذي يقف فيه الآن بالذات. ولا نحتاج لذلك سوى إلى إلقاء نظرة جيدة من حولنا. إنكِ تقولين لماذا

أنت لست أماً لعائلة، حتى تتمكنين من أداء واجبات الأم، التي تبدو الآن واضحة لك؛ ولماذا لا يختل النظام في ضيعتك حتى تُجبرين على الذهاب إلى القرية، وتمارسين مهامك كإقطاعية وتعتنين بممتلكاتك؛ لماذا لا يشغل زوجك وظيفة معقّدة ومفيدة للمجتمع، حتى تتمكنين من مساعدته هنا على الأقل وتكونين قوة تنعشه، ولماذا، بدلاً من هذا كله، ليس لديك سوى الزيارات الفارغة إلى الناس والمجتمع الأرستقراطي الفارغ والمنهك، وهو ما يبدو لك الآن أكثر قفراً من القفر نفسه. ومع هذا لا يزال العالم مسكوناً؛ وفيه ناس، وعلاوة على ذلك، فهم متماثلون في أي مكان آخر. إنهم مرضى ويعانون ومحتاجون، وبدون كلمات يصرخون طلباً للمساعدة – مع كل الأسف! بل وحتى لا يعرفون كيف يطلبون تلك المساعدة. فأي متسول ينبغي مساعدته أولاً: من لا يزال بإمكانه أن يخرج ويسأل، أم ذلك الذي لم يعد قادراً على مد يده؟ أنت تقولين إنك حتى لا تعرفين ولا يمكنك الاهتداء للكيفية التي يمكنك بها أن تكوني مفيدة لشخص ما في العالم؛ وأنه ينبغي أن يكون لديك العديد من الأنواع المختلفة من الأدوات، ويجب أن تكوني امرأة ذكية وذات معرفة كاملة لدرجة أنك تشعرين بالدوار من مجرد التفكير في هذا كله. ولكن ماذا لو كان هذا لا يتطلب إلا أن تكوني على ما أنت عليه الآن؟ وماذا لو كان لديك بالفعل تلك الأدوات اللازمة بالذات؟ كل ما تقولينه عن نفسك، صحيح تماماً: أنت بالتأكيد، صغيرة جداً، ولم تكتسبي معرفة الناس، ولا معرفة الحياة، بكلمة واحدة، لا تعرفين أيّ شيء ضروري لتقديم المساعدة الروحية للآخرين؛ وربما لن تكتسبي تلك المعرفة أبداً؛ ولكن لديك أدوات أخرى يمكنك من خلالها فعل أي شيء. أولاً: إنك تمتلكين الجمال، وثانياً: لديك سمعة لا تشوبها شائبة ولا يجرؤ أحد على الافتراء عليها، وثالثاً: القوة التي لا تشكين بها أنت بنفسك – قوة النقاء الروحي. جمال المرأة لا يزال لغزاً. إذ لم يكن عبثاً أنْ أمرَ الله بعض النساء أن يكنّ جميلات؛ ليس عبثاً أنه يجب على الجميع أن ينبهروا بالجمال على حدٍّ سواء، حتى أولئك الذين لا يبدون حساسية تجاه كل شيء وغير قادرين على أي شيء. إذا ما كانت ثمة نزوة واحدة لا معنى لها للجمال هي سبب الاضطرابات العالمية وهي التي جعلت أكثر الناس حكمة يفعلون أشياء غبية، إذاً، ماذا كان سيحدث لو استوعبت هذه النزوة وَوُجِّهت نحو الخير؟ وما مقدار الخير الذي يمكن أن تصنعه الجميلة مقارنة بالنساء الأخريات! لذلك، الجمال أداة قوية. لكنك، إضافة إلى ذلك، تتمتعين بأعلى درجات الجمال، وبسحر خالص مشوب ببراءة من نوع خاص تمتازين به وحدك، والذي لا يمكنني وصفه بالكلمات، ولكن تشع فيه روحك اللطيفة على الجميع. هل تعلمين أنّ أكثر شبابنا فساداً اعترفوا لي أنه لم يحدث لهم عندما يقفون أمامك أنْ فكّروا بشيء سيئ، وأنهم لم يجرؤوا بحضورك ليس فحسب على أنْ يقولوا كلمة غامضة يكرمون بها النساء الجميلات الأخريات، بل حتى مجرد كلمة، ربما تحمل نوعاً من الخشونة أو يكون الرد عليها بشيء جريء وغير لائق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا بحد ذاته تأثير واحد يحدث من دون علمك من مجرد وجودك! وإنّ من لا يجرؤ على أن يسمح لنفسه بفكرة سيئة أمامك، فقد صار يخجل من تلك الفكرة ولا يفعلها؛ ومثل هذا النداء إلى الذات، حتى لو كان ذلك مؤقتاً، فهو بالفعل الخطوة الأولى للفرد نحو الأفضل. لذلك، فهذه أداة أخرى قوية. بالإضافة إلى كل شيء، لديك شوق أودعه الله في روحك، أو كما تسميه أنت، عطش نحو فعل الخير.

هل حقاً تعتقدين أنّ من أجل لا شيء قد غُرس فيك هذا العطش، الذي لم تستريحي منه ولو دقيقة واحدة؟ فبعد أن تزوجتِ من رجل نبيل ذكي لديه كل الصفات التي تتيح له أنْ يجعل زوجته سعيدة، كما هو الحال بالفعل، وبدلاً من الاختباء في أعماق سعادتك العائلية، يعذبك التفكير في أنكِ لا تستحقين هذه السعادة ولا يحق لك التمتع بها في الوقت الذي يوجد فيه الكثير من المعاناة من حولك، حيث تُسمع كل دقيقة أخبار عن كل أنواع المصائب: عن الجوع والحرائق والحزن النفسي الشديد والأمراض العقلية الرهيبة التي يصاب بها الجيل الحالي. صدّقيني، هذا ليس من أجل لا شيء. إنّ مَن لديه في روحه مثل هذا الاهتمام السماوي بالناس، مثل هذه اللوعة الملائكية نحوهم برغم وجوده وسط أكثر أنواع التسلية إثارة، يمكنه أن يفعل الكثير، والكثير لهم؛ لديه مجال في كل مكان، لأن الناس في كل مكان. لا تهربي من الناس الذين كُلفتِ بهم، ولا تتجادلي مع العناية الإلهية. ففيكِ تعيش هذه القوة الخفية التي صارت الآن ضرورية للعالم: فصوتك نفسه، من سعيك المستمر بالتفكير لأن تهبّي لمساعدة أحدهم، قد اكتسب بالفعل نوعاً من الحروف المحبوبة للجميع، فإذا ما بدأتِ تتحدثين، إلى جانب نظرتك النقية وهذه الابتسامة التي لا تفارق شفتيك أبداً، والتي لا يمتلكها غيرك، سيبدو للجميع كما لو أنّ أختاً سماوية تتحدث إليهم. لقد أصبح صوتك كليّ القدرة؛ يمكنكِ أن تأمري وأنْ تستبدّي ليس مثل أي أحد منا. تأمرين من دون كلام، بحضورك فحسب؛ تأمرين من خلال عجزك الذي تستائين منه كثيراً؛ تأمرين بسحركِ الأنثوي هذا، الذي، للأسف! فقدته المرأة الحالية. مع قلة خبرتك الخجولة، ستفعلين الآن عدة مرات أكثر مما تفعله أيّ امرأة ذكية اختبرت كل شيء بفطرستها الفخورة: بقناعاتها الأكثر ذكاءً، والتي ترغب من خلالها في تحويل العالم الحالي على المسار، سوف تتراجع على عقبها من خلال أقوال ساخرة شريرة؛ لكن لن يجرؤ أحد على أن ينبس بشفتيه أقوالاً ساخرة عندما تطلبين من أحدنا أن يكون الأفضل بنظرة توسل واحدة منك وبدون كلمات. لماذا أنتِ خائفة للغاية من القصص عن فجور المجتمع الأرستقراطي؟ الفجور موجود بالتأكيد، بل وحتى أكثر مما تعتقدين؛ ولكن لا ينبغي لكِ حتى أن تعرفي عنه. هل تخافين من إغراءات الناس المروعة؟ حلّقي في الناس بجرأة، بنفس ابتسامتك المشرقة تلك. ادخلي إليهم كما تدخلين مستشفى مليئاً بالمرضى؛ ولكن لا تدخليه بصفة الطبيب الذي يجلب الوصفات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبية الصارمة والأدوية المرة: يجب ألا تفكري حتى في طبيعة الأمراض التي أصيبوا بها. ليس لديك القدرة على التعرف على الأمراض وعلاجها، ولن أقدم لك النصيحة التي يجب أن أقدمها لأي امرأة أخرى قادرة على ذلك. مهمتك تنحصر في أن تجلبي للمريض ابتسامتك وذلك الصوت الذي يمكن للإنسان أن يسمع فيه صوت أخته التي هبطت من السماء، ولا شيء أكثر من ذلك. لا تتوقفي عند البعض لوقت طويل، بل أسرعي لغيرهم، لأنك مطلوبة في كل مكان. واحسرتاه! الناس ينتظرون في جميع أنحاء العالم ولكن لا يأتيهم أي شيء آخر مثل تلك الحروف المألوفة، لذلك الصوت نفسه الذي لديك. لا تتحدثي مع الناس حول ما يثرثرون عنه بأنفسهم؛ اجبريهم على أن يتحدثوا عما تتحدثين عنه أنت. حفظك الله من كل تحذلق ومن كل تلك الأحاديث التي تأتي من شفاه بعض لبؤات هذه الأيام. احملي للناس قصصك البريئة التي ترويها بشكل كبير عندما تكونين في دائرة عائلتك وأصدقائك، عندما تتألق كل كلمة بسيطة في حديثك بهذه الطريقة، حتى يبدو لك روحاً تستمع إليك كما لو كانت تثرثر مع الملائكة عن طفولة سماوية للإنسان. احملي هذا الكلام بالتحديد إلى الناس.

1846

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الثالث

أهمية الأمراض

(من رسالة إلى الكونت أ. ب. ت...وي)

... قوتي تضعف كل دقيقة، ولكن ليس روحي. لم تكن الأمراض الجسدية منهكة لي بهذا الشكل أبداً. غالباً ما يكون الأمر صعباً للغاية، مثل هذا التعب الرهيب في جميع أجزاء جسدي، مما يجعلني سعيداً، سعادة يعلم الله مقدارها، عندما ينتهي النهار أخيراً وأوي إلى الفراش. غالباً، في حالة من العجز الروحي، أصرخ: «يا إلهي، متى ينتهي هذا الألم وأصل إلى شاطئ الأمان؟» لكن بعد ذلك، عندما أنظر إلى نفسي وأتعمق في النظر إلى داخلي، لا يصدر أيّ شيء من روحي، باستثناء الدموع والشكر. آه! كم نحن بحاجة إلى الأمراض! من بين الفوائد العديدة التي حصلتُ عليها منها، سأخبرك بفائدة واحدة فقط: الآن مهما كانت حالتي، لكني أصبحت أفضل مما كنت عليه من قبل؛ لولا هذه الأمراض، لكنت اعتقدت أنني صرت، مثل ما ينبغي أن أكون. ناهيك عن حقيقة أنّ الصحة بحدّ ذاتها، التي تدفع الإنسان الروسي باستمرار إلى نوع من القفزات والرغبة في التباهي بصفاته أمام الآخرين، كانت ستجبرني على ارتكاب ألف من الحماقات. علاوة على ذلك، الآن، في لحظات انتعاشي، التي تمنحني إياها النعمة السماوية وفي خضم المعاناة نفسها، تأتي إليّ أحياناً أفكار أفضل من الأفكار السابقة بشكل لا يضاهى، وأنا أرى الآن أنّ كل ما يخرج من قلمي سيكون أكثر أهمية من ذي قبل. لا أتمنى لك أنْ تقاسي عذاب الألم الشديد الذي أعاني منه الآن! مهما كانت أهميته لي بوصفي إنساناً! لكن، عندما أدرك في كل دقيقة أنّ حياتي تتعلق بشعرة، وأنّ المرض يمكن أن يوقف فجأةً عملي الذي تقوم عليه أهميتي(3) كلها، وتلك المنفعة التي ترغب روحي في تحقيقها، تبقى في الرغبة العاجزة وحدها، وليس في الأداء، ولن أراهن على المواهب التي منحني إياها الله، وأدين نفسي كآخر المجرمين... عندما أدرك هذا كله، أستكين على الفور ولا أستطيع أن أجد الكلمات التي أشكر بها عناية السماء على مرضي. وأنت أيضاً اذعن للقبول بأي مرض، وثق مسبقاً أنه ضروري لك. وأدعو الله فقط أن ينكشف لك معناه الرائع وعمق معانيه السامية.

1846

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الرابع

حول ماهية الكلمة

عندما قرأ بوشكين الأبيات الآتية من قصيدة ديرجافين(4) إلى خرابوفيتسكي:

دعه يقرأني على الكلمات،

الشاعر الساخر يُكرَّم على الأفعال. ـ

قال: «ديرجافين ليس فجأة تماماً: كلمات الشاعر جوهر أفعاله». إنّ بوشكين على حق. إذ يجب أن يكون الشاعر في مجال الكلمات معصوماً مثل أي شخص آخر في مجال اختصاصه. إذا ما بدأ الكاتب في التبرير لنفسه ببعض الظروف التي كانت سبباً لعدم الصدق، أو عدم التروي، أو التسرع في كلامه، ففي هذه الحالة يمكن لأي قاضٍ جائر أن يبرر لنفسه أخذ الرشاوى والمتاجرة بالعدالة، ويلقي باللوم على ظروفه العسيرة، وعلى زوجته، وعائلته الكبيرة، باختصار – ثمة الكثير مما يمكن للمرء أنْ يعتذر من خلاله. فالإنسان قد يواجه فجأة ظروفاً حرجة. لا شأن للأجيال القادمة بمن كان السبب الذي جعل الكاتب يقول حماقة أو سخافة، أو جعله يعبّر عن ذلك بشكل عام بلا تفكير وبغير نُضج. الأجيال القادمة لن تحاول إدراك مَن دفعه من ذراعه: سواء كان صديقاً قصير النظر، حرضه على العمل المبكر، أو صحفياً لا يهتم إلا بمنفعة مجلته، ولن تقبل الأجيال القادمة باحترام أي من المحسوبين أو الصحافيين أو فقره ومأزقه. وسوف توجه اللوم له، لا لتلك الظروف. لماذا لم تقاوم كل هذا؟ فبعد كل شيء، أنت نفسك شعرت بأمانة لَقَبك؛ وأنك استطعتَ الحفاظ على كرامته في الوظائف الأخرى الأكثر ربحية وفعلت هذا ليس بسبب بعض الخيال، بل لأنك سمعت في نفسك نداء الله، لأنك بالإضافة إلى ما ذُكِرَ نلتَ العقل الذي رأى حالات أكثر وأوسع وأعمق من تلك التي دفعتك. لماذا كنت طفلاً ولست رجلاً يحصل على كل ما يحتاجه الرجل؟ وباختصار، يمكن لكاتب عادي آخر أن يبرر الظروف، لكن ليس ديرجافين. لقد آذى نفسه كثيراً بعدم حرق نصف قصائده على الأقل. هذا النصف من القصائد هو ظاهرة مذهلة: لم يضحك أحد هكذا حتى الآن بعد على نفسه، وعلى قدسية أفضل معتقداته ومشاعره، كما فعل ديرجافين في هذا النصف المؤسف من قصائده. تماماً كما لو كان يحاول هنا رسم صورة كاريكاتورية لنفسه: كل ما لديه في أماكن أخرى جميل جداً، وخرٌ جداً، مشبع جداً بالقوة الداخلية للنار الروحية، هنا فتور وخواء روحي وتكلّف؛ والأسوأ من ذلك كله – هنا تتكرر التراكيب والتعبيرات نفسها وحتى عبارات كاملة لها أسلوب حاد في قصائده الحماسية التي هي ببساطة سخيفة هنا وتشبه قزماً ارتدى درع عملاق، وحتى لم يرتدِه بالطريقة الصحيحة. كم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الناس يتخذون الآن أحكاماً حول ديرجافين، بناءً على قصائده المبتذلة. كم شكّك الكثيرون في صدق مشاعره لمجرد أنهم وجدوها في أماكن كثيرة مُعبّراً عنها بضعف وبخواء روحي؛ وكم من الشائعات الغامضة التي نشأت حول شخصيته ونبله الروحي وحتى حول نزاهة تلك القضية العادلة التي وقف من أجلها. وكل ذلك لأن ما يجب أنْ يُحزق لم يُحرق. اعتاد صديقنا بـ...ن على تمزيق أي سطور لكاتب مشهور تقع في يده، ويحشرها فوراً في دفتر يومياته، من دون أنْ يزن بعناية فيما إذا كان ذلك شرف له أم عار عليه. ويعزز هذا الأمر بشرط معروف للصحفيين: «نتمنى أن يظل القراء والأجيال القادمة ممتنين لتوصيل هذه السطور الثمينة لهم، فكل شيء في الإنسان العظيم يستحق الفضول» وما شابه. كل هذا هراء. سيكون بعض القراء الصغار ممتنين؛ ولكن الأجيال القادمة ستبصق على هذه السطور الثمينة وتتجاهلها إذا ما تكرر فيها من دون روح ما هو معروف، وإذا ما كانت المقدسات لا تتنفس منها بما ينبغي أن يكون مقدساً. فكلما سمّت الحقائق، كلما كان ينبغي التعامل معها بحرص أكبر؛ وإلا فسوف تتحوّل فجأة إلى أمور مشتركة، والأمور المشتركة لم يعد يُعترَف بها. فالملحدون أنفسهم لم يفعلوا الشرّ بقدر ما يفعله المبشرون المنافقون أو حتى ببساطة غير المستعدين، الذين تجرؤوا على نطق اسم الربّ بشفاه غير مقدسة. ينبغي على المرء أن يتعامل مع الكلمة بأمانة. إنها أعظم هبة من الله للإنسان... والمصيبة أنْ يتلفظ الكاتب بالكلمة في تلك الأوقات التي يكون فيها تحت تأثير العاطفة، أو الانزعاج، أو الغضب، أو بعض الكراهية الشخصية لأي شخص آخر، وباختصار – في تلك الأوقات التي لم تصل فيها روحه بعد إلى الانسجام: ستخرج منه مثل هذه الكلمة التي ستصبح بغيضة للجميع. وبعد ذلك، في ظل أنقى رغبة في فعل الخير، يمكن فعل الشرّ.

وصديقنا بـ...ن نفسه مصداقاً على ذلك: لقد كان مستعجلاً طوال حياته، وتعجّل في مشاركة كل شيء مع قرائه، ليخبرهم بكل ما اقتبسه بنفسه، من دون أن يميز ما إذا كانت الفكرة قد نضجت في رأسه بطريقة تجعلها قريبةً ومتاحةً للجميع، باختصار – أظهر نفسه للقارئ بكل سخافاته. ثم ماذا؟ هل لاحظ القراء تلك الدوافع النبيلة والجميلة التي تألقت لديه كثيراً؟ وهل قبلوا منه ما أراد أن يطلعهم عليه؟ كلا، لم يلاحظوا فيه سوى الترهل وعدم الترتيب، وهو ما يلاحظه الإنسان قبل كل شيء، ولم يقبلوا منه شيئاً. لقد عمل هذا الرجل واجتهد مدة ثلاثين عاماً كالنملة، مستعجلاً طوال حياته كلها ليمرر سريعاً في أيدي الجميع كل ما وجده في صالح تنوير الإنسان الروسي وتكامله... ومع هذا لم يشكره أحد؛ ولم أقابل شاباً واحداً ممتناً يقول إنه مدين له ببعض النور الجديد أو السعي الرائع من أجل الخير، الذي أوحت به كلماته. على العكس من ذلك، تحتمّ عليّ حتى أن أجادل وأؤيد صفاء النوايا ذاتها وصدق كلماته أمام هؤلاء الأشخاص الذين، على ما يبدو، يمكنهم فهمه. كان من الصعب بالنسبة لي حتى إقناع أي

شخص، لأنه تمكن من التنكر أمام الجميع بطريقة لا تجعل شيئاً يظهره بالشكل الذي هو عليه حقاً... إنْ تحدث عن الوطنية، فإنه يتحدث عنها بطريقة تجعل الوطنية لديه تبدو قابلة للفساد؛ وإنْ تحدّث عن حبه للقيصر، الذي يكنه له بإخلاص وقدسية في روحه، يعبر عن نفسه بطريقة تشبه الخنوع والاسترضاء النفعي. أما غضبه الصادق وغير المتكلّف ضد أي اتجاه مؤذٍ لروسيا فيعبر عنه كما لو كان يشي ببعض الناس الذين يعرفهم وحده. باختصار، في كل خطوة هو نفسه مَن يشي بنفسه. من الخطر أن يمزح الكاتب مع الكلمة. لا تخرج الكلمة النتنة من فمك! إذا كان ينبغي تطبيق هذا علينا جميعاً من دون استثناء، فكم مرة ينبغي تطبيقه على أولئك الذين مجالهم هو الكلمة والذين هم مجبولون على التحدث عن الجميل والسامي. والمصيبة، أنْ تصدح كلمة فاسدة عن أشياء مقدسة وسامية؛ فالأفضل أنْ تصدح الكلمة النتنة عن الأشياء النتنة بالذات. فقد فرض جميع المربين العظماء للناس الصمت الطويل على أولئك الذين امتلكوا موهبة الكلام، على وجه التحديد في تلك الحالات وفي ذلك الوقت الذي يريدون فيه أن يتباهوا بالكلمة وتكون أرواحهم متحمسة لقول الكثير من الأشياء المفيدة للناس. ومعروف، كيف يمكن للمرء أن يلحق العار بما يسعى إلى تمجيده، وكيف أنْ لساننا في كل خطوة هو خائننا. قال يشوع بن سيراخ: «ضع باباً وأقفالاً على فمك، واصهر الذهب والفضة التي بحوزتك، لتصنع منها موازين تزن كلامك، واصنع لجاماً موثوقاً به يحبس فمك».

1843

الموضوع الخامس

قراءة أعمال الشعراء الروس أمام الجمهور

(رسالة إلى لـ *)**

من دواعي سروري أنْ بدأت لدينا، أخيراً، قراءات عامة لنتاجات كتابنا. لقد كتب لي أحدهم عن هذا من موسكو: إذ قُرِئت ثمة أشياء مختلفة من الكتابات الأدبية الحديثة، بما في ذلك القصص التي كتبتُها. لطالما اعتقدتُ أنّ القراءة العامة ضرورية لنا. فنحن بطريقة ما أكثر استعداداً للعمل مجتمعين، بل وحتى للقراءة مجتمعين؛ فكل فرد منّا عندما يكون وحده يشعر بالكسل، ولن يتحرك ما لم يرَ الآخرين قد تحركوا. يجب أنْ نعمل على تكوين قرّاء ماهرين في بلدنا: يوجد بيننا عدد قليل من الثرثارين المتفوهين الذين يمكنهم التبجح في المجالس والمنتديات، ولكن ثمة العديد من الأشخاص القادرين على التعاطف مع كل شيء. التعبير عن المشاعر ومشاركتها يتحول لدى الكثيرين إلى شغف، ويصبح هذا الشغف لديهم أقوى عندما يَبدَؤونَ يلاحظون بوضوح أكثر أنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بالكلمات (التي هي سمة الطبيعة الجمالية). وتُساعد في تكوين القارئين لغتُنا كذلك، التي يبدو أنها قد تكونت من أجل القراءة الحاذقة، والتي تحتوي على جميع ظلال الحروف والانتقالات الأكثر جرأة من السامي إلى البسيط في الخطاب الواحد نفسه. وحتى أنّي أعتقد أنّ القراءات العامة ستحل في النهاية محل العروض التمثيلية عندنا. لكني أود أن أرى في قراءاتنا الحالية شيئاً مُنتقى يستحق حقاً أن يُقرأ قراءة جماعية، حتى لا يأسى القارئ نفسه على الجهد الذي بذله عليه مسبقاً. لا يوجد شيء من هذا القبيل في أدبنا الحديث، ولا داعي لقراءة الأدب المعاصر. سيقرؤه الجمهور على أيّ حال، وذلك بفضل شغفه بالحداثة. كل هذه الروايات الجديدة (بما في ذلك رواياتي) ليست مهمة جداً لجعلها مادة للقراءة العامة. إننا بحاجة إلى أن نتوجه إلى شعرائنا، وإلى تلك الأعمال الشعرية الرفيعة التي أمعن الشعراء في التفكير بشأنها طويلاً وعالجوها في رؤوسهم، والتي يجب على القارئ العمل عليها مدة طويلة. لا يزال شعراؤنا غير معروفين تقريباً للجمهور. كُتِبَ عنهم كثيراً في المجلات، وحُلِّلَت أعمالهم حتى بإسهاب شديد، لكن مَن كتب ذلك كان يعبّر عن نفسه أكثر من تعبيره عن الشعراء الذين حُلِّلَت أعمالهم. لم تحقق المجلات شيئاً سوى أنها شوشت وخلطت مفاهيم الجمهور عن شعرائنا، إلى درجة أصبحت شخصية كل شاعر في نظره ذات شقين، ولا يمكن لأحد أن يحدّد بشكل قاطع جوهر كل واحد منهما. القراءة الماهرة وحدها يمكن أن تؤسس مفهوماً واضحاً عنهما. لكن، بالطبع، من الضروري أن يُنفّذ القراءة نفسها قارئٌ قادر على نقل كل سمة دقيقة لما يقرؤه. ولا ينبغي أنْ يقوم بذلك شابٌ متحمس مستعد في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خضم اللحظة ومن دون استراحة أنْ يقرأ في أمسية واحدة مأساة وكوميديا وقصيدة وكل ما يقع في يده. إنّ قراءة عمل غنائي وجداني بشكل صحيح ليس بالأمر السهل على الإطلاق، ويحتاج أنْ يُدرّس مدة طويلة. وينبغي أنْ يُقاسِم الشاعر بإخلاص المشاعر السامية التي ملأت روحه؛ ويجب على القارئ أنْ يشعر بكل كلمة من العمل بروحه وقلبه – وبعد ذلك فقط يكون بمقدوره المباشرة بالقراءة العامة. وهذه القراءة لا ينبغي أنْ تكون عالية على الإطلاق، ولا حامية ومتوهجة. بل على العكس من ذلك، فقد تكون هادئة جداً، ولكن في صوت القارئ تُسمع قوة غير معهودة تشهد على الحالة الداخلية المتأثرة حقاً. إنّ هذه القوة تنتقل إلى الجميع وتنتج معجزة: سيهتز لها أولئك الذين لم يهتزّوا لحروف الشعر. يمكن لقراءة أعمال شعرائنا أن تجلب الكثير من الصالح العام. فلديهم الكثير من الجمال، الذي لم يُنشَ تماماً فحسب، بل شُهِّرَ به وافتُرِيَ عليه وقُدِّمَ للجمهور بمعنى وضيع، لم يخطر على بال شعرائنا النبلاء مجرد خاطرة. لا أعرف لمن تنتمي فكرة التوجه إلى القراءات العامة لصالح الفقراء، لكنّ هذه الفكرة جميلة. وهذا الأمر مفيد لاسيما في هذا الوقت الذي يكثر فيه مَن يعانون داخل روسيا من الجوع والحرائق والأمراض وجميع أنواع المحن. وإن مثل هذا الاستغلال لأعمال الشعراء الذين غادرونا بمثابة العزاء لأرواحهم!

1843

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع السادس

حول مساعدة الفقراء

(من رسالة إلى أ. و. ســـــــيا)

... سأتناول هجماتكِ على حماقة شباب بطرسبورغ، الذين بدؤوا يقدمون أكاليل الذهب وكؤوسه للمغنيات والممثلات الأجنبيات في الوقت الذي تتضور فيه من الجوع مقاطعات كاملة في روسيا. هذا لا يأتي من الحماقة ولا من قساوة القلوب، ولا حتى من الرعونة. إنه يأتي من لا مبالاتنا جميعنا بالإنسان. هذه المصائب والأهوال التي سببها الجوع بعيدة عنا: إنها تجري داخل المحافظات، فهي ليست أمام أعيننا – هذا هو التعليل والتفسير لكل شيء! فذلك الذي دفع مائة روبل مقابل مقعد في المسرح للاستمتاع بغناء روبينيا، كان سيبيع آخر ممتلكاته إذا سنحت له فرصة أن يشهد عملياً واحدة على الأقل من تلك الصور الرهيبة للجوع، التي تفوق كل المخاوف والفظائع التي تُعرَض في الأعمال المسرحية. لن تختلف الحالة في مسألة التبرع بالنسبة لنا: نحن جميعاً على استعداد للتبرع. لكن التبرعات في الواقع للفقراء تُقدَم الآن في بلدنا على مضض، ويرجع ذلك جزئياً إلى عدم تأكد الجميع مما إذا كان تبرعه سيصل إلى وجهته الصحيحة، وما إذا كان سيقع في الأيدي التي يجب أن يقع فيها. بالنسبة للجزء الأكبر من الحالات، يحدث أن المساعدة، كما لو أنها شيء سائل محمول في اليد، تتسرب كلها في الطريق قبل وصولها، ولا يرى المحتاج منها إلا اليد الجافة فحسب التي لا يوجد فيها شيء. وهذا الموضوع يجب التفكير فيه قبل جمع التبرعات. سأتحدث معكِ عن هذا لاحقاً، لأن هذا الأمر مهم جداً ويستحق الحديث عنه بشكل معقول. الآن دعينا نتحدث عمَّن يحتاج إلى المساعدة العاجلة قبل غيره. إنَّ أول مَن يحتاج إلى المساعدة، هو الشخص الذي حدثت له مصيبة على حين غرة، التي حرمته فجأة، في لحظة واحدة، من كل شيء دفعة واحدة: إما حريق أتلف كل شيء وحوَّله إلى رماد، أو وباء أهلك الماشية كلها، أو موت اختطف السند الوحيد، بكلمة واحدة – أي فقدان مباغت، يجلب للفرد فجأة فقراً لم يسعفه الوقت بعد ليعتاد عليه. احملي لهؤلاء المساعدة. ولكن ينبغي أن تكون هذه المساعدة بطريقة مسيحية حقيقية؛ وإذا ما انحسرت المسألة في التبرع بالمال فحسب، فلن تعني شيئاً على الإطلاق ولن تتحول إلى خير. وإذا لم تكوني قد فكرتِ مسبقاً في وضع الشخص الذي تريدين مساعدته بالكامل، ولم تحملي معكِ له درساً عن الكيفية التي يجب أن يعيش فيها حياته من الآن فصاعداً، فلن يستفيد كثيراً من مساعدتكِ. نادراً ما تكون قيمة المساعدة المقدَّمة مساوية لقيمة الخسارة؛ بشكل عام، في حالات قليلة يمكن أنْ تكون نصف ما فقده الشخص، وغالباً ما تكون الربع منه، وأحياناً أقل من

ذلك. إنّ الإنسان الروسي قادر على كل ما هو متطرف: عندما يرى أنه بالقليل من المال الذي حصل عليه لا يمكنه أن يعيش الحياة كما كان من قبل، فإنه يمكن أن يخسر فجأة في حزنه ما حصل عليه من أجل الإنفاق الطويل الأجل. لذلك، علّميه كيف يراوغ بتلك المساعدة نفسها التي قدمتيها له، واشرحي له المعنى الحقيقي للنكبة التي حلت به، حتى يرى أنها وجُهت إليه، لكي يغيّر حياته السابقة، وحتى يكون من الآن فصاعداً ليس كما كان، بل وكأنه شخص آخر مختلف من الناحية المادية والمعنوية. ستكونين قادرةً على قول ذلك بذكاء، بمجرد أنْ تغوصي بعمق في طبيعته وفي ظروفه. وسوف يفهمك: المصيبة تلطّف الإنسان؛ فتصبح طبيعته بعد ذلك أكثر حساسية وقابلية على فهم الأشياء التي لا يفهمها الإنسان في وضعه المعاشي الاعتيادي؛ فبعد المصيبة يتحول كله إلى شمع ساخن، يمكنك من خلاله نحت ما تريدين. ومع ذلك، من الأفضل للجميع أن تُقدّم المساعدات بأنواعها من خلال أيدي كهنةٍ متمرسين وأذكياء. فهم وحدهم قادرون على أن يفسروا للإنسان المعنى المقدس والعميق للمصيبة، التي مهما كانت الصور والأشكال التي تبدو فيها لأي شخص على الأرض، سواء كان يعيش في كوخ أو قصر، تمثل الصرخة السماوية ذاتها، التي تدعو الإنسان إلى تغيير نمط حياته القديمة كلها.

1844

الموضوع السابع

حول الأوديسة التي ترجمها جوكوفسكي(5)

(رسالة إلى ن. م. يا...وف)

إنّ ظهور «الأوديسة»(6) سيخلق حقبة جديدة. «الأوديسة»، بلا شك، أكمل عمل وصلنا من جميع العصور. فحجمها كبير؛ و«الإلياذة» أمامها بمثابة مشهد. تجسّد «الأوديسة» العالم العتيق بأكمله، الحياة العامة والعائلية، وجميع مجالات الناس في ذلك الوقت، بحرفهم ومعارفهم ومعتقداتهم... باختصار، يصعب حتى تحديد ما ضمته «الأوديسة» أو ما تركته. وقد كانت على امتداد قرون عديدة معيناً لا ينضب للقدماء، ثم لجميع الشعراء. فقد اغترفت منها موضوعات لعدد لا يُحصى من الأعمال التراجيدية والكوميدية؛ وهذا كله انتشر في جميع أنحاء العالم، وأصبح مُلكاً للجميع، حتى نُسِيَت «الأوديسة» نفسها. إنّ مصير «الأوديسة» غريب: لم تُقيّم في أوروبا؛ ويرجع ذلك جزئياً إلى عجز الترجمة، التي من شأنها أن تنقل على نحو فنّي نتاج العصر العتيق الأكثر روعة، وجزئياً إلى الافتقار إلى لغة غنية ومكتملة للغاية، التي من شأنها أن تعكس جميع الجمال غير المُمَيَّز وغير المحصور في خطاب هوميروس بالذات وفي الخطاب اليوناني الهيليني بشكل عام؛ وأخيراً يعود هذا جزئياً إلى الافتقار للناس أنفسهم الذين يتمتعون إلى حدٍّ ما بهبة التذوق العذري النقي، وهو أمر ضروري للمرء لكي يستطيع الإحساس بفن هوميروس وتذوقه.

تُصاغ الآن ترجمة أول إبداع شعري بأكمل وأغنى لغة من بين جميع اللغات الأوروبية.

كانت حياة جوكوفسكي الأدبية كلها كأنها إعداد لهذا العمل. كان ينبغي أن يبني شعره على قاعدة من نتاجات وترجمات من شعراء جميع الأمم وجميع اللغات، حتى يصبح قادراً على نقل شعر هوميروس الخالد، – وأنْ يعوّد أذنه على الاستماع إلى جميع الإبداعات الشعرية، كي يكون حساساً لدرجة لا يسقط معها حتى ظل الصوت الهيليني؛ وكان لا بدّ له ألّا يقصر شغفه بهوميروس على نفسه فحسب، بل أنْ يكتسب أيضاً رغبة عاطفية في جعل جميع مواطنيه يعشقون هوميروس، من أجل المنفعة الجمالية لروح كل واحد منهم؛ كان لا بدّ من وقوع العديد من هذه الحوادث داخل المترجم نفسه، كي تؤدي إلى مزيد من الانسجام والهدوء لروحه، وهو أمر ضروري لنقل العمل المفضّل في مثل هذا الانسجام والهدوء؛ أخيراً، كان من الضروري له أن يكون مسيحياً بشكل أعمق من أجل الحصول على تلك النظرة الثاقبة والعميقة للحياة، التي لا يمكن لأحد أن يمتلكها إلا المسيحي الذي يدرك معنى الحياة. هذه بعض من الشروط العديدة

التي يجب استيفاؤها حتى لا تظهر ترجمة الأوديسة مجرد نقل خانع، بل أنْ تصدح فيها الكلمة الحية، حتى تقبل روسيا بأكملها هوميروس كشاعر من شعرائها!.

إنّ هذه الترجمة حدث رائع. فهي ليست مجرد ترجمة، بل إعادة تكوين واسترجاع، وبعث لهوميروس. كما لو كانت الترجمة تلج بنا إلى الحياة القديمة أكثر من الأصل نفسه. وصار المترجم مُفسّراً لهوميروس بشكل خفي، وكأنه مرآة توضيحية يرى القارئ من خلالها جميع كنوز هوميروس التي لا تُعدّ ولا تُحصى بوضوح أكثر ووصف أدق.

أرى أنّ جميع الظروف الحالية كما لو أنها زُئبت عن عمد بطريقة تجعل ظهور «الأوديسة» ضرورياً تقريباً في هذا الوقت بالذات: ففي الأدب، كما في كل شيء آخر، ثمة فتور. لقد تعبنا ولم نعد نشعر بالافتتان ولا بخيبة الأمل على حدّ سواء. وحتى نتاجات هذا القرن المتشنجة والمريضة التي امتزجت فيها جميع أنواع الأفكار غير المهضومة الناجمة عن التخمر السياسي وغيره، بدأت في الانخفاض بشكل كبير؛ القراء الخلفيون فقط، الذين اعتادوا على التشبث بذيول «قادة» المجلات، يعيدون قراءة شيء آخر، من دون أنْ يلاحظوا بسذاجتهم أنّ الحمقى الذين يقودونهم قد توقّفوا منذ مدة طويلة عن التفكير، ولم يعودوا يعرفون إلى أين يقودون قطعانهم التائهة. باختصار، هذا هو بالذات الوقت الذي ينبغي فيه بشدة ظهور عمل متناسق في جميع أجزائه، الذي من شأنه أن يصوّر الحياة بوضوح مذهل، والذي تشع منه سكينة وبساطة الأطفال تقريباً.

«الأوديسة» سيكون لها تأثير في بلدنا، سواء على الجميع بشكل عام، أو على كل فرد بشكل منفصل.

دعونا نمعن النظر في التأثير الذي يمكن أن تحدثه بشكل عام على الجميع. «الأوديسة» بالذات هي العمل الذي ضُمّنت فيه جميع الشروط اللازمة لجعله مادة لقراءة عامة وشعبية. إنها تجمع سحر الحكاية الخرافية كله وحقيقة المغامرة البشرية البسيطة كلها، التي لديها مفعول إغراء متكافئ على أيّ فرد، مهما كان. وسوف يقرؤها ويستمع إليها من دون ملل الجميع سواء كان من طبقة النبلاء أو حِرَفياً أو تاجراً، متعلماً أو أمياً، جندياً عادياً أو خادماً، أو طفلاً من كلا الجنسين ابتداءً من العمر الذي يبدأ فيه الطفل في حب الحكايات. وهذا الظرف مهم للغاية، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار حقيقة أنّ «الأوديسة» هي في الوقت نفسه أهم الأعمال من الناحية الأخلاقية وأنّ الشاعر القديم لم يؤلّفها إلا من أجل أنْ يصوّر قوانين أفعال الإنسان في ذلك الوقت في شخصيات حية.

تعدد الآلهة اليوناني لن يغوي شعبنا. أناسنا أذكياء: سوف يفسرون، من دون أنْ يرهقوا أنفسهم في التفكير، حتى تلك الأشياء التي يعجز عن تفسيرها الأذكياء. ولا يرون هنا إلا الدليل على مدى صعوبة اهتداء الإنسان بنفسه، بدون أنبياء وبدون وحي من السماء، إلى معرفة الله بشكله الحقيقي، وبأية أشكال عبثية سيتخيلون وجهه بعد أن خُطِّمَت الوحدة والوحدانية إلى العديد من الصور والقوى. وإنهم حتى لن يضحكوا على وثنيّ ذلك الزمان، معترفين بأنهم غير مذنبين بأي شيء: لأنهم لم يخاطبهم الأنبياء، ولم يولد المسيح آنذاك بعد، ولم يكن ثمة رسل. كلا، أغلب الظن أنّ أناسنا سوف يتحيرون ويحكّون أقفيتهم، بعد أنْ يشعروا، أنهم مع معرفتهم لله في شكله الحقيقي وامتلاكهم لشريعته بين أيديهم، بل وحتى وجود مفسرين للشريعة من الآباء الروحيين بينهم، إلا أنهم يُضلّون بتكاسل ويؤدّون الفرائض أسوأ من الإنسان الوثني القديم. وسوف يدرك الناس لماذا ساعدت تلك القوة العليا نفسها حتى الوثنيّ مقابل سيرته الطيبة ومقابل اجتهاده في الدعاء، على الرغم من حقيقة أنه، بسبب جهله، توجّه في دعائه إليها في شكل بوسيدون وكرونيون وهيفايستوس وهيليوس وسيبريدس وسلسلة (الآلهة) كلها التي حاكتها مخيلة الإغريق النشطة. باختصار، سيترك شعبنا الشّرك على جهة، وسيستخلص من «الأوديسة» ما يجب أن يستخلصه منها، أيّ ما هو مُدرَك فيها ومرئي للجميع، والذي وقع في روح محتواها والذي من أجله كُتِبَت «الأوديسة» نفسها، بمعنى أنّ الإنسان في كل مكان وفي كل مجال يواجه العديد من المشاكل ويحتاج إلى محاربتها، – ولهذا مُنِحَت الحياة للإنسان، – حتى لا ينبغي للمرء بأي حال من الأحوال أن يكتئب، تماماً كما لم يكتئب أوديسيوس، الذي التفت في كل الأوقات الصعبة والعصيبة إلى قلبه الرقيق، من دون أن يشك في أنه بمثل هذا النداء الداخلي لنفسه كان يصلي تلك الصلاة الداخلية إلى الله، التي يتلوها أيّ إنسان في أوقات الكوارث، حتى لو كان ليس لديه فكرة عن الله. هذا هو المُشتَرَك، والروح الحية لمحتواها، التي ستثير إعجاب الجميع بـ «الأوديسة» قبل أن يعجب البعض بمزاياها الشعرية وصحة الصور وحيوية الأوصاف؛ وقبل أن يندهش البعض الآخر من اكتشاف كنوز العصور القديمة بمثل هذه التفاصيل، التي لم يحتفظ بها لا النحت ولا الرسم ولا جميع الآثار القديمة بشكل عام؛ وقبل أن يندهش البعض الثالث من المعرفة الفائقة لجميع منحنيات الروح البشرية، التي كانت جميعها معروفة للأعمى الذي يرى كل شيء؛ وقبل أنْ ينبهر البعض الرابع من المعرفة العميقة للدولة، ومعرفة العلوم الصعبة لحكم الناس والتسلط عليهم، التي امتلكها أيضاً الشيخ السماوي، والمشرّع لجيله وللأجيال القادمة؛ بكلمة واحدة – قبل أن ينجذب أي شخص إلى شيء منفصل في «الأوديسة» وفقاً لحِرفته ومهنته وميوله وخصائصه الشخصية. وكل ذلك لأن هذه الروح بمحتواها، وهذا الجوهر الداخلي لها، مسموعة بشكل واضح للغاية، بحيث لا تخرج في أي إبداع

بمثل هذه القوة، مخترقة كل شيء ومتغلّبة على كل شيء، خاصة عندما نتأمل أيضاً في مدى سطوع جميع المشاهد، التي يمكن لكل واحد منها أنْ يكتسب ظلال المشهد الرئيس منها.

لماذا يشعر الجميع بذلك بمثل هذه القوة؟ لأنّ ذلك متأصل بعمق في روح الشاعر القديم. ويمكن للمرء أنْ يرى في كل خطوة كيف أراد (هوميروس) أن يُضفي على جمال الشعر الساحر كله ما يود أن يثبته في الناس إلى الأبد، وكيف سعى إلى أنْ يعزز في العادات الشعبية ما يستحق الثناء فيها، لتذكير الإنسان بأفضل وأقدس ما بداخله وأنه قادر على أنْ يجد السلوى في كل لحظة، وأنْ يترك في كل شخصية من شخصياته مثالاً لكل فرد في مجاله، وأنْ يترك للجميع، بشكل عام، مثالاً في أوديسيوس الذي لا يعرف الكلل في المضمار البشري.

هذا التبجيل الصارم للعادات، وهذا الاحترام المهيب للسلطة والقادة، على الرغم من محدودية السلطة نفسها، وهذا الحياء العذري لدى الشباب، وهذا الصلاح والحلم الدمث لدى الشيوخ، وهذه الضيافة الودية، وهذا الاحترام والتقديس تقريباً للإنسان بوصفه ممثلاً لصورة الله، وهذا الاعتقاد بأنه لا تنشأ فكرة حَسَنة واحدة في رأس الإنسان بدون الإرادة العليا لكائن أعلى منا وأنه لا يستطيع أنْ يفعل أيّ شيء بقواه الخاصة، باختصار – كل شيء، كل سمة بسيطة في «الأوديسة» تتحدث عن رغبة الشاعر الداخلية في أنْ يترك جميع الشعراء للإنسان القديم كتاباً حيوياً كاملاً للتشريع في وقت لم يكن فيه مشرعون أو مؤسسو أنظمة، في وقت لم توجد فيه ثمة قرارات مدنية ومكتوبة تحدد العلاقات بين الناس، في وقت كان الناس فيه لا يزالون لا يعرفون الكثير بل وحتى لا يستشعرون وجود شيء، في وقت كان فيه الشيخ السماوي (الأعمى، الفاقد البصر المشترك لدى جميع الناس، والمسلح بتلك العين الداخلية التي لا يملكها الناس) هو الوحيد الذي يرى كل شيء ويسمعه ويتصوّره ويستشعر قرب حدوثه!

وكيف أخفِيَ ببراعة جهد كامل من تأملات سنواتٍ عديدة تحت بساطة أكثر الروايات سذاجة! يبدو (هوميروس)، كما لو أنه جمع كل الناس في أسرة واحدة وجلس بينهم، كجدّ بين أحفاده، ومستعد حتى للعب معهم، ليسرد قصته الودودة ولا يهمه سوى ألا يُتعِب أحداً، ولا يرهقه بطول الدرس غير المناسب، بل أنْ يبثها وينشرها بشكل غير مرئي في الخليقة كلها، حتى يجتمع لديه أثناء اللعب كل ما مُنح للإنسان ليس من أجل اللعب، وحتى يُنفث بشكل غير محسوس أفضل ما عرفه ورآه في عمره وفي دهره. ويمكن للمرء أن يعدّ كل شيء حكاية خيالية تتدفق من دون تحضير، طالما لم تُكشَف بعد الدراسةِ المتأنيةِ البنيةُ المذهلةُ لكل نشيد (من الأوديسة) بشكل كامل ومنفصل. وكم هم أغبياء المتحذلقون الألمان الذين استنبطوا أنّ هوميروس – خرافة، وأنّ إبداعاته كلها – أغانٍ فولكلورية ومقطوعات شعبية مُرتّجلة عفوية!

لكن دعونا نتأمل في التأثير الذي يمكن أن تحدثه «الأوديسة» في بلدنا بشكل منفصل على كل فرد. **أولاً**: سيكون لها تأثير على إخواننا الكتّاب والشعراء. وسوف تعيد الكثيرين إلى النور، وتقودهم مثل ربّان ماهر من خلال الفوضى والظلام الناجم عن الكتّاب المُزعزِعين وغير المنظمين. وسوف تذكّرنا جميعاً مرة أخرى بأي بساطة ساذجة ينبغي إعادة إنشاء الطبيعة، وكيف نفهم كل فكرة حتى درجة الوضوح المحسوس تقريباً، وفي أي هدوء متوازن يجب أن يصب خطابنا. وستجعل مرة أخرى جميع كتّابنا يشعرون بالحقيقة القديمة التي يجب أن نتذكرها لقرون والتي ننساها دائماً، وهي: لا تأخذ القلم لتبدأ الكتابة قبل أنْ يستقر كل شيء في رأسك بالوضوح والترتيب الذي يكون فيه حتى الطفل قادراً على فهم ما تكتب وتذكّره. وسيكون «للأوديسة» تأثير، حتى أكثر مما على الكتّاب أنفسهم، على أولئك الذين ما زالوا يستعدون ليصبحوا كتّاباً، ومع وجودهم في المدارس الثانوية والجامعات، لا يزالون يرون مجالهم المستقبلي أمامهم بشكل غامض وغير واضح. ويمكنها أن تقودهم منذ البداية على الطريق المستقيم، وتنقذهم من التذبذب غير الضروري على طول المنعطفات الملتوية التي اصطدم بها أسلافهم إلى حدٍّ كبير.

ثانياً: ستؤثر «الأوديسة» على الذوق وعلى تطور الشعور الجمالي. وسوف تُنعش النقد. فقد تعبَ النقد وتعقّد من تحليل نتاجات الأدب الحديث الغامضة، ووجد العزاء في التنحي جانباً، وتجنب القضايا الأدبية والاقتصار على قول الأشياء التافهة. ربما، سيظهر العديد من النقاد الحاذقين حقاً حول «الأوديسة»، خاصةً أنه لا يكاد يوجد أي عمل آخر في العالم يمكن النظر إليه من زوايا متعددة مثل «الأوديسة». أنا على يقين من أنّ الأحاديث والتحليلات والاستدلالات والملاحظات والأفكار، التي ستثيرها «الأوديسة»، سوف تدوّي في مجلاتنا لسنوات عديدة. ولن يخسر القراء من هذا: فالنقاد لن يكونوا تافهين. وسيتعيّن عليهم أنْ يعيدوا قراءاتهم كثيراً وينظروا إليها من جديد ويعيدوا فهمها وإدراكها؛ فالإنسان السطحي الفارغ لن يجد حتى ما يمكن أنْ يقوله بشأن «الأوديسة».

ثالثاً: يمكن أن يكون «للأوديسة» بلباسها الروسي، الذي كساها إياه جوكوفسكي، تأثير كبير على تنقية اللغة. إذ لم يصل الخطاب الروسي إلى مثل هذا الامتلاء حتى الآن، ليس عند جوكوفسكي فقط في كل ما كتبه حتى الآن، بل وحتى عند بوشكين وكريلوف، وهما أكثر دقة منه بما لا يقاس في الكلمات والتعبيرات. فقد صُقلت هنا كل تقلبات الخطاب وانعطافاته في جميع التصريفات. الأحقاب الزمنية الكبيرة بشكل لا نهائي، التي كانت ستبدو لدى أي شخص آخر خاوية ومعتمة، والمدد الزمنية المضغوطة والقصيرة التي ستبدو لدى غيره جافة ومقطّعة ومن شأنها أن تقسّي الكلام، لكنها لديه استقرت على نحو ودي بجانب بعضها البعض، وكل

انتقالات الأضداد ولقاءاتها تحدث في مثل هذا التناغم، إذ يندمج كل شيء في بوتقة واحدة، ويتسامى هذا كله في كتلة واحدة ثقيلة، حتى يبدو قد اختفى تماماً كل مقطع لفظي وبنية كلامية: وتختفي كلها، تماماً كما لا يختفي المترجم نفسه. ويقف في مكانه أمامنا، بكل جلال، الشيخ هوميروس، فيسمع المرء تلك الخطب المهيبة الأبدية التي لا تخرج من شفاه غيره، والتي قُدّرَ لها أن تنتشر إلى الأبد في العالم. هنا سيرى كتّابنا بأيّ حذر معقول ينبغي استعمال الكلمات والتعبيرات، وكيف يمكن أنْ تسترد كل كلمة بسيطة قيمتها السامية من خلال القدرة على وضعها في مكانها المناسب، ومقدار ما تعنيه للمؤلّف الذي يُخَصّص للاستعمال العام، وهو مؤلّف عبقري. وسيَرَون هذا الاتساق الخارجي، وهذا الإتقان الخارجي في كل شيء: فهنا أصغر شائبة تُلاحَظ وتلفت انتباه الجميع. يقارن جوكوفسكي هذه الشوائب بقصاصات ورق مُبعثَرَة في غرفة مكنوسة ومُرَتّبة بشكل رائع، حيث يتوهج كل شيء بوضوح كالمرآة، من السقف إلى أرضية الباركيه: كل من يدخل سيلقي نظره أولاً وقبل كل شيء على قصاصات الورق هذه، وللسبب نفسه على وجه التحديد، لا تُلاحَظ على الإطلاق في الغرفة غير المرتبة وغير النظيفة.

رابعاً: سيكون «للأوديسة» تأثير بالمعنى الفضولي، سواء على أولئك الذين يمارسون العلوم أو على أولئك الذين لم يدرسوا أي علم، من خلال نشر المعرفة الحية للعالم القديم. لا يمكن لك أنْ تجد في قراءة أي تاريخ ما تجده في «الأوديسة»: فهي، يفوح منها عبق الزمن الماضي؛ ويقف فيها أمام عينيك الإنسان القديم كأنه حي، وكأنك بالأمس رأيته وتكلمت معه. هكذا تراه في جميع أفعاله، في جميع ساعات اليوم: كيف يستعد بوقار لتقديم الأضحية، وكيف يتحدث بوقار مع الضيف على مائدة الضيافة، وكيف يرتدي، وكيف يخرج إلى الساحة، وكيف يستمع إلى الشيخ وهو يعلّم الشباب؛ وترى منزله، وعربته، وغرفة نومه، وأصغر قطعة أثاث في المنزل، من الطاولات المتحركة إلى مزلاج الحزام عند الباب – كل شيء أمام عينيك، حتى أعذب مما في حفريات آثار بومبي.

أخيراً، أعتقد أنّ ظهور «الأوديسة» سيؤثر على الروح الحديثة لمجتمعنا بشكل عام. في الوقت الحاضر بالذات، عندما بدأ، بإرادة العناية الإلهية الخفية، سماع همهمة الاستياء المؤلمة في كل مكان، وصوت الاستياء البشري من كل ما هو موجود في العالم: من ترتيب الأشياء، ومن الزمن، ومن النفس ذاتها. وفي الوقت الذي يبدأ فيه الجميع أخيراً في الشك في الكمال الذي رفعنا إليه وعينا المدني الجديد والتنوير؛ وفي الوقت الذي يشعر فيه كل واحد منّا بنوع من العطش الغريزي لكي لا يكون على ما هو عليه، وربما المتولد من مصدر رائع ليكون أفضل؛ وفي الوقت الذي يمكن للمرء فيه أنْ يسمع، من خلال الصرخات الخرقاء والوعظ الطائش بالأفكار الجديدة التي لا تزال تُدرَك بشكل غامض، نوعاً من الرغبة العامة في الاقتراب من وسط مرغوب

فيه، لإيجاد قانون حقيقي للنشاط، سواء بين الجماهير أو بين الأفراد؛ باختصار، في هذا الوقت بالذات، سوف تدهشنا «الأوديسة» بنمط الحياة القديمة الفخم، وببساطة القوى الاجتماعية الفخرّكة، ونضارة الحياة، ووضوح الإنسان الصافي والطفولي. في «الأوديسة»، سيسمع الناس في قرننا التاسع عشر توبيخاً شديداً لأنفسهم، ولن يكون ثمة حدّ لهذا التوبيخ ما داموا يتطلعون إلى «الأوديسة» عن كتب ويقرؤونها بعمق.

أيّ شيء يمكن أن يكون، على سبيل المثال، أقوى من التوبيخ الذي ستسمعه الروح عندما ترى كيف أنّ الإنسان القديم، بأدواته الصغيرة وبجميع نقائص دينه الذي سمح له حتى بالخداع والانتقام واللجوء إلى المكر من أجل تدمير العدوّ، وبطبيعته المتمردة والقاسية وغير الميالة للطاعة، وبقوانينه التافهة، مع ذلك، استطاع بالأداء البسيط وحده لعادات العهد القديم والطقوس التي لم يشرعها بلا معنى الحكماء القدامى ويأمروا أن تنتقل على شكل مقدّسات من الأب إلى الابن، أن يصل إلى النقطة التي اكتسب فيها نوعاً من انسجام الأفعال وحتى جمالها، إلى درجة أصبح كل شيء فيه مهيباً من الرأس إلى أخمص القدمين، من الكلام إلى الحركة البسيطة وحتى ثنية ثوبه، إلى درجة كأنك ترى فيه حقاً المنشأ الإلهي للإنسان؟ ونحن، بكل ما نملكه من وسائل وأدوات هائلة للتكامل، بخبرات جميع القرون، وبطبيعتنا المرنة الميالة للتقليد والمحاكاة، وبالدين الذي وهِبَ لنا بالذات ليجعل منّا أناساً مقدسين وسماويين – بهذه الأدوات كلها، وصلنا إلى هذه الدرجة من الإهمال والاضطراب، سواءً من الخارج أو من الداخل، وصِرنا مُرَقّعين وصغاراً، من الرأس إلى لباسنا، وبالإضافة إلى ذلك كله صرنا نشمئز بعضنا من بعض لدرجة لم يعد أحدٌ يحترم أي أحد، وحتى لا يُستثنى من ذلك أولئك الذين يتحدثون عن احترام الجميع.

باختصار، ستؤثر «الأوديسة» على أولئك الذين يعانون ويتعذبون من تكاملهم الأوروبي. وسوف تذكرهم بالكثير من الجمال الطفولي، الذي (للأسف!) قد ضاع، ولكن يجب على الإنسانية أن تعيده إلى نفسها بعدّه إرثها الشرعي. وسوف يفكر الكثيرون في أشياء كثيرة. وفي الوقت نفسه سوف يتشتت بشكل غير مرئي على وجه الأرض الروسية الكثيرُ من وقت المحافظين المتمسكين بما هو قديم، الذين توجد لديهم مثل هذه الألفة مع الطبيعة الروسية. وسيهُبّ على الأرواح من خلال شِفاه الشعر العطرة ما لا يمكن للمرء أن يجلبه بأيّ قانون ولا بأيّ سلطان!

الموضوع الثامن

كلمات قليلة عن الكنيسة والروحانيين لدينا

(من رسالة إلى الكونت أ. ب. تـ...وي)

من العبث أنْ تمتعض من الهجمات التي تتعالى الآن في أوروبا ضد كنيستنا. إنّ اتهام رجال الدين لدينا باللامبالاة سيكون أيضاً ظلماً. لماذا تريدون من رجال الدين لدينا، الذين كانوا يتمتعون حتى الآن بالهدوء المهيب الذي يليق بهم، أن ينضمّوا إلى صفوف الصارخين الأوروبيين وأنْ يشرّعوا، مثلهم، بطباعة كتيبات متهورة؟ لقد تصرفت كنيستنا بحكمة. ولكي تستطيع الدفاع عن الكنيسة، ينبغي عليك أن تعرفها بنفسك أولاً. ولكننا عموماً نعرف كنيستنا معرفة سيئة. الروحانيون لدينا ليسوا عاطلين. إنني أعلم جيداً أنّ في أعماق الأديرة وفي صمت الصوامع تُعَدّ مؤلّفات لا تُدحَض للدفاع عن كنيستنا. لكنهم يؤدّون أعمالهم بشكل أفضل مما نفعل: فهم لا يتعجّلون، ولأنهم يعرفون ما يتطلّب منهم مثل هذا الشيء، فإنهم ينجزون عملهم في هدوء عميق، وهم يصلون، ويرتّون أنفسهم، ويطردون عن أرواحهم كل ما هو انفعالي ومشابه للهيجان الجنوني غير المناسب، ويتسامون بأرواحهم إلى ذروة ضبط المشاعر السماوية التي يجب أن يكونوا عندها حتى حتى يتمكنوا من التحدث عن مثل هذا الشيء. لكن حتى هذا الدفاع لن يعمل بعد على إقناع الكاثوليك الغربيين بشكل كامل. ينبغي أن تكون لكنيستنا قدسية في داخلنا وليس في كلامنا. ويجب أن نكون نحن الكنيسة ويجب أن نبشّر بحقيقتها. إنهم يقولون إنّ كنيستنا هامدة. – لقد كذبوا، لأن كنيستنا هي الحياة؛ لكنهم أخرجوا أكاذيبهم بشكل منطقي، واستنتجوا الاستنتاج الصحيح: نحن الجثث، وليس كنيستنا، وبسببنا أسمّوا كنيستنا جثة. كيف يمكننا الدفاع عن كنيستنا وما الإجابة التي يمكن أن نقدمها لهم إذا ما طرحوا علينا مثل هذه الأسئلة: «هل جعلتكم كنيستكم الأفضل؟ هل يؤدي كل واحد منكم واجبه كما ينبغي؟» بماذا سنرد حينئذٍ عليهم، بعد أنْ نشعر فجأة في نفوسنا وضميرنا بأننا كنا نسير طوال الوقت من جانب كنيستنا ولا نكاد نعرفها حق المعرفة حتى الآن؟ إننا نمتلك كنزاً لا يُقدّر بثمن، وإننا ليس فحسب لا نحرص على الإحساس به، بل ولا نعرف حتى أين نضعه. يُطلَب من صاحب الدار إظهار أفضل شيء في منزله، ولكن صاحب الدار نفسه لا يعرف مكان ذلك الشيء. إنها الكنيسة، التي بقيت، مثل العذراء العفيفة، من أيام الرسل على نقائها الأولي الطاهر، إننا لا نعرف هذه الكنيسة التي، بعقائدها العميقة وبأصغر طقوسها الخارجية، كأنما أُنزِلَت من السماء مباشرة إلى الشعب الروسي، والتي وحدها تقدر على حلّ جميع عُقَدِ الحيرة وإعطاء الأجوبة على أسئلتنا، والتي تقدر على أن تنتج معجزة لم تُذر من قبل في ذهن أوروبا

كلها، بعد أن تجبر كل طبقة ورتبة ووظيفة لدينا على الدخول في حدودها ومجالاتها القانونية من دون تغيير أيّ شيء في الدولة، وتمنح روسيا القوة لإبهار العالم كله بالانسجام المتناغم لهذه المنظومة نفسها الذي كانت تهدد بها حتى الآن – هذه الكنيسة لا نعرفها! وهذه الكنيسة، المخلوقة للحياة، لم نُدخلها بعدُ في حياتنا!.

كلا، ليحفظنا الله من الدفاع عن كنيستنا الآن! إنّ ذلك بمثابة إسقاطٍ لها. ليس لدينا سوى دعاية واحدة ممكنة – حياتنا فحسب. بحياتنا يجب أن ندافع عن كنيستنا التي هي الحياة كلها؛ بعبق أرواحنا يجب أن نُبشّر بحقيقتها. دع مُبشّر الكاثوليكية الغربية يلطم على صدره، ويلوّح بيديه وببلاغة تنهداته وكلماته يمسح دموعه التي ستجفُ قريباً. يجب أن يظهر واعظ المذهب الكاثوليكي الشرقي أمام الناس بطريقة يبدو معها حتى من مظهره المتواضع وعينيه الخامدتين وصوته الهادئ المُذهِل المنبثق من الروح التي ماتت فيها كل رغبات العالم، كأنّ كل شيء يتحرك فيه حتى قبل أنْ يشرح الأمر نفسه، وحتى يُقال له بصوت واحد: «لا تنطق بالكلمات، نحن نحسّ حقيقة كنيستك المقدسة بدون ذلك!».

الموضوع التاسع

حول الشيء نفسه

(من رسالة إلى الكونت أ. ب. تـ...وي)

إنّ الملاحظة القائلة بأنّ سلطة الكنيسة ضعيفة في بلادنا، وأنّ رجال الدين في بلادنا لديهم القليل من التواصل الدنيوي والبارع في المجتمع، هي عبثية مثل التأكيد على أن رجال الدين لدينا قد أبعِدوا تماماً من كل اتصال بالحياة من خلال قوانين كنيستنا، وقد قيّدت الحكومة أفعالهم. حُدّدَت لرجال الدين لدينا حدود قانونية ودقيقة في تواصلهم مع المجتمع ومع الناس. صدقني، إذا ما بدؤوا يلتقون بنا أكثر، أو يشاركون في اجتماعاتنا اليومية والولائم، أو يتدخلون في شؤون الأسرة، – فلن يكون ذلك جيداً. يواجه الروحاني العديد من الإغراءات، أكثر منا بكثير: فستظهر لديه تلك الدسائس في المنازل التي يُتهَم بها كهنة الروم الكاثوليك. أصبح قساوسة الروم الكاثوليك سيئين لأنهم صاروا دنيويين للغاية. لدى رجال الدين في بلادنا مجالان شرعيان يجتمعون فيهما معنا: هما الاعتراف والوعظ. ويمكنهم عمل الكثير في هذين المجالين، اللذين يحدث الأول منهما مرة أو مرتين في السنة، والثاني يمكن أن يكون في أي يوم أحد. وإذا ما عرفَ الكاهنُ، وهو يرى الكثير من الأشياء السيئة في الناس، كيف يسكت عنها إلى وقت معيّن ويفكر مع نفسه مدة طويلة كيف يمكنه أنْ يتحدث عنها بطريقة تصل فيها كل كلماته إلى القلب، فإنه سيقول الكثير عنها في الاعتراف وفي الموعظة بما لا يحكي عنه في أحاديثه اليومية معنا. من الضروري أن يتحدث من مكان مرتفع إلى الفرد الواقف وسط الناس، حتى لا يحس الفرد بحضوره في هذا الوقت، بل يحسّ بحضور الله نفسه، الذي يرعاهما كليهما على حدٍّ سواء، وسوف يشعر الخوف المتبادل من حضوره غير المرئي. كلا، إنه لأمر جيد أن يكون رجال الدين لدينا على مسافة بعيدة نوعاً ما منا. من الجيد أنهم تميّزوا عنّا حتى بملابسهم ذاتها، من دون أن يخضعوا لأي تغييرات وأهواء أزيائنا الغبية. ملابسهم جميلة ومهيبة. هذا ليس لباس الروكوكو(7) المتبقي من دون معنى من القرن الثامن عشر، أو لباساً مرقعاً من ملابس الكهنة الروم الكاثوليك غير مفسّر بشيء. إنها ملابس منطقية: إنها في صورة ومثال الملابس التي كان يرتديها المخلّص نفسه. من الضروري أن يحملوا في ملابسهم تذكيراً أبدياً بالشخص الذي يجب أن يمثلوا صورته لنا، حتى لا ينسوا للحظة ولا يضيعوا بين اللهو والاحتياجات الضئيلة للعالم، لأنهم سيُطلب منهم ألف مرة أكثر مما يُطلَب مِن كل واحد منّا؛ حتى يشعروا باستمرار أنهم، كما لو كانوا أناساً مختلفين وأسمى من غيرهم. كلا، طالما أنّ الكاهن لا يزال

صغيراً والحياة مجهولة بالنسبة له، فلا ينبغي له حتى أن يلتقي بالناس ما عدا في الاعتراف والوعظ. إذا ما كان لا بدّ له من الدخول في محادثة، فربما يجوز الحديث مع أكثر الناس حكمة وخبرة فقط، الذين يستطيعون أن يعرّفوه على روح الإنسان وقلبه، وأن يصوروا الحياة له في شكلها ونورها الحقيقيين، وليس بالشكل الذي تبدو فيه لشخص عديم الخبرة. يحتاج الكاهن أيضاً إلى وقت من أجل نفسه: يحتاج إلى العمل على نفسه. يجب أن يأخذ مثالاً من المخلّص، الذي قضى وقتاً طويلاً في البرية قبل أن يخرج ليعلمهم بعد صوم تحضيري دام أربعين يوماً. ابتدع بعض الأشخاص المُتحذلِقين اليوم بدعة مفادها أنه يجب التدافع وسط الناس من أجل معرفتهم. هذا مجرد هراء. يمكن دحض مثل هذا الرأي من خلال جميع الأشخاص الدنيويين الذين يندفعون دائماً وسط الناس، وعلى الرغم من كل ذلك، فإنهم أكثر خواءً من الجميع. إنهم يتكاملون من أجل الناس ليس وسط الناس، بل بعيداً عنهم، في تأمل داخلي عميق، وفي دراسة روحهم الذاتية، لأن هناك قوانين كل شيء ولكل شيء: ابحث أولاً عن مفتاح لروحك، أنت؛ وعندما تجد ذلك المفتاح، ستفتح به نفسه أرواح الجميع.

الموضوع العاشر

حول غنائية شعرائنا

(رسالة إلى ف. ل. جـ...وي)

دعنا نتحدث عن المقال الذي صدر عليه حكم الإعدام، أي المقال المعنون: «حول غنائية شعرائنا». بادئ ذي بدء، شكراً على حكم الإعدام! للمرة الثانية أُنقذ على يديك، يا مؤدّبي الحقيقي ومعلمي! في العام الماضي أوقفتني يدك عندما كنت على وشك أنْ أرسل إلى بليتنوف في مجلة «سوفريمينيك»(8) (المعاصر) قصصي حول الشعراء الروس؛ الآن أخلث من جديد إلى التدمير ثمرة جديدة من ثمرات حماقتي. أنت الوحيد الذي ما زال يوقفني، بينما يستعجلني الآخرون لسبب غير معروف. كم من الحماقات كان يُقدّر لي ارتكابها لو أنني أطعت أصدقائي الآخرين فقط! إذاً، ها هي أنشودتي التي أشكرك عليها أولاً! ثم دعنا ننتقل إلى المقالة نفسها. أشعر بالخجل عندما أفكر في مدى غبائي وكيف لا يمكنني التحدث عن أي شيء أكثر ذكاءً. الأفكار والشائعات حول الأدب هي الأكثر سخافة. هنا، بطريقة ما، يصبح كل شيء مزوّقاً وقاتماً وغير مفهوم بالنسبة لي. لا أستطيع أن أنقل أفكاري الخاصة، التي لا أراها فقط بذهني، بل أشعر بها في قلبي. إنّ روحي تشعر بالكثير، لكن لا أنْ أنقل أيّ شيء بالكلام أو بالكتابة. أساس مقالتي صحيح، لكنني في الوقت نفسه شرحت بطريقة أثارت تناقضاً في كل تعبير. أكرر الشيء نفسه مرة أخرى: في غنائية شعرائنا، هناك شيء لا يمتلكه شعراء الأمم الأخرى، وأعني به، الشيء القريب من الكتاب المقدس، – أيّ تلك الحالة السامية من الغنائية الوجدانية، التي هي غريبة عن الحركات العاطفة وهي ارتفاع متين في عالم العقل، الانتصار السامي للرصانة الروحية. بصرف النظر عن الحديث عن لومونوسوف(9) وديرجافين(10)، وحتى من بوشكين(11) يمكن للمرء سماع هذه القصائد الغنائية الصارمة في كل مكان، أينما تناول الأشياء السامية. تذكّر فقط قصائده: إلى راعي الكنيسة و«النبي» وأخيراً هذا الهروب الغامض من المدينة الذي نُشر بعد وفاته. راجع قصائد يازيكوف(12) وسترى أنه في كل مرة يكون بطريقة ما أسمى بما لا يقاس من العواطف، ومن نفسه ذاتها، عندما يتناول شيئاً أسمى. سوف أستشهد بإحدى قصائده الصغيرة، والتي تسمى «العبقري»؛ إنها ليست طويلة:

عندما حلّق النبي نحو السماء،

وهو يرعد ويتوقّد،

احترقت النار العظيمة

روح إليسع (13)الحية.

ولأنّ روحه مليئة بالمشاعر المقدسة،

تشجّعت وازدادت قوة

وأضاءت بالإلهام،

وسمعت كلام الله.

هكذا يرتجف العبقري من الفرح،

فهو يعرف عظمته،

عندما يتوهج أمامه ويرعد

تحليقٌ عبقري آخر.

فتنضج قوته التي تنبعث

وتضيء على الفور للمعجزات،

أضواءً جديدة للعالم –

إنها أفعال مختار السماء.

يا له من نور، ويا لها من عظمة! لقد أوضحت هذا من خلال حقيقة أنّ شعراءنا رأوا كل شيء نبيل في اتصاله الشرعي بالمصدر الأسمى للوجدانية – أي بالله. بعضهم رآه بوعي، والبعض الآخر بغير وعي، لأن الروح الروسية، بسبب طبيعتها الروسية، تشعر بهذا بطريقة ما من تلقاء نفسها، ولا يُعرَف لماذا يحدث هذا. قلتُ إنّ موضوعين أثارا في شعرائنا هذه القصائد الغنائية القريبة من الكتاب المقدس. أولهما – روسيا. بهذا الاسم وحده، تتوقد نظرة شاعرنا فجأة، وتتسع آفاقه أكثر، ويصبح كل شيء أوسع بالنسبة له، ويبدو أنه هو نفسه يرتدي العظمة، ويصبح أسمى من الإنسان العادي. هذا شيء أكثر من مجرد حبٍّ عاديٍّ للوطن الأم. الحب العادي للوطن كان سيثير التفاخر المُفرِط بالحلاوة. والدليل على ذلك هو ما يسمى عندنا بالوطنيين المختمرين: بعد سماع مدحهم، على الرغم من صدقهم، لا يسعك إلا أنْ تبصق على روسيا وتتجاهلها. في هذه الأثناء، سيبدأ ديرجافين الحديث عن روسيا – تسمع قوة غير طبيعية في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسك، وكأنك، أنت نفسك تتنفس عظمة روسيا. ربما ما كان حب الوطن البسيط وحده أنْ يمنح القوة ليس لديرجافين فحسب، بل وحتى ليازيكوف أنْ يعبر عن نفسه بهذا الاتساع وهذه الهيبة كلما تناول روسيا، مثلاً، على الأقل، في الأبيات التي يصور فيها كيف خطى باتوري(14) على الوطن:

... خاتمة ستيفان

في أحد المعسكرات العظيمة

جمع حشوداً كثيفة –

قد يُهلك أهالي بيسكوف،

ويدمّر روسيا!

لكنك حملتَ السلاح،

بحب الوطن،

أنت، ما كان يفخر به أجدادنا،

فواجهتَ الدم بالدم –

ومنعته من الاحتفال بالنصر!

هذه القوة الرصينة من الناحية البطولية، التي تتّحد أحياناً مع التنبؤ اللاإرادي عن روسيا، تتولّد من تعلّق الفكرة اللاإرادي بالعناية الإلهية العليا، التي يمكن الإحساس بتأثيرها بوضوح في مصير وطننا. إلى جانب الحب يساهم هنا رعب خفي عند رؤية تلك الأحداث التي أمر الله أن تحدث في الأرض المخصصة لتكون وطننا، وعند رؤية مبنى جديد جميل، الذي يبدو أنه لم يُبنَ في الوقت الحالي للجميع، والذي على ما يبدو يمكن أن يحسّ به الشاعر من خلال أذن الشعر التي تحس بكل شيء، أو أحد المتبصرين الذي يمكن أن يرى في الحبة ثمرتها. الآن بدأ الناس الآخرون يحسون به شيئاً فشيئاً، لكنهم يعبرون عن أنفسهم بشكل غامض لدرجة أنّ كلماتهم تبدو وكأنها جنون. يبدو لك عبثاً أنّ شباب اليوم، الذين يهتمون بالمبادئ السلافية ويتنبؤون بمستقبل روسيا، يتبعون الموضة العصرية. إنهم لا يعرفون كيف يحملون الأفكار في رؤوسهم، ويستعجلون لإعلانها للعالم، ولا يلاحظون أن أفكارهم لا تزال صغيرة وغبية، وهذا كل شيء. فقد تنبأ فجأة بين الشعب اليهودي أربعمائة نبي: منهم واحد فقط مختار من الله، وقد دخلت

حكايته في الكتاب المقدس للشعب اليهودي؛ على الرغم من أنّ الآخرين، ربما قالوا الكثير من الأشياء غير الضرورية، لكنهم مع ذلك سمعوا بشكل غامض وقاتم الشيء نفسه الذي يمكن أن يقوله المختارون بشكل منطقي وواضح؛ ولولا ذلك لرجمهم الناس. لماذا لا تُصاب فرنسا ولا إنكلترا ولا ألمانيا بهذه البدعة ولا تتنبأ عن نفسها، بل تتنبأ روسيا فقط؟ – لأنها تحس بيد الله أكثر من غيرها في كل ما يتحقق فيها، وتشعر باقتراب الملكوت الآخر. ولهذا أصبحت الحروف إنجيلية لدى شعرائنا. ولا يمكن أن يكون هذا هو الحال بالنسبة لشعراء الأمم الأخرى، مهما كان مدى حبهم لوطنهم ومهما عرفوا كيف يعبّرون عن هذا الحب بحرارة. لا تجادلني في هذا الموضوع، يا صديقي الرائع!

لكن دعنا ننتقل إلى موضوع آخر، الذي تُسمع فيه لدى شعراؤنا أيضاً تلك القصائد الغنائية العالية، التي يدور عنها الكلام، أيّ الحب تجاه القيصر. من كثرة الترانيم والقصائد إلى القياصرة، اكتسب شعرنا، منذ زمن لومونوسوف وديرجافين، نوعاً من التعبير المهيب والملكي. لا أحد يشك في أنّ مشاعرهم صادقة. لكن الشخص الذي يتمتع بذكاء قليل، وقادر على بعض التصورات الخفيفة والفورية، سيرى هنا المديح والرغبة في الحصول على شيء ما، وسيستند هذا التصور إلى بعض القصائد التافهة والسيئة للشعراء أنفسهم. لكن الشخص الأكثر ذكاءً، والذي هو حكيم، سيتوقف أمام قصائد ديرجافين تلك التي يصف للسلطان (الحاكم) مجموعة واسعة من أفعاله المفيدة، والتي يخبره هو نفسه، والدموع في عينيه، عن تلك الدموع التي هي على وشك أنْ تُذرَف من عيون، ليس الروس فقط، بل وحتى من عيون المتوحشين غير الحساسين الذين يعيشون في أطراف الإمبراطورية، من مجرد لمسة من تلك الرحمة وهذا الحب الذي يمكن لحكومة قوية واحدة أن تظهره للشعب. لقد قيل الكثير هنا بقوة لدرجة أنه حتى لو كان ثمة حاكم نسي واجبه لمدة من الوقت، فبعد قراءة هذه السطور، سيتذكره مرة أخرى وسيتأثر بقدسية لقبه. فقط أولئك الذين يعانون من برودة القلب سوف يلومون ديرجافين لإفراطه في مدح يكاتيرينا(15)؛ ولكن مَن ليس قلبه مِن حجر لن يقرأ بدون رقة تلك المقاطع الرائعة التي يقول إنه إذا ما انتقل تمثاله الرخامي إلى الأجيال القادمة، فذلك فقط:

لأنني أنشدتُ للروس عن تلك الملكة،

التي لا يوجد مثلها

لا هنا ولا في المستقبل في العالم الواسع:

تفاخري، تباهي، بهذا، يا قيثارتي!

كما أنه لن يقرأ هذه الأبيات التي كادت أن تحتضر من دون إثارة روحية صادقة:

هيخوخة الأرواح باردة، وتنتزع الصوت من القيثارة:

ملهمةُ يكاتيرينا نائمة.

... لم أعد أستطيع الغناء.

سأترك للمنشدين الآخرين

أوتاري البالية تدوّي.

فيستمد المحاربون منها مرة أخرى

تلك النيران المشتعلة الخالصة،

فيُنشِدون كما أنشدتُ للقياصرة الثلاثة.

لن يكذب العجوز الذي أصبح عند حافة القبر. فقد حمل حياته هذا الحب، كشيء مقدّس، ونقلَه إلى الآخرة، كشيء مقدّس أيضاً. ولكن ليس هذا بيت القصيد، من أين أتى هذا الحب؟ – هذا هو السؤال. أن يشعر به الشعب كله بنوع من الغريزة القلبية، وبالتالي فإنّ الشاعر، بوصفه الصورة الأنقى للشعب نفسه، ينبغي أن يشعر بذلك الحب بأعلى درجة – وهذا سوف يفسر نصف الأمر فقط. فالشاعر الكامل والمتكامل لا ينغمس في أي شيء من دون وعي، من دون أن يختبره بحكمة عقله الكامل. ولأنه سَلَفاً يمتلك حسّاً مرهفاً، ويحمل في حدّ ذاته الرغبة في إعادة خلق الشيء نفسه كاملاً الذي يراه الآخرون بشكل مجزأ، من جانب واحد أو من جانبين، وليس من جميع الجوانب الأربعة، كان لا بدّ أن يرى التطور الكامل لهذه السلطة. كم كان بوشكين ماهراً في تحديد أهمية العاهل الكامل السلطة وكم كان ذكياً في كل ما قاله في الأيام الأخيرة من حياته! فقد قال: «لماذا ينبغي أن يصبح أحدنا فوق كل شيء وحتى فوق القانون نفسه؟ لأنّ القانون – جامد كالخشبة؛ وفي القانون يحسّ الإنسان شيئاً قاسياً وغير وديّ. والتطبيق الحرفي وحده للقانون، لن يحقق المبتغى؛ لا ينبغي لأيّ منا أن ينتهك القانون أو لا ينفّذه؛ ولكن في الوقت نفسه، ثمة حاجة إلى الرحمة السامية، التي تخفف القانون، والتي يمكن أن تظهر للناس في السلطة القوية وحدها فقط. فالدولة من دون عاهل تشبه آلة ذاتية الحركة: وستتطلب الدولة الكثير جداً حتى تصل إلى ما وصلت إليه الولايات المتحدة. ولكن، ما هي الولايات المتحدة؟ إنها مِيتة؛ طُمِسَ الإنسان فيها لدرجة أنه لم يعد يساوي شروى نقير. الدولة من دون عاهل قوي مثل أوركسترا من دون قائد: مهما كان العازفون جيدين، ولكن إذا ما لم يكن ثمة

واحد بينهم من شأنه أن يعطي إشارة إلى كل واحد منهم بحركة من عصاه، فلن تخرج كونشيرتو بأي حال من الأحوال. يبدو أنه لا يفعل شيئاً بنفسه، لا يعزف على أيّ آلة، مجرد يلوح بعصاه قليلاً وينظر إلى الجميع، غير أنّ نظرته كافية لأن تُلَطِّف، في هذا المكان أو ذاك، صوتاً خشناً كان يمكن أنْ ينطلق من طبل أخرق أو آلة موسيقية هوجاء. فبحضوره، لا يجرؤ حتى عازف الكمان الرئيس على الانهماك كثيراً على حساب الآخرين: إنه يراقب النظام العام، ويعطي الحيوية لكل شيء، إنه قائد الانسجام الأعلى!» كم كان بوشكين مصيباً في تعبيره! وكم أدرك مغزى الحقائق العظيمة! وحتى أنه عبر جزئياً عن هذا الكائن الداخلي (قوة العاهل المطلَق السلطة) في إحدى قصائده، التي، بالمناسبة، أنت نشرتها بنفسك في مجموعة أعماله بعد وفاته، حتى أنك أجريت تعديلاً على بيت فيها، ولكنك لم تحزر المعنى. الآن سأكشف السر. إنّي أتحدث عن القصيدة المكرّسة للإمبراطور نيكولاي، والتي ظهرت مطبوعة تحت اسم متواضع: «ك ن***». هذا هو أصلها. كان ثمة أمسية في قصر أنيتشكوف(16)، إحدى تلك الأمسيات التي، كما تعلم، لم يَدعُ لها سوى عدد قليل من مجتمعنا. وكان بوشكين آنذاك من بينهم. رُتِّبَ كل شيء في القاعات وتجمع المدعوّون؛ لكن الإمبراطور بقي مدة طويلة خارج القاعة. فقد ابتعد عن الجميع إلى النصف الآخر من القصر ولكي يستغل اللحظة الأولى من وقت الفراغ، فتح «الإلياذة»، فاستحوذت عليه قراءتها الوقت كله الذي كانت فيه الموسيقى تعزف في القاعات وكان الرقص على قدم وساق. ودخل إلى الحفلة متأخراً بعض الشيء، وعلى وجهه آثار انطباعات مختلفة. لم يلاحظ أحد من المدعوين هذا الأمر، لكنه ترك انطباعاً قوياً في روح بوشكين، وكانت ثمرته القصيدة المهيبة الآتية، والتي سأكررها هنا كلها، كلها في مقطع واحد:

لقد تحدثتَ طويلاً مع هوميروس بمفردك،

بينما نحن كنا ننتظرك منذ مدة طويلة.

وهبطتَ مشرقاً من القمم الخفية

وجلبتَ لنا ألواح (شريعتك).

ثم ماذا؟ وجدتنا في الصحراء تحت الخيمة،

في جنون وليمة عبثية،

نغني أغنية صخب ونقفز من حول

الصنم الذي خلقناه من أنفسنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا في حيرة من أمرنا، فتجلبنا شعاعك،

فلعنتنا في نوبة من الغضب والحزن،

نحن الأطفال الطائشون،

بعد أن حطّمت ألواح (شريعتك).

كلا، أنت لم تلعننا. إنك تحب أن تنزل

من علوك تحت ظل وادٍ صغير،

إنك تحب رعد السماء، وتصغي أيضاً

إلى أزيز النحل فوق الوردة القرمزية.

دعنا نترك شخصية الإمبراطور نيكولاي ونحلل ماهية العاهل بشكل عام، بصفته الممسوح من الله (لاعتلاء العرش)، الملزَم بأن يوجّه الشعب المؤتمَن عليه إلى العالم الذي يسكنه الله، وهل كان لبوشكين الحق في تشبيه الإمبراطور بموسى ناظر الله القديم؟ ذلك الرجل الذي أُلقي على عاتقه مصير الملايين من أصحابه، الذي تحرر بالمسؤولية الرهيبة تجاههم أمام الله من كل مسؤولية أمام الناس، والذي تألم من رعب هذه المسؤولية وبكى، ربما، لم تَرَ هذه الدموع، دموع الذي يعاني مثل هذه المعاناة، التي لا يمكن للإنسان الموجود في الأسفل أن يفكر بها مجرد تفكير، والذي، في خضم التسلية نفسها، يسمع نداء الله الأبدي، الذي يرن في أذنيه رنيناً لا يهدأ، – هذا يمكن تشبيهه بناظر الله، وربما، يستطيع، مثل موسى، أن يكسر الألواح، ويلعن العشيرة (السّبط) التي قلّبتها الرياح (غيّرت عقيدتها)، التي، بدلاً من السعي وراء ما يجب أن يسعى كل شيء من أجله على الأرض، تقفز بصخب تافه حول الأصنام التي صنعتها من نفسها. لكن بوشكين أوقفه المغزى الأسمى للسلطة نفسها التي توسلها عجز الجنس البشري الضعيف من السماء، ليس بالصراخ من أجل العدالة السماوية، التي ما كان لأحد على وجه الأرض أنْ يتحمّلها، ولكن بصرخة حب الله السماوي. الحب، الذي يمكن أن يغفر لنا كل شيء، بما في ذلك نسيان واجبنا، وتذمرنا الشديد، – كل ما لا يغفره الإنسان على الأرض، حتى يكتسب المرء قوته في نفسه وينفصل عنا جميعاً ويصبح أسمى من كل شيء على الأرض، لكي يصبح أقرب إلى الجميع على السواء، وينزل من علوّه إلى كل شيء ويصغي إلى كل شيء، بدءاً من رعد السماء وقيثارة الشاعر إلى تسلياتنا غير المحسوسة.

يبدو كما لو أن بوشكين في هذه القصيدة، بعد أن سأل نفسه عن ماهية هذه السلطة، انحنى

هو نفسه أمام عظمة إجابته التي نشأت في روحه. لا ضير أن نقول إن هذا هو الشاعر الذي كان فخوراً للغاية باستقلالية آرائه وبكرامته الشخصية. لم يقل أحد عن نفسه كما قال:

شيّدتُ لنفسي نصباً لا تُشيده الأيدي

لا يمتد إليه سبيل الناس:

شامخاً برأسه الأشَمّ

أعلى من مسلة نابليون(17).

على الرغم من أنك، بالطبع، ملوم على «مسلة نابليون». لكن لنفترض، حتى لو بقي البيت في شكله السابق، فإنه سيظل دليلاً، وحتى دليلاً كبيراً، على أنّ بوشكين مع شعوره بتفوقه الشخصي، بوصفه إنساناً، على العديد من ذوي التيجان، كان في الوقت نفسه يشعر بضآلة رتبته أمام رتبة العاهل ولهذا عرف كيف ينحني بوقار أمام أولئك الذين أظهروا للعالم عظمة رتبتهم.

لقد أدرك شعراؤنا أهمية العاهل العليا، لأنهم شعروا أنه يجب أن يكون كله حباً، وبالتالي يعرف الجميع لماذا يكون الحاكم صورة الله، وهو أمر تسلّم به بلادنا كلها، طالما أنه بالإحساس. إن أهمية الملك في أوروبا تقترب حتماً من ذلك التعبير نفسه. كل شيء يؤدي إلى إثارة الحب الإلهي الأعلى للشعوب في الملوك. لقد سمعنا صرخات المعاناة الروحية للبشرية جمعاء، والتي أصيب بها كل شعب من الشعوب الأوروبية الحالية تقريباً، واندفع، المسكين، من دون أنْ يعرف كيف يساعد نفسه وبأيّ شيء: كل لمسة دخيلة لجروحه الشديدة الألم؛ وكل علاج، كل مساعدة يخترعها العقل هي سمجة بالنسبة له ولا تجلب الشفاء. ستزداد حدة هذه الصرخات في نهاية المطاف لدرجة أنّ القلب غير الحساس سوف ينفجر بالشفقة، وقوة التعاطف غير المسبوق حتى الآن سوف تستدعي قوة حب آخر لم يسبق له مثيل حتى الآن. سوف يتوهّج الإنسان بالحب للبشرية جمعاء، بشكل لم يتوهج بمثله من قبل. لن يتمكن أحد منا، نحن الناس العاديين، أنْ يُبدي مثل هذا الحب بكل قوته؛ وسيبقى في الأفكار والتأملات لا في الأفعال؛ لا يستطيع الانغماس بهذا الحب تماماً، إلا أولئك الذين تعيّن عليهم في قانون ملزم أنْ يحبوا الجميع كشخص واحد. وبعد أن يحب كل شيء في دولته، حتى كل فرد من أيّ فئة أو رتبة، ويتعامل مع كل ما بداخلها، كما لو كان يتعامل مع جسده، ويشعر بالألم في روحه على الجميع، ويحزن ويبكي ويصلّي ليلاً ونهاراً من أجل شعبه المتألم، سيكتسب الملك صوت الحب المطلق هذا، والذي يمكن أن يكون وحده متاحاً للبشرية المتألمة، والذي لن تكون لمسته قاسية على جراحها، والذي وحده فقط يمكنه أن يحقق الوئام لجميع الطبقات ويحول الدولة إلى أوركسترا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متناغمة. سيتعافى الناس تماماً في المكان الذي يحقق فيه الملك المغزى السامي، – أيْ أن يكون صورة الله على الأرض، الذي هو نفسه محبة. وفي أوروبا، لم يخطر ببال أحد أنْ يحدد المغزى السامي للعاهل. فرجال الدولة والمشرّعون وعلماء القانون ينظرون إلى جانب واحد من جوانبه، أي بصفته المسؤول الأعلى في الدولة، الذي نصّبه الناس، وبالتالي فهم لا يعرفون حتى كيف يتعاملون مع هذه السلطة، وكيف يشيرون إلى الحدود التي ينبغي فيها توسيع نطاق السلطة ثم تقييدها عندما يحتاج الأمر إلى ذلك أحياناً، بسبب ظروف الحياة اليومية المتغيرة. وبهذا وضع الملك والشعب كلاهما في علاقة غريبة فيما بينهما: فهما ينظران إلى بعضهما البعض بنفس الطريقة تقريباً، مثل نقيضَين يريدان استخدام السلطة أحدهما على حساب الآخر. الشعراء في بلادنا هم بالذات مَن أدرك المغزى السامي للعاهل، وليس المشرّعون، فقد هجسوا باختلاج إرادة الله لخلق السلطة في روسيا في شكلها القانوني؛ وهذا هو السبب الذي جعل حروفهم تبدو إنجيلية في كل مرة تنبس فيها شفاههم بكلمة «قيصر». وليس الشعراء وحدهم من يحسّ بهذا المغزى في بلادنا، لأن صفحات تاريخنا تتحدث بوضوح شديد عن إرادة العناية الإلهية: عسى أن تتشكل هذه السلطة في روسيا بشكلها الكامل والمكتمِل. الأحداث في وطننا كلها، بدءاً من استعباد التتري، تميل على ما يبدو إلى جمع السلطة في يد شخص واحد، حتى يكون قادراً على إحداث هذا الانقلاب الكبير لكل شيء في الدولة، ويهز كل شيء، وبعد أن يوقِظ الجميع، يسلح كل واحد منا من خلال تلك النظرة السامية إلى نفسه ذاتها، التي بدونها لا يمكن للمرء أنْ يحلل نفسه ويدينها، ويشنّ في نفسه ذاتها تلك الحرب على كل ما هو جاهل ومظلم، التي شنّها القيصر في دولته؛ وحتى، في وقت لاحق، عندما يلتهب الجميع حماسة لهذه الحرب المقدسة ويدرك الجميع قوتهم، سيتمكن أيضاً، بمفرده، أمام الجميع، والسراج في يده، أن يوجه شعبه كله، كنفس واحدة، إلى ذلك النور الأسمى الذي تنشده روسيا. انظر أيضاً، بأيّ وسيلة مُدهِشة كانت بذور الحب المتبادل قد غُرِسَت في القلوب حتى قبل أنْ يُفسّر المغزى الكامل لهذه السلطة للمَلِك ولرعاياه على حدٍّ سواء! لم يبدأ بيت مَلَكي واحد بمثل هذه البداية غير العادية التي بدأ بها بيت آل رومانوف(18). كانت بدايته مأثرة حبّ. إنّ آخر وأدنى تابع من رعايا الدولة هو الذي حملَ حياته وضحى بها ليعطينا قيصراً، وبهذه التضحية النقية ارتبط الحاكم بالتابع برباطٍ لا انفصام له. ودخل الحب في مجرى دمنا، فارتبطنا جميعاً برابطة الدم مع القيصر. وهكذا اندمج الحاكم وأصبح يشكل مع رعاياه كلاً واحداً لدرجة أننا جميعاً صرنا نرى نكبةً عامة – أنْ ينسى الحاكم أحداً من رعيته أو يتخلى عنه، أو أن ينسى التابع حاكمه ويتخلى عنه. ومن الواضح أيضاً أن تبدو إرادة الله في اختيار عائلة آل رومانوف لهذا الغرض، وليس عائلة غيرها! كم هو غير مفهوم تتويج شاب مجهول! لقد حضر الانتخاب رجالٌ من أقدم العائلات، علاوة على ذلك،

حضر الرجال ذوو البسالة الذين أنقذوا للتو وطنهم: بوجارسكي(19) وتروبيتسكي(20)، وأخيراً الأمراء، المنحدرون مباشرة من روريك(21). تجاوزهم الانتخاب جميعاً، ولم يكن ثمة صوت واحد ضده: لم يجرؤ أحد على المطالبة بحقوقهم. وحدث ذلك في زمن الاضطرابات الذي كان باستطاعة أيّ أحد أنْ يتشاجر وأنْ يتحدى ويجنّد عصابات من الأتباع! ومَن الحُتِيزَ(22)؟ مَن انحدر بالقرابة إلى القيصر من الخط النسوي، الذي انتشر الرعب منه في المدة الأخيرة في جميع أنحاء الأرض، إلى درجة لم يخشه البويار(23) فقط الذين تعرضوا للقمع والإعدام على يديه، بل حتى الشعب نفسه، الذي لم يتحمل منه أذية تقريباً، والذي ردّد هذا القول مدة طويلة: «نعمَ الرأس كان، ولكن الحمد لله، أخفته الأرض». وفي ظل ذلك كله، قرر الجميع بالإجماع، من البويار إلى أصغر فلاح، أن يعتلي هو العرش. هكذا، تحدث الأمور في بلادنا! فكيف تريد، أنت، لغنائية شعرائنا، الذين استشفّوا التعريف الكامل للقيصر من أسفار العهد القديم (التوراة) والذين في الوقت نفسه رأوا إرادة الله عن كثب في جميع الأحداث في وطننا، ألّا تكون مليئة بالظلال الإنجيلية؟ أكرر، لم يكن الحب البسيط كافياً لإخماد أصواتهم بمثل هذا الرصانة القاسية؛ هذا الأمر يتطلب اقتناعاً تاماً وثابتاً بالعقل، وليس شعوراً غريزياً بالحب فحسب، وإلا فإن حروفهم كانت ستخرج ناعمة، كما في مؤلفاتك السابقة في أيام شبابك، عندما كنت تنغمس في الشعور بروحك المحبة فقط. كلا، هناك شيء قوي، قوي جداً لدى شعرائنا، لا يملكه شعراء الأمم الأخرى. إذا كنت لا ترى هذا، فهذا يعني أنه لم يثبت بعد أنه لم يكن موجوداً على الإطلاق. تذكر أنت بنفسك أنك ليس لديك جميع جوانب الطبيعة الروسية؛ على العكس، فقد تغلل بعضها فيك إلى درجة عالية وتطوّرت على نطاق واسع لدرجة أنها من خلال هذا لم تعطِ مكاناً لغيرها، فأصبحتَ، أنت، استثناءً من جميع الشخصيات الروسية العامة. لقد احتويتَ تماماً على جميع الأوتار الناعمة واللطيفة لطبيعتنا السلافية؛ لكن تلك الأوتار السميكة والقوية، التي يمر منها الرعب والارتجاف السريان عبر التكوين الكامل للإنسان، ليست مألوفة لك. أهم الأعمال من الناحية الأخلاقية الشعر الغنائي الذي نتحدث عنه. لم يعد بإمكان هذه الغنائية أن تصعد إلى أي شيء سوى مصدرها إلا إذا رأى بصمة الله عليه. إنّ مَن فيه ثمة ذرة واحدة من هذه الغنائية، فهو، على الرغم من كل العيوب والنواقص، يحتوي على نبلٍ روحي قاسٍ وسامٍ، يرتجف نفسه أمامه ويجعله يهرب من كل ما يشبه التعبير عن الامتنان من الجانب البشري. سيشعر بالاشمئزاز فجأة من أفضل إنجاز له إذا تبعته أي مكافأة: إنه يشعر كثيراً أنّ كل شيء سامٍ يجب أن يكون أعلى من المكافأة. لم يُكشف عن علاقة بوشكين الحقيقية بالقيصر وأسرار أفضل عملين له إلا بعد وفاته. في حياته لم يخبر أحداً عن المشاعر التي ملأته، وتصرف بحكمة. ومن ثم، كنتيجة لكل أنواع الهتافات الفاترة في الصحف، المكتوبة على شكل صياغة لإعلانات أحمر الشفاه،

وجميع أنواع السلوكيات الغريبة الغاضبة وغير المرتبة والعاطفية التي تصدر عن جميع أصناف الوطنيين الحقيقيين وغير الحقيقيين، توقفنا في روسيا عن الإيمان بصدق جميع التدفقات المطبوعة، – كان من الخطر على بوشكين أن ينشرها: سيُسقى مرتشياً أو شخصاً يبحث عن المنفعة. ولكن الآن، عندما ظهرت هذه الأعمال بعد وفاته فقط، لم يعد أحد في روسيا كلها يجرؤ على وصف بوشكين بأنه متملق أو متزلف لأي شخص مهما علت رتبته. ومن خلال ذلك، احتُفِظَ بقدسية الشعور السامي. والآن كل شخص حتى مَن لا يقدر على فهم الأمر بعقله، سيأخذ الأمر على أساس الإيمان، قائلاً: «إذا ما كان بوشكين نفسه يعتقد ذلك، فهو بالتأكيد حقيقة واقِعة». أذهلت ترانيم شعرائنا بحب القيصرِ الأجانبَ أنفسهم بأسلوبها وصياغتها المهيبة. منذ وقت ليس ببعيد تحدث ميتسكيفيتش(24) عن هذا في محاضراته في باريس، في وقت كان هو نفسه منزعجاً منا، وكان الجميع في باريس غاضبين منا. وعلى الرغم من أنه أعلن على نحو مهيب أنّ في قصائد شعرائنا وأناشيدهم لا يوجد فيها شيء من الخنوع أو الهبوط، بل على العكس من ذلك، هناك شيء من الحرية والمهابة: وهنا، على الرغم من عدم إعجاب أي من مواطنيه، مدح نُبل طباع كُتّابنا. إنّ ميتسكيفيتش على حق. فمن المؤكد أنّ كتابنا يتمتعون بصفات ذات طبيعة سامية. في لحظات وعيهم، كان بمقدورهم أنْ يتخلوا عن صورهم الروحية، التي كان من الممكن أن تستجيب بمدح الذات، لو لم تكن حياتهم تعزيزاً لذلك. وإليك ما يقوله بوشكين عن نفسه متأملاً في مصيره في المستقبل:

سيحبني الناس مدة طويلة،

لأنني بقيثارتي أيقظت المشاعر الطيبة،

ولأنني كنت مفيداً بجمال الشعر الحي

ودعوت بالرحمة لِمَن سقطوا.

على المرء فقط أن يتذكر بوشكين ليرى مدى صحة هذه الصورة. كيف كان ينتعش ويتهيّج عندما يتجه الأمر نحو التخفيف من مصير المنفيين أو لتقديم يد المساعدة للذين سقطوا! وكيف انتظرَ الدقيقة الأولى من عطف القيصر عليه، حتى يُلمّح ليس عن نفسه، بل عن شخص آخر بائس سقط! هذه السمة روسية حقاً. تذكّر ذلك المنظر المؤثر فحسب، الذي يصوّر زيارة الشعب كله للمنفيين المتجهين إلى سيبيريا، عندما يحمل كل شخص من عنده – بعضهم يحمل الطعام، وبعضهم المال، وبعضهم الكلمات المسيحية المعزية. لا توجد كراهية تجاه المجرم، كما لا يوجد دافع دونكيشوتي لجعله بطلاً، أو لجمع صوره طبق الأصل للحالة، أو النظر إليه بدافع الفضول،

كما هو الحال في أوروبا المستنيرة. يوجد شيء آخر هنا: ليس الرغبة في التبرير له أو انتزاعه من يد العدالة، بل في رفع روحه الساقطة، وفي تعزيته، كما يعزي الأخ أخاه، كما أمرنا المسيح أن نعزي بعضنا بعضاً. قيّم بوشكين عالياً أيّ سعي نحو رفع مَن سقطوا. لهذا السبب خفق قلبه بفخر شديد عندما سمع عن وصول القيصر إلى موسكو خلال فظائع الكوليرا، وهي صفة بالكاد أظهرها أي من الحكّام والتي أثارت فيه هذه الأبيات الرائعة:

أقسم بالسماء:

كل من عزف بحياته قبل مرض كئيب،

ليبهج ذا نظرة باهتة –

أقسم أنه سيكون خليلاً لله،

مهما كان حكم الأرض

عليه أعمى.

كما عرف أيضاً كيف يقدّر سمة أخرى في حياة القيصر، بطرس. تذكّر قصيدة «بطرس على نهر نيفا»، التي يسأل فيها بذهول عن سبب الاحتفال الاستثنائي في منزل القيصر، والذي يُسمع الصراخ منه في جميع أنحاء بطرسبورغ وعلى طول نهر نيفا الذي اهتزّ من إطلاق المدافع. يتطرق إلى الحالات كلها، المُبهِجَة للقيصر، والتي يمكن أن تكون سبباً لمثل هذا الاحتفال: هل وُلِدَ للعاهل وريث عرشه، أمْ زوجته تحتفل بعيد ميلادها، أمْ هَزَمَ عدوّ لا يُقهر، أم وصل الأسطول، الذي شكل الشغف المفضل للعاهل، ويجيب على كل هذا:

كلا، إنه يتصالح مع رعيته،

تناسى ذنبَ المذنب،

فاستمتع،

وتناول كأساً معه.

هذا هو السبب في أن الوليمة مرحة،

وكلام الضيوف كلام نشوة وصخب،

ونهر نيفا ارتجف بعيداً

من جزاء إطلاقات المدافع العنيفة.

بوشكين وحده استطاع أن يشعر بجمال مثل هذا الفعل. أن تكون قادراً ليس على العفو عن رعيتك فحسب، بل وأنْ تحتفل بهذا العفو، كما تحتفل بالانتصار على العدو، – فهذه سمة إلهية حقاً. السماء فقط تفرح بتوبة الخاطئ أكثر من الفرح بالتقي نفسه، وكل جيوش القوى غير المرئية تشارك في عيد الله السماوي. كان بوشكين متذوقاً ومثمناً مخلصاً لكل ما هو عظيم في الإنسان. وكيف لا يكون هكذا، إذا ما كان النبل الروحي هو سمة جميع كتابنا تقريباً؟ من اللافت للنظر أنْ في جميع البلدان الأخرى يتعامل الكاتب مع نوع من عدم الاحترام من جانب المجتمع فيما يتعلق بطبيعته الشخصية. لكن لدينا الأمر معكوس. في بلدنا، حتى ناظم الأشعار الركيكة البسيط، وليس الكاتب، وليس صاحب الروح غير الطيبة فحسب، بل حتى الوغد في بعض الأحيان، في أعماق روسيا لا يُوَقَّر هكذا مطلقاً بأي حال من الأحوال. بل على العكس من ذلك، لدى الجميع بشكل عام، حتى أولئك الذين بالكاد يسمعون عن الكتّاب، لديهم بالفعل نوع من الاقتناع بأن الكاتب هو شيء سامٍ، وأنه بالتأكيد يجب أن يكون نبيلاً، وأن الكثير من الأشياء لا تليق به، وأنه لا ينبغي له حتى السماح بما يُغفر للآخرين. في إحدى مقاطعاتنا، خلال انتخابات الإقطاعيين، أدلى أحد الإقطاعيين، والذي كان في الوقت نفسه كاتباً أيضاً، بصوته لصالح رجل تشوه ضميره إلى حدٍّ ما – فالتفت إليه جميع النبلاء على الفور ووبخوه معيبين تصرفه وقالوا: «تفعل هذا وأنت كاتب!».

1846

الموضوع الحادي عشر

الخلافات

(من رسالة إلى لـ *)**

الخلافات حول مبادئنا الأوروبية والسلافية، والتي، كما قلت، بدأت تشق طريقها إلى صالات الضيوف، تدل فحسب على أننا بدأنا في الاستيقاظ، لكننا لم نستيقظ بعد بشكل كامل؛ وبالتالي ليس من المستغرب أن يكون ثمة قدَر كبير من الافتراء في كلام كلا الطرفين. جميع هؤلاء، أتباع النزعة السلافية أو الأوروبية أو أتباع مذهب «الإيمان القديم» وأتباع «الإيمان الجديد»، أو أصحاب التوجهات الشرقية والغربية، وما هم عليه حقاً، لا أعرف كيف أقول، لأنهم حتى الآن يبدون لي مجرد رسوم كاريكاتورية لما يريدون أن يكونوا عليه، – إنهم يتحدثون جميعاً عن وجهين مختلفين للشيء نفسه، ولا يعرفون بأي شكل من الأشكال أنهم لا يجادلون على الإطلاق ولا يتعارضون مع بعضهم البعض. أحدهم اقترب من المبنى لدرجة أنه يرى جزءاً منه؛ أما الآخر فقد ابتعد عنه كثيراً، بحيث يرى الواجهة بأكملها، لكنه لا يرى أجزاء المبنى. بالطبع، الحقيقة هي أكثر إلى جانب أتباع النزعة السلافية والشرقيين، لأنهم ما زالوا يرون الواجهة بأكملها، وبالتالي، لا يزالون يتحدثون عن الشيء الرئيس، وليس عن الأجزاء. ولكن هناك أيضاً حقيقة إلى جانب أتباع النزعة الأوروبية والغربيين، لأنهم يتحدثون بشيء من التفصيل وبشكل واضح عن الجدار الذي يقف أمام أعينهم؛ خطأهم ينحصر في أنهم بسبب الإفريز(25) (الطنف) الذي يتوج هذا الجدار، لا يرون قمة المبنى بأكملها، أي الرأس والقبة وكل ما ليس في الأعلى. يمكنني أن أنصحهما كليهما – أن يحاول أحدهما، ولو لمدة من الزمن، أن يقترب والآخر أن يتراجع قليلاً. لكنهما لن يوافقا على ذلك، لأن روح الكبرياء قد استحوذت عليهما كليهما. كل واحد منهما مقتنع بأنه محق بصورة نهائية ومطلقة، وأن الآخر يكذب بشكل نهائي ومطلق. الغطرسة أكثر عند أتباع النزعة السلافية: إنهم متفاخرون؛ كل واحد منهم يتخيل نفسه أنه اكتشف أمريكا، والبذرة التي وجدها ستنتفخ إلى حبة لفت. بالطبع، إنهم يتسلحون بمثل هذا التفاخر العنيد أكثر ضد أتباع النزعة الأوروبية، الذين كانوا مستعدين منذ مدة طويلة للتخلي عن الكثير، لأنهم بدؤوا هم أنفسهم يسمعون الكثير الذي لم يسمعوه من قبل، لكنهم يصرون من دون أن يرغبوا بالرضوخ للإنسان الذي يتفاخر كثيراً. كل هذه الخلافات تبقى لا تعني شيئاً، إذا ما بقيت في إطار غرف الضيوف والمجلات. لكن من المؤسف أن هذين الرأيين المتعارضين، مع أنهما لا يزالان في هذا الشكل غير الناضج وغير المحدد، قد انتقلا إلى رؤوس العديد من المسؤولين

الحكوميين. قيل لي إنه يحدث (خاصة في تلك الأماكن التي تنقسم فيها الوظيفة والسلطة بين يدي شخصين) بطريقة يعمل فيها أحدهما في الوقت نفسه تماماً بالروح الأوروبية، بينما يحاول الآخر أنْ ينطلق بشكل حاسم على الطريقة الروسية القديمة، معززاً جميع الأنظمة السابقة، على عكس تلك التي يخطط لها زميله. وبسبب هذا تُلحق الأذية بالعمل وبالموظفين المرؤوسين أنفسهم: فهم لا يعرفون لمن يطيعون. وبما أنْ كلا الرأيين، على الرغم من كل قساوتهما، غير واضحَين بالكامل للجميع، فيُقال إنْ هذا يستغله الأوغاد المكّارون على اختلاف أنواعهم. والمحتال الشاطر الآن لديه الفرصة، تحت ستار النزعة السلافية أو النزعة الأوروبية، اعتماداً على ما يريده رئيسه، للحصول على مكان مربح ولإنتاج الخداع فيه بصفته نصيراً للقِدَم أو نصيراً للحداثة على حدٍّ سواء. بشكل عام، الخلافات هي جوهر الأشياء التي يجب ألا يحشر الأذكياء وكبار السن أنفسهم فيها في الوقت الحالي. دع الشباب يصرخون أولاً قليلاً: فهذا شأنهم. صدقني، هكذا صارت الأمور تجري وينبغي أن يصرخ الصراخون البارزون على أكمل وجه، حتى يتمكن الأذكياء من التفكير في الأمر بشكل كافٍ في هذا الوقت. استمع إلى الخلافات، لكن لا تتورط فيها. إن فكرة مؤلَّفك، الذي تريد أنْ تشتغل عليه، فكرة ذكية جداً، وإني متأكد من أنك ستؤدي هذه المهمة بشكل أفضل من أي كاتب آخر. لكني أطلب منك شيئاً واحداً: اشتغل عليه في الوقت الذي تكون فيه هادئاً ورزيناً قدر الإمكان. حفظك الله من الحماسة والحمى حتى في أبسط تعبير. الغضب في كل مكان غير لائق، والأهم من ذلك كله في القضايا العادلة، لأنه يظلمها ويشوهها. وتذكّر أنك لست كهلاً فحسب، بل طاعناً في السن أيضاً. الشاب يمكن أنْ يغضب بطريقة ما؛ على الأقل في نظر البعض، يمنحه ذلك مظهراً خارجياً معبّراً. ولكن إذا ما بدأ العجوز يستشيط غضباً، فإنه سيبدو سيئاً فحسب؛ سيستهزئ به الشباب ويجعلونه يبدو مضحكاً. احذر من أن يُقال لك: «اسمع، أيها العجوز الخبيث! لقد كنت مستلقياً على جنبك طوال حياتك، من دون أنْ تفعل شيئاً، والآن خرجت لتوبخ الآخرين، لماذا يتصرفون بشكل خاطئ!» يجب أنْ تخرج من شفتي الرجل العجوز كلمة لطيفة لا صاخبة ومثيرة للجدل. يجب أن تتغلغل روح الوداعة والدماثة بأنقى صورها في كلمات الشيخ المهيبة، حتى لا يجد الشاب ما يقولونه ليعارضوه به، ويشعرون أنْ كلامهم سيكون غير محتشم وأنْ الشيب شيء مقدس فعلاً.

1844

الموضوع الثاني عشر

المسيحي يمضي قُدُماً

(رسالة إلى هـــوف)

يا صديقي! لا تعدّ نفسك سوى تلميذ وطالب. لا تفكر بأنك صرت عجوزاً على التعلم، وأن قوتك قد وصلت إلى النضج الحقيقي والتطور، وأن شخصيتك وروحك قد تلقيا شكلهما الحقيقي ولا يمكن أن يكونا الأفضل. لا توجد دورة كاملة للمسيحي؛ إنه تلميذ أبدي وتلميذ حتى الموت. وفقاً للمسار الطبيعي المعتاد، يصل الإنسان إلى النمو الكامل لعقله في سن الثلاثين. من الثلاثين إلى الأربعين، ما زالت قوته تتقدم بطريقة ما؛ بعد هذه المدة، لا شيء يتحرك فيه، وكل ما ينتجه ليس أسوأ من السابق فحسب، بل أضعف وأبرد منه. لكن هذا غير موجود بالنسبة للمسيحي، وإنّ المكان الذي تتعين فيه حدود كمال الآخرين، يمثل بالنسبة له البداية فحسب. إنّ أكثر الناس قدرة وموهبة، بعد أن يتجاوزوا سن الأربعين، يصبحون مملين ومتعبين وضعفاء. راجع جميع الفلاسفة وأبرز عباقرة العالم: أفضل عهد لهم كان وقت رجولتهم الكاملة فقط؛ ثم انسلخوا تدريجياً من أذهانهم، وحتى في سن الشيخوخة سقطوا في مرحلة الطفولة. تذكّر كانط، الذي فقد ذاكرته تماماً في السنوات الأخيرة ومات كالطفل. لكن أعد النظر في حياة جميع القديسين: سترى أنهم ازدادوا قوة في العقل والروح عندما اقتربوا من الهرم والموت. وحتى أولئك منهم الذين بطبيعتهم لم يتلقوا أي مواهب رائعة وغذوا بسيطين وأغبياء طوال حياتهم، قد أدهشوا الناس فيما بعد بخطاباتهم. لماذا يحدث هذا؟ لأنهم دائماً ما يتمتعون بهذه القوة الجادة التي عادة ما يمتلكها كل إنسان في سِنيّ شبابه فقط، عندما يرى أمامه المآثر، التي تكون المكافأة لها هي التصفيق العام، وعندما يتراءى له البعد الزاهي الذي يغري الشاب. ثم يتلاشى أمامه الأفق البعيد وتتلاشى المآثر – وتخمد أيضاً قوة الكفاح. ولكن أمام المسيحي، يتلألأ الأفق البعيد إلى الأبد، وتتراءى له المآثر الأبدية. إنه كالشاب الذي يتوق إلى معركة الحياة؛ ولديه ما يمكن أنْ يتقاتل معه والمكان الذي يستجمع فيه قواه، لأن نظرته إلى نفسه، التي تنير باستمرار، تكشف له العيوب الجديدة في نفسه، والتي يجب أنْ يخوض معارك جديدة معها. وهذا هو السبب في أنّ قواه كلها ليس لا يمكن أن تفتر فيه أو تضعف فحسب، بل تظل متحمسة بلا انقطاع؛ والرغبة في أن يكون الأفضل وأن يستحق التصفيق في السماء تمنح طموحه الهم دفعة لا تدفع لأقوى صاحب طموح.. وهذا هو السبب الذي يجعل المسيحي يتقدم، في الوقت الذي يتراجع فيه الآخرون، ويجعله الأفضل والأذكى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقل ليس أعلى قدرة فينا. إن وظيفته ليست أكثر من شرطي: لا يسعه إلا أن يرتب ويضع كل ما لدينا في المكان المخصص له. هو نفسه لا يتقدم إلى الأمام حتى تتحرك كل القدرات الأخرى فينا، والتي يصبح عن طريقها أذكى. إنّ القراءات المجردة والتأملات والاستماع المتواصل لجميع دورات العلوم ستجعله يتقدم قليلاً فحسب؛ وفي بعض الأحيان يعمل هذا حتى على كبح جماحه، ويحول دون نموه الأصيل. إنه أكثر اعتماداً على الحالات الذهنية بشكل لا يضاهى: بمجرد أن تبدأ العاطفة في التحرّك، يصبح يتصرف فجأة بشكل أعمى وبغباء؛ وإذا ما كانت الروح في حالة راحة ولم تغلِ فيها رغبة ما، فإنه هو نفسه سيصفو ويتصرف بحكمة. العقل هو قدرة أعلى بما لا يقاس، لكنه يُكتسب فقط من خلال التغلب على العواطف. لم يمتلكه سوى أولئك الناس الذين لم يهملوا تربيتهم الداخلية. لكن العقل أيضاً لا يمنح الإنسان فرصة كاملة للسعي إلى الأمام. هناك قدرة أخرى أعلى؛ اسمها – الحكمة، ولا يمكن أن يمنحها إلا المسيح وحده. لا تُمنح لأيٍّ منا عند الولادة؛ وهي ليست طبيعية بالنسبة لأيّ واحد منا، ولكنها مسألة نعمة سماوية عليا. من يملك العقل والذكاء كليهما، لا يمكنه أن ينال الحكمة بطريقة أخرى، إلا أنْ يصلي من أجل نيلها ليلاً ونهاراً، ويدعو الله لنيلها ليلاً ونهاراً، مرتفعاً بروحه إلى الألفة اللطيفة، وينظّف كل ما بداخله إلى أقصى درجات النقاء الممكنة من أجل استقبال هذا الضيف السماوي، الذي يخشى الأماكن التي لم تنتظم فيها المَلَكة الروحية ولا يوجد فيها انسجام كامل في كل شيء. فإذا ما دخلت المنزل، تبدأ الحياة السماوية للإنسان، فيدرك كل الحلاوة الرائعة لأن يكون تلميذاً. كل شيء يصبح معلماً له؛ العالم كله معلم بالنسبة له: يمكن أن يكون حتى أكثر الناس تفاهة معلماً له. من نصيحة أبسط الناس يستمد حكمة النصيحة؛ أغبى شيء سيصبح الجانب الحكيم بالنسبة له، وسيصبح الكون كله أمامه ككتاب تعليمي واحد مفتوح: وسوف يستخلص كنوزاً منه أكثر من أي شخص آخر، لأنه سيدرك أكثر من الجميع أنه طالب علم. لكن إذا ما أدرك، ولو للحظة، أنّ تعليمه قد انتهى، ولم يعد تلميذاً، وأساءه درس أو تعليم من شخص آخر، فسوف تُسحب منه الحكمة فجأة، وسيبقى في داخله الظلام، مثل الملك سليمان في أيامه الأخيرة...

1846

الموضوع الثالث عشر

كارامزين

(من رسالة إلى ن. م. يا...وف)

قرأت بكل سرور كلمات المديح لكارامزين(26) التي كتبها بوغودين(27). هذا أفضل أعمال بوغودين فيما يتعلق باللياقة، الداخلية والخارجية على حدٍّ سواء: فهذا العمل لا يحتوي على أسلوبه الخشن والسمج المعتاد واللامبالاة في الكتابة التي تضر به كثيراً. كل شيء هنا، على العكس من ذلك، متناغم ومدروس ومرتّب ترتيباً كبيراً. جميع الاقتباسات من كارامزين اختيرَت بذكاء إلى درجة بدت كأنّ كارامزين قد حددها بنفسه، مقيّماً نفسه ووازنها بكلماته الخاصة، ليقف كما لو كان حياً أمام أعين القارئ. إنّ كارامزين، بالتأكيد، ظاهرة غير عادية. فهو أحد كتابنا الذي يمكننا أنْ نقول عنه إنه أدى واجبه بالكامل، ولم يدفن موهبته في الأرض، وقد أضاف إلى المواهب التي وهِبت له مواهب أخرى. كان كارامزين أول من أظهر أنّ في بلدنا يمكن للكاتب أن يكون مستقلاً ويحترمه الجميع، كمواطن متميز في الدولة. لقد كان أول من أعلن على نحو مهيب أنّ الكاتب لا يمكن أن تعيق عمله الرقابة، وقد ارتقى في هذا العالم بأنقى رغبة في الخير لدرجة أنّ هذه الرغبة، بعد أن احتلت روحه كلها، أصبحت جسده وطعامه، فلم تعد أيّ رقابةٍ صارمةٌ عليه، وصار يشعر بالفسحة في كل مكان. وقد قال هذا وأثبته. لم يتكلم أحد، سوى كارامزين، بمثل هذه الجرأة والنُبل، ولم يخف أياً من آرائه وأفكاره، برغم أنها لم تتوافق مع حكومة ذلك الوقت بكل شيء، فتشعر رغماً عنك أنه وحده كان لديه الحق في ذلك. يا له من درس لإخوتنا الكُتّاب! وكم سيبدون مضحكين بعد ذلك أولئك الذين يؤكدون أنّ في روسيا لا يمكن قول الحقيقة الكاملة وأنها في بلادنا مُرة وتثير المتاعب! هو نفسه يعبّر عن نفسه بطريقة سخيفة ووقحة إلى درجة يكون هو المر والمثير للمتاعب وليس الحقيقة نفسها، وسوف يخدع الناس بتلك الكلمات المتغطرسة التي يحكي بها عن حقيقته، بكلمات منفعلة، ويظهر قذارة روحه السمجة، ثم بعد ذلك ينهش هو نفسه مندهشاً ويغضب لأنّ أحداً لم يقبل منه أو يسمع للحقيقة! كلا، امتلك مثل هذه الروح النقية المريحة التي كانت لدى كارامزين، ثم أعلن حقيقتك: الجميع سوف يستمع إليك، من القيصر إلى آخر متسول في الدولة. وسيصغون إليك بهذا الحب الذي لا يُسمع بمثله مدافع برلماني عن الحقوق ولا أفضل واعظ حالي يجمع نخبة من المجتمع العصري من حوله في أي أرض، وبأي حب لا يمكن أن يُستمع إليه سوى في روسيا الرائعة وحدها، التي ترددت الشائعات عنها بأنها لا تحب الحقيقة على الإطلاق.

Telegram:@mbooks90

الموضوع الرابع عشر

حول المسرح، وحول النظرة الأحادية الجانب إلى المسرح وحول أحادية الجانب بشكل عام

(رسالة إلى الكونت أ. ب. تـ...وي)

أنت أحادي الجانب جداً، وقد أصبحت مؤخراً أحادي الجانب بهذا الشكل؛ لقد صرتَ أحادي الجانب، لأنك، في تلك النقطة من الحالة الروحية، التي تقف عليها الآن، التي لا يمكن للمرء فيها إلا أن يصبح أحادي الجانب. إنك تفكر في خلاصك الروحي وحده فقط، وبما أنك لم تجد بعد المسار الذي من المقرر أن تصل إليه، فأنت تعتبر كل ما هو موجود في العالم إغواءً وعقبة أمام الخلاص. الراهب ليس أكثر صرامة منك. وهكذا، أيضاً كانت هجماتك على المسرح أحادية الجانب وغير عادلة. إنك تعزز نفسك بحقيقة أنّ بعض رجال الدين المعروفين لديك يثورون على المسرح؛ لكنهم على حق وأنت مخطئ. من الأفضل أن تفهم ما إذا كانوا ينتفضون ضد المسرح، أو ضد النوع الذي يظهر لنا الآن فقط. بدأت الكنيسة تنتفض ضد المسرح في القرون الأولى من التأسيس العالمي للمسيحية، عندما ظلت المسارح وحدها ملجأً للوثنية التي طُردَت من كل مكان، وكانت وكراً لعربدة الفاحشة التي تنتهك الأعراف. هذا هو السبب الذي جعل ذهبي الفم(28) يرعد ضدهم بقوة. لكن الزمن تغير. وتنظّف العالم بأسره على يد أجيال من شعوب أوروبا الجديدة، التي بدأ تكوينها على تربة مسيحية، ثم كان القديسون أنفسهم أول من أدخل المسرح: فقد فتحت المسارح في الأكاديميات اللاهوتية. وألّف ديمتري روستوفسكي، الذي جُذِبَ بحق إلى صفوف آباء الكنيسة القديسين، مسرحيات لتجسّد الشخصيات في بلادنا. إذاً، لا يقع اللوم على المسرح. يمكن إفساد كل شيء وإعطاء معنى سيء لكل شيء، فالإنسان قادر على ذلك. لكن يجب على المرء أن ينظر إلى الشيء في أساسه وإلى ما ينبغي أن يكون، ولا يحكم عليه من خلال الصورة الكاريكاتورية التي صُنعت منه. المسرح ليس تافهاً على الإطلاق وليس فارغاً البتة، إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أنّ حشداً مكوناً من خمسة أو ستة آلاف شخص يمكن أن يندمجوا فيه فجأة وأنّ هذا الجمهور كله، الذي لا يشبه بعضه بعضاً في أي شيء، ومفكك إلى وحدات، يمكن أن تهزه فجأة صدمة واحدة، فيبكي بدموع واحدة ويضحك بضحكة مشتركة واحدة. هذا منبر يمكنك من خلاله أن تقول الكثير لعالم الخير. افصل فحسب ما يسمى بالمسرح الأعلى عن كل قفزات الباليه والفودفيل(29) والميلودراما وتلك المناظر المُبهرَجة الفخمة التي تلبي فجور الذوق أو فجور القلب، ثم انظر إلى المسرح.

يجب أن يكون المسرح الذي تُقدّم عليه المأساة والكوميديا مستقلاً تماماً عن كل شيء. من الغريب الجمع بين شكسبير والراقصين أو مع الراقصين في سراويل من جلد الجدي. أي نوع من التقريب هذا؟ الأرجل – بالأرجل، والرأس – بالرأس. هذا مفهوم في بعض الأماكن في أوروبا: مسرح العروض الدرامية الأعلى منفصل هناك ولا يحظى إلا بدعم الحكومات؛ لكنهم فهموا هذا فيما يتعلق بالنظام الخارجي. كان من الضروري التفكير بجدية في كيفية عرض أفضل أعمال كُتاب الدراما بطريقة تجعل الجمهور ينجذب إليهم، وتكشف تأثيرها الأخلاقي المفيد، الذي يتمتع به جميع الكُتاب العظماء. لم ينتج شكسبير وشيريدان وموليير وغوته وشيلر وبومارشيه وحتى ليسينغ وريناريد والعديد من الكُتاب الصغار الآخرين من القرن الماضي شيئاً من شأنه أنْ يصرف الانتباه عن احترام الموضوعات السامية؛ وحتى أنهم لم يتجاوزوا أصداء ما جاش واضطرمَ لدى الكُتاب المتعصبين آنذاك الذين تعاملوا مع القضايا السياسية ونشروا عدم احترام المقدّسات. إذا ما وجِدَت السخرية لديهم، فهي على النفاق وعلى الكفر وعلى التفسير الملتوي للحق، وليس على ما يمثل أصل مروءة الإنسان؛ على العكس من ذلك، فإن الشعور بالخير يُسمع بصرامة حتى عندما تصدح الأعمال الهجائية الساخرة. إنّ التكرار المستمر لعرض الأعمال الدرامية الراقية، أي تلك المسرحيات الكلاسيكية حقاً التي يوجّه فيها الاهتمام إلى طبيعة الإنسان وروحه، يكون حالة ضرورية لتحصين المجتمع وفق القواعد الثابتة، وجعل الشخصيات بشكل غير محسوس تستقر أكثر في ذاتها، في حين كل هذا الطوفان من المسرحيات الفارغة والخفيفة، بدءاً من مسرحيات الفودفيل والدراما غير المكتملة الفكرة إلى الباليه اللامعة وحتى الأوبرا، لا يعمل إلا على بعثرة وتشتيت المجتمع ليصبح خفيفاً وطائشاً. يستمتع الناس بملايين الأشياء الرائعة التي تشتت الأفكار من جميع الجهات، فالناس غير قادرين على الالتقاء مباشرة بالمسيح. إنهم بعيدون عن حقائق المسيحية السماوية. إنهم يخافونها، مثلما يخافون من الدير المظلم، إذا لم تسندهم بخطوات غير مرئية نحو المسيحية، وإذا لم ترفعهم إلى مكان أعلى، حيث ستصبح آفاق المسيحية الهائلة بأكملها أكثر وضوحاً لهم وسيفهمون الشيء نفسه الذي كان يتعذر تماماً فهمه في السابق. هناك في هذا العالم كثير من الأشياء التي يمكن أنْ تُعَدّ بالنسبة لكل من ابتعد عن المسيحية نقطة انطلاق غير مرئية نحو المسيحية. ومن بينها يمكن أن يكون المسرح، إذا ما وُجّهَ لغرضه الأسمى. من الضروري أن نقدم على المسرح جميع الأعمال الدرامية الأكثر كمالاً من جميع القرون ومن جميع الشعوب بكل روعتها. يجب تقديم تلك الأعمال مرات عديدة، كلما أمكن ذلك، وتكرار المسرحية نفسها باستمرار. وهذا يمكن القيام به. ويمكن جعل جميع المسرحيات جديدة دائماً وممتعة للجميع، صغاراً وكباراً، إذا ما أمكنك عرضها على خشبة المسرح بشكل صحيح فحسب. ومن الهراء أنْ يُقال أنّ هذه الأعمال

قد عفا عليها الزمن وأن الجمهور فقدَ تذوقَها. فالجمهور ليس لديه نزواته الخاصة؛ إنه يسير إلى حيث يُقاد. لو لم يَدعْه الكتّاب أنفسهم إلى أعمالهم الميلودرامية الفاسدة، لما تذوقها ولما طلبها. خذ المسرحية الأكثر ابتذالاً واعرضها كما ينبغي، وسوف يتدفق عليها الجمهور نفسه حشداً. وسيكون موليير جديداً بالنسبة له، وسيكون شكسبير أكثر إغراءً من أحداث فودفيل. لكن من الضروري أن تُخرَج إخراجاً فنياً حقيقياً وكاملاً، وألّا يُعهد بالعمل سوى إلى أفضل فنان ممثل في الفرقة. وألّا يتدخل أيّ موظف وسكرتير في إضافة أيّ شيء؛ ودعْه يتصرف في كل شيء وحده. وحتى ينبغي على وجه الخصوص الاهتمام بأن تقع المسؤولية كلها على عاتقه وحده، وأنْ يقرر علناً، أمام أعين الجمهور بأكمله، بتأدية جميع الأدوار الثانوية واحداً تلو الآخر بالترتيب، من أجل ترك نماذج حية للممثلين الثانويين الذين يحفظون أدوارهم وفقاً لنماذج ميتة وصلت إليهم من خلال بعض التقاليد المعتمة، التي تشكلت من خلال التعلم الكتابي ولا يرون لأنفسهم أي اهتمام حي بهم. هذا الأداء الفردي للممثل الأول للأدوار الثانوية يمكن أن يجذب الجمهور لرؤية هذه المسرحية عشرين مرة على التوالي. ليس من الغريب أن نرى كيف سيؤدي شيبكين(30) أو كاراتيغين(31) تلك الأدوار التي لم يؤدوها من قَبل! الممثل الرائع، بعد أن يؤدي جميع الأدوار، سيعود مرة أخرى إلى دوره السابق، وسيحصل على نظرة أكثر اكتمالاً، سواء إلى دوره الشخصي أو إلى المسرحية بأكملها؛ وستكتسب المسرحية مرة أخرى تشويقاً أقوى للجمهور من خلال اكتمال أدائها – وهو شيء لم يُسمع به من قبل! إذ لا يوجد شيء أعلى من الصدمة التي يثيرها على الفرد الاتفاقُ المنسق تنسيقاً تاماً لجميع الأجزاء مع بعضها البعض، الذي لم يسمع به إلا في الأوركسترا الموسيقية الواحدة، القادرة على أنْ تجعل العمل الدرامي يمكن أنْ يُقَدَّم أكثر من مرة على التوالي أكثر مما تفعله الأوبرا الموسيقية المحبوبة. قل ما يحلو لك، لكن أصوات الروح والقلب، التي يُعبَّر عنها بالكلمة، تكون أكثر تنوعاً بعدة مرات من الأصوات الموسيقية. ولكن، أكرر، هذا كله لا يحدث إلا في الحالة التي يُنجَز فيها العمل كما ينبغي حقاً وأنْ يتحمل الممثل الممتاز المسؤولية الكاملة عن كل شيء، أي إنْ الممثل التراجيدي الأول يكون مسؤولاً عن المأساة، والممثل الكوميدي الأول مسؤولاً عن الملهاة، عندما يكونان وحدهما المحرّكين الاستثنائيّين في مثل هذا العمل. أقول الاستثنائيّين، لأنني أعرف كم لدينا من الهواة الذين يرغبون بإعطاء الأوامر من الجانب في كل عمل. فبمجرد ظهور منصب ومعه بعض الفوائد المالية، حتى يشبك السكرتير نفسه على الفور من الجانب. من أين أتى، لا أحد يعلم: بالضبط كأنه يخرج من الماء؛ ليثبت على الفور ضرورته بوضوح مثل جدول الضرب؛ في البداية، يبدأ التدقيق الورقي في الأمور الاقتصادية فقط، ثم يتدخل تدريجياً في كل شيء، حتى يخرج الأمر عن نطاق السيطرة. إنّ هؤلاء السكرتيريين، مثل نوع من العثة غير المرئية،

قوّضوا جميع الوظائف، وأوقفوا وأربكوا علاقة المرؤوسين بالمسؤولين وكذلك علاقة الرؤساء بمرؤوسيهم. منذ وقت ليس ببعيد ناقشنا أنا وأنت جميع الوظائف الموجودة في دولتنا. عند فحص كل واحدة ضمن حدودها القانونية، وجدنا أنها بالضبط ما ينبغي أن تكون، كل واحدة، كما لو أنشئت من فوق من أجل تلبية جميع احتياجات حياتنا الحكومية، وتشكلت كلها بصورة لا تتقاطع بعضها مع بعض، وتحاول إما توسيع حدود مركزها، أو حتى الخروج تماماً من حدودها. كل فرد، حتى الناس الشرفاء والأذكياء، حاول أن يكون على الأقل بوصة واحدة أكثر في الصلاحيات وأعلى من مكانته، معتقداً أنه بهذا سيعظم نفسه ومنصبه. ثم راجعنا جميع المسؤولين من أعلى إلى أسفل، لكننا نسينا السكرتيريين، وهم أكثر الناس حرصاً على التسلق خارج حدود مناصبهم. عندما يُعيَّن السكرتير بصفة نسّاخ فقط، فإنه يريد أن يؤدي دور الوسيط بين الرئيس والمرؤوس. وعندما يُعيَّن بالفعل كوسيط ضروري بين الرئيس والمرؤوس، فإنه يبدأ في التباهي بنفسه: يتصنع دور رئيسه أمام هذا المرؤوسين، ويعمل لنفسه مكتب استقبال، ويجعل المرؤوسين ينتظرونه لساعات كاملة – باختصار، بدلاً من تسهيل وصول المرؤوس إلى الرئيس، يصعّبه فحسب. وهذا كله يحدث أحياناً ليس من أجل أي نية أخرى، بل من أجل رفع مكانته بوصفه سكرتيراً فحسب. حتى أنني عرفت بعض الأشخاص الجيدين وغير الأغبياء الذين، تصرفوا أمام عيني مع مرؤوسي مسؤولهم بشكل جعلني أحمّر خجلاً من أجلهم. لم يكن خليستاكوف(32) في تلك اللحظة أمامهم شيئاً. وهذا كله، بالطبع، سيظل لا يعني شيئاً إن لم يتعدّ الأمر إلى عواقب وخيمة. ففي بعض الأحيان، ترك العديد من الأشخاص المفيدين والضروريين الخدمة بسبب وحشية السكرتير فحسب، الذي طالب لنفسه بالاحترام الذي يدينون به للمسؤول الرئيس وحده، والذي بسبب عدم تنفيذهم لمطالبه انتقم منهم بالافتراء، والإيحاء عنهم بآراء سيئة، باختصار – كل تلك الرجاسات التي لا يقدر عليها إلا الشخص المخادع. بالطبع، في مديريات الفنون والآداب تقوم بمثل هذا الشيء إما لجنة أو أحد المسؤولين المباشرين، ولا يوجد مكان للسكرتير الوسيط: هناك يستخدم لتدوين تعريفات الآخرين أو لتدبير الشؤون الاقتصادية فقط؛ ولكن في بعض الأحيان يحدث حتى هناك، بسبب كسل الأعضاء أو أي شيء آخر، أنه، بالتدريج، يصبح وسيطاً وحتى حكماً على العمل الفني. وبعد ذلك يحدث ما لا يُحمد عقباه: فصانع الكعك لا يعرف كيف يختار الأحذية، ولا يصل الكعك إلى صانع الأحذية. إذ تصدر تعليمات للفنان، لم يكتبها فنان قط؛ إنها تعليمات من النوع الذي حتى لا يمكن فهمه، ولا يُعرف لماذا تُطرَح. غالباً ما يندهش الناس، كيف يمكن للشخص الفلاني، الذي دائماً ما بدى شخصاً ذكياً، أن يطلق ورقة غبية. إنه ليس المسؤول عن ذلك: لقد خرجت الورقة من ذلك الركن الذي لا يمكن لأحد أن يشك فيه، وفقاً للمثل: «الكاتب كتب ولكن اسمه كلب»(33).

من الضروري، فيما يتعلق بأي مهارة على الإطلاق، أن يعتمد إنتاجها الكامل على المعلّم الرئيس لتلك المهارة، وليس بأي حال من الأحوال على مسؤول مقيّد إلى الجانب، والذي يمكن استخدامه فقط في حسابات الأعمال والكتابة. المعلّم فقط يمكنه أنْ يعلّم علمه، لأنه يشعر تماماً بالحاجة إليه، ولا أحد غيره. يمكن للممثل الفنان فقط من الدرجة الأولى أن يختار مجموعة جيدة من المسرحيات، ويصنفها تصنيفاً صارماً؛ إنه وحده يعرف سرّ كيفية التدريب، ويدرك أهمية القراءات المتكررة والتكرار التحضيري الكامل للمقطع. لن يسمح حتى للممثل بحفظ الدور في المنزل، بل يجعل الممثلين يحفظون كل شيء معاً، فيدخل الدور في رأس كل شخص من تلقاء نفسه أثناء التدريبات، بحيث يُحاط كل واحد منهم بظروف الدور على الفور، ويشعر بالنغمة الصحيحة لدوره لا إرادياً من مجرد الاتصال بالممثلين الآخرين. عندها يمكن حتى للممثل السيئ أنْ يكون ممثلاً جيداً من دون أنْ يشعر. طالما لم يبدأ الممثلون بحفظ أدوارهم بعد عن ظهر قلب، يمكنهم تعلّم الكثير من الممثل الأفضل. هنا يكتسب كل واحد من الممثلين الحقيقة والتلقائية في الخطابات وحركات الجسد، حتى من دون أن يعرف هو نفسه كيف. نغمة السؤال تحدد نغمة الجواب. اطرح سؤالاً مُزوّقاً، وستحصل على جواب مزوّق؛ اطرح سؤالاً بسيطاً، وستحصل على جواب بسيط. إنّ أبسط إنسان قادر على الاستجابة للإيقاع. ولكن إذا ما حفظ الممثل دوره في المنزل فحسب، فسيصدر منه جواب مزوّق ومحفوظ، وسيبقى هذا الجواب محفوظاً في ذاكرته إلى الأبد: لا شيء يمكن تغييره؛ ثم لن يأخذ كلمة واحدة من الممثل الأفضل؛ وستصبح بيئة الظروف والشخصيات المحيطة بدوره بالنسبة إليه صماء، وكذلك تصبح المسرحية بأكملها صماء وغريبة عنه، وسيتحرك، هو شخصياً، مثل ميت بين الأموات. الممثل الفنان الحقيقي وحده فقط يستطيع الإحساس بالحياة الموجودة في المسرحية ويعمل على جعل هذه الحياة مرئية وحيوية لجميع الممثلين؛ وحده يستطيع الإحساس بالمعيار المشروع للبروفات – كيفية أدائها، ومتى تتوقف، وكم ينبغي تكرارها لكي تظهر المسرحية بشكل كامل أمام الجمهور. اعرف فحسب كيف تجعل الممثل الفنان يتولى هذا العمل، مثلما يتولى عمله الشخصي، واثبت له أنّ هذا هو واجبه وأنّ شرف فنه يتطلب ذلك منه، – وسوف يفعل ذلك، وسيحققه، لأنه يحب فنه. وسيفعل أكثر من ذلك، سيحرص على أنْ يؤدي جميع الممثلين أدوارهم أداءً حسناً، وسيحرص على الأداء الصارم لجميع الأدوار مثلما يحرص على أداء دوره الخاص. ولن يسمح على خشبة المسرح بأي مسرحية مبتذلة وغير مهمة، من النوع الذي يسمح به أيّ موظف يهتم فقط بزيادة مدخول الصندوق من النقد، – لذا لن يسمح بما ينفر منه شعوره الجمالي الداخلي. كما أنه مستحيل بالنسبة له (حتى وإنْ فكّر في ذلك) أنْ يقوم ببعض التصرفات الجائرة أو الضغط تجاه الممثلين الموكلين إليه، التي يقوم بها أشخاص من

البيروقراطية: لن تسمح له بذلك شهرته. يقوم السكرتير البيروقراطي بأعماله القذرة بجرأة وهو واثق من أنه مهما كان قذراً، فلن يعرفه أحد، لأنه هو نفسه بيدق غير ملحوظ. ولكن إنْ تصرف شيبكين أو كاراتيغين بغير إنصاف، فستبدأ المدينة بأكملها على الفور تتحدث عن ذلك. هذا هو السبب الذي يستدعي أن تقع المسؤولية الرئيسة بشكل خاص في أي عمل على عاتق شخص معروف بالفعل للجميع في المجتمع. وأخيراً، لأنّ الممثل الفنان يعيش بالكامل من أجل فنه، الذي أصبح بالفعل حياته الأسمى، والذي يحرص على نقائه لأنه بالنسبة له مقدس، لن يسمح مطلقاً بأن يكون المسرح داعياً للفجور. لذا، لا يقع اللوم على المسرح. أولاً، نظف المسرح من القمامة التي تكوّمت فيه، ومن ثم حلّل واحكم على ماهية المسرح. لقد تحدثتُ عن المسرح هنا ليس لأنني أردت الحديث عنه على وجه الخصوص، بل لأنّ ما قلته عن المسرح يمكن أنْ ينطبق على كل شيء تقريباً. فثمة العديد من هذه الأشياء التي ابتُذِلَت، لأنّ معناها أُفسِدَ؛ ولأنه بشكل عام يوجد في العالم الكثير من هواة التصرف بتهور، وفقاً للمثل: «إذا أزعجك القمل، القِ معطفك في الفرن»، ثم من خلال هذا تُدمَّر الكثير من الأشياء التي من شأنها أن تخدم الجميع. إنّ الأشخاص ذوي التفكير الأحادي الجانب والمتعصبين في الوقت نفسه يكونون بمثابة قرحة للمجتمع، ومصيبة للأرض والدولة، إذا ما أُتيح في أيديهم أي نوع من السلطة. ليس لديهم تواضع المسيحيين ولا يشكّون في أنفسهم؛ إنهم على يقين من أنّ العالم كله يكذب وأنهم وحدهم يقولون الحقيقة فقط. يا صديقي! احترس من نفسك أكثر. أنت الآن في هذه الحالة الخطرة. من الجيد أنك لا تزال خارج أي منصب ولست مؤتمناً على أي إدارة؛ وإلا فأنت، وأنا أعلم أنك الأكثر قدرة على القيام بأصعب المواقف وأكثرها صعوبة، يمكن أن تسبب المزيد من الشرّ والاضطراب أكثر مما يمكن أنْ يسببه أيّ واحد من الأشخاص غير القادرين. احذر من أحكامك عن كل شيء! لا تكن مثل هؤلاء القديسين الذين يرغبون في تدمير كل ما هو موجود في العالم دفعة واحدة، ولا يرون فيه إلا ما هو شيطاني. مصيرهم هو الوقوع في أخطر الأخطاء. لقد حدثَ شيء مشابه مؤخراً في الأدب. بدأ البعض يعلن في المطبوعات أنّ بوشكين كان ربوبياً(34) وليس مسيحياً؛ كما لو كانوا في روح بوشكين، كما لو كان على بوشكين أن يتحدث في قصائده عن أسمى العقائد المسيحية، التي لا يتناولها رئيس الكهنة نفسه في الكنيسة إلا بوجل شديد، بعد أن أعد نفسه لذلك بأعمق قداسة لحياته... حسب رأيهم، يجب إضفاء القوافي على كل شيء سامٍ في المسيحية وتحويله إلى نوع من الألعاب الشعرية. لقد تصرف بوشكين بشكل عقلاني للغاية لدرجة أنه لم يجرؤ على أنْ ينقل إلى الشعر ما لم يخترق روحه بالكامل، وأعتقدُ أنّ من الأفضل أنْ يَبقى جميع أولئك الذين ابتعدوا كثيراً عن المسيح متصلين بما هو سامٍ بمسافة غير محسوسة، على أنْ يبعدهم تماماً من المسيحية بنفس القصائد الخالية من الروح التي كتبها

أولئك الذين يقدمون أنفسهم كمسيحيين. لا أستطيع حتى أن أفهم كيف يمكن أن يتبادر في ذهن أصحاب المطبوعات النقدية أنْ يثروا أمام الجميع مثل هذا الاتهام ضد بوشكين بأن كتاباته تعمل على إفساد العالم، الأمر الذي لم تفعله الرقابة نفسها، التي لم تكن تسمح بأي عمل إلا إذا كان معناه واضحاً تماماً ويفسر في اتجاه مباشر ومفيد للمؤلف، وليس في اتجاه منحنٍ وضار له. إذا كانت الرقابة التي سنّها القانون صامتة وهادئة، ولم تُبدِ أيّ تحفظ أمام الجمهور، فكم ينبغي على النقد أنْ يراعي القانون، حتى يمكنه التعبير عن نفسه وأنْ يتحفّظ قبل أنْ يتّخذ أدنى إجراء له. هل من الأخلاق المسيحية أنْ يُفضّح شخص علناً بِعَدّه إنساناً غير مسيحي بل وحتى خصماً للمسيح، استناداً إلى بعض عيوب روحه وإلى أنه انشغل بالعالم كما ينشغل أيّ واحد منّا جميعاً؟ فمن منا المسيحي، إذاً؟ بهذه الطريقة يمكنني أن أتهم الناقد نفسه بأنه غير مسيحي. أستطيع أنْ أقول إنّ المسيحي لن يكون لديه مثل هذه الثقة في عقله لحل مثل هذه القضية المُعتمة، التي لا يعرفها إلا الله، مع العلم أنّ أذهاننا واضحة تماماً ويمكن أن تحتضن الشيء من جميع الجهات، وذلك فحسب بسبب قدسية حياتنا. ولكن حياته، ربما، ليست مقدسة بذلك المقدار الذي يؤهله لهذا الفعل. المسيحي، قبل أن يتهم شخصاً بمثل هذه الجريمة الجنائية، وهي عدم الاعتراف بالله بالشكل الذي يأمر به ابن الله نفسه، الذي نزل إلى الأرض، مسألة تأمل، لأنّ هذا عمل فظيع. وسيقول أيضاً: في الشعر لا يزال هناك الكثير من الغموض، الشعر كله لغز؛ من الصعب على المرء أن ينطق حكمه حتى على الإنسان العادي؛ لا يمكن أنْ ينطق بالحكم النهائي والكامل على الشاعر إلا الشخص الذي جسّدَ الكائن الشعري في نفسه وهو نفسه شاعر مساوٍ له تقريباً، – تماماً كما هو الحال في أي مهارة بسيطة، يمكن للجميع أن يحكموا قليلاً، ولكن المعلم الماهر في تلك الحرفة وحده يمكنه أن يحكم حكماً نهائياً. باختصار، المسيحي يبدي، أولاً وقبل كل شيء، التواضع، وهي أول راية له يمكن من خلالها أن يدرك المرء أنه مسيحي. المسيحي، بدلاً من الحديث عن تلك المواضيع لدى بوشكين، والتي لا يزال معناها مُبهَماً ويمكن تفسيره على وجهَين، سيبدأ الحديث عمّا هو واضح وما أنتجه في سنوات الرجولة العقلية، وليس في أيام ولع الشباب. سيحضر قصائده المهيبة إلى راعي الكنيسة، حيث يقول بوشكين نفسه عن نفسه إنه حتى في تلك السنوات التي استولت عليه فيها التفاهة وفتنة العالم، كان مندهشاً من شكل خادم المسيح وحده.

ولكن حتى في ذلك الحين،

قطّعتْ رنين أوتار الشيطان على الفور،

عندما صدمني فجأة

صوتك المهيب.

سكبتْ تيارات من الدموع غير المتوقعة،

فكان كلامك العبق

بلسماً نقياً

لجروح ضميري.

والآن تمد يدك إلي

من ذروة الروحانية

بقوة الود والمحبة

تطوّع أحلامك العنيفة.

الروح المتّقدة بنارك

نبذت تراب الغرورِ الدنيوي،

فيسمعُ الشاعر قيثارةِ السيرافيم(35)

في رعب مقدّس.

هذه قصيدة بوشكين التي سيشير إليها الناقد المسيحي! عندئذٍ سيحصل نقده على معنى ويفعل الخير: سيقوي القضية نفسها أكثر، ويظهر كيف أنّ حتى الشخص الذي شمل تفكيره جميع المعتقدات والأسئلة غير المتجانسة في عصره التي تبعدنا عن المسيح، مثل هذا الشخص، في أفضل وألمع لحظات استبصاره الشعري، اعترف قبل كل شيء بالسمو المسيحي. لكنني أتساءل، ما هو الهدف من النقد الآن؟ ما فائدة إرباك الناس بزرع الشك والريبة فيهم بخصوص بوشكين؟ إنّ من التفاهة – التشهير بأحكم رجل في عصره والقول بأنه لا يعترف بالمسيحية! التشهير برجل ينظر إليه الجيل الفكري على أنه قائد وطليعي مقارنة بالآخرين! من الجيد أنّ الناقد لم يكن موهوباً ولم يستطع تمشية مثل هذه الكذبة، وأنّ بوشكين نفسه ترك هذا تفنيداً لهذا في أشعاره؛ وإن كان غير ذلك، فماذا كان الناقد ينشر سوى الكفر بدل الإيمان؟ هذا ما كان سيحدثه أحاديُ الجانب! يا صديقي، الله ينقذك من التفكير الأحادي الجانب: بوجوده يفعل الإنسان الشرّ في كل مكان: في الأدب، في الوظيفة، في الأسرة، في العالم، باختصار – في كل مكان. الشخص ذو التفكير الأحادي الجانب كثير الوثوق في نفسه؛ الإنسان ذو التفكير

الأحادي الجانب وقح؛ الإنسان الأحادي الجانب يسلح الجميع ضدّ نفسه. لا يمكن للشخص ذي النظرة الأحادية الجانب أنْ يجد حلاً وسطاً في أي شيء. الإنسان الأحادي الجانب لا يمكن أن يكون مسيحياً حقيقياً: يمكنه فقط أن يكون متعصباً. إن الأحادية في الأفكار تظهر فحسب أنّ الشخص لا يزال على الطريق نحو المسيحية، لكنه لم يصل إليها، لأن المسيحية تمنح العقل تعددية في الاتجاهات. باختصار، لينقذك الله من الأحادية في التفكير! انظر إلى كل شيء بشكل معقول وتذكّر أنه يمكن أن يكون فيه جانبان متعاكسان تماماً، أحدهما غير مكشوف لك لمدة من الوقت. المسرح والمسرح شيئان مختلفان، تماماً مثلما أنّ إعجاب الجمهور نفسه يكون على نوعين: مرة أنْ يكون الإعجاب عندما ترفع راقصة الباليه ساقها إلى أعلى، ومرة أخرى يكون الإعجاب مختلفاً عندما يرفع ممثل قدير بكلمة مؤثرة عالياً جميع المشاعر السامية في الإنسان. المسألة مختلفة عندما تنهمر الدموع لأن أحد المغنيين الوافدين يدغدغ أذن الفرد الموسيقية – والدموع التي، كما أسمع، يذرفها الآن في بطرسبورغ عديمو الحس الموسيقي أيضاً؛ ومرة أخرى، الأمر مختلف تنهمر الدموع لأنه من خلال التمثيل الحي للمأثرة السامية للإنسان يهتز المشاهد تماماً، وعند مغادرته المسرح ينطلق بقوة متجددة لتأدية واجبه، بعد أنْ رأى المأثرة البطولية في مثل هذا الأداء. يا صديقي! نحن مدعوون إلى العالم ليس من أجل الإهلاك والتدمير، بل دعينا، مثل الله نفسه، لتوجيه كل شيء نحو الخير، حتى ما أفسده الإنسان وحوّله إلى شرّ. لا توجد أداة في العالم غير مصممة لخدمة الله. فقد حوّلت نفس تلك الأبواق والصنج والقيثارات والطبول التي كان الوثنيون يمجدون بها أصنامهم، بعد انتصار الملك داود عليهم، إلى تسبيح الإله الحقيقي، ففرح بنو إسرائيل أكثر عندما سمعوا تسبيحه على تلك الآلات التي لم يصدح تمجيد الرب من خلالها قبل ذلك الوقت.

1845

الموضوع الخامس عشر

مواد للشاعر الغنائي في الوقت الحاضر

(رسالتان إلى ن. م. يا...)

-1-

أسرّتني قصيدتك «الزلزال». وشرّ بها جوكوفسكي(36) أيضاً. إنها، في رأيه، الأفضل ليس من بين أشعارك فقط، بل حتى من جميع القصائد الروسية. أنْ تأخذ حادثة من الماضي وتحولها إلى الحاضر – يا لها من فكرة ذكية وغنية! إنّ تطبيق الشاعر هذا، الذي يكفّل القصيدة، ينبغي أن يطبقه كل واحد منا، مهما كان مجاله، على نفسه في هذا الوقت العصيب الذي تزلزل فيه العالم، واكتنف فيه الجميع الخوف على المستقبل. يا صديقي! ينكشف أمامك مصدر واهب للحياة. إنك تقول:

اجلب الصلاة من العلاء

إلى الناس المرتجفين! –

فتتضمّن كلماتك تلك للشاعر – كلمات لنفسك. فينكشف لك سرّ ملهمتك. الزمن الحاضر هو بالضبط مجال الشاعر الغنائي. لا يمكنك أن تأخذ أي شيء بالهجاء؛ ولن توقظ أحداً بالصورة البسيطة للواقع المنظور بعين الإنسان الدنيوي المعاصر: لقد نام القرن الحالي نوماً عميقاً. كلا، ابحث عن حادثة سالفة مشابهة للحاضر، واجعلها تظهر بشكل ساطع واذهِل بها الجميع، كما أذهلت هي الناس بغضب الله في وقتها؛ اضرب الحاضر بالماضي، وستكتسي كلمتك بقوة مضاعفة: وسوف يبرز الماضي من خلال ذلك بحيوية أكثر وسيصيح الحاضر صيحته. افتح كتاب العهد العتيق: ستجد هناك كل حادثة من حوادث الحاضر، وسترى بوضوح الشمس في رابعة النهار ما انتهكته تلك الحادثة أمام الله، وكيف صُوّرت دينونة الله الأخيرة التي حدثت عليها بوضوح إلى درجة يرتعش منها الحاضر. لديك ثمة أدوات ووسائل لهذا: في قصيدتك توجد قوة توبيخ واستنهاض في الوقت نفسه. وكلاهما مطلوب الآن بالذات. يحتاج البعض إلى النهوض بهم، والبعض الآخر يحتاجون أنْ يوبّخوا: ينبغي استنهاض أولئك الذين اضطربوا من المخاوف والفظائع التي تحيط بهم؛ وتوبيخ أولئك الذين، في لحظات الغضب السماوي المقدسة والمعاناة في كل مكان، يجرؤون على الانهماك في العربدة بجميع أنواع القفز والبهجة المخزية. من الضروري أن تصبح قصائدك في عيون الجميع مثل الحروف المنقوشة في الهواء التي ظهرت

في عيد بيلشاصر(37)، والتي أثارت الرعب في الجميع حتى قبل أن يتغلغل معناها. وإذا كنت تريد أن تكون أكثر وضوحاً للجميع، فبعد أن تقتبس روح الكتاب المقدس، اهبط معها، وامسكها كالشعلة التي تضيء لك دربك، إلى أعماق العصور القديمة الروسية واضرب بها عار الزمن الحاضر وانزل بنا في الوقت نفسه إلى أعماقنا حتى يبدو لك عارنا أكثر شناعة. لن يكون شعرك خاملاً، فلا تخف؛ الزمن الغابر يعطيك الصبغة ويلهمك بنفسه! إنه حيّ ويتحرك في وقائعنا التاريخية. قبل مدة قصيرة صادفت كتاباً بعنوان «تجليات القياصرة». تصوّرته مملاً، وإذا به يزخر بالكلمات التي تحمل أسماء الأثاث الملكي والأقمشة الثمينة والأحجار الكريمة، إنه عبارة عن كنز حقيقي للشاعر؛ كل كلمة تتناسب مع بيت شعري. جواهر لغتنا تثير الدهشة: كل حرف بمثابة هدية؛ كل شيء محبب، وفضّيّ، مثل اللؤلؤة، إنه حقاً، اسم ثمين مختلف للشيء نفسه. إنْ ضفّنت مثل هذه الكلمات في قصائدك، فستحمل القارئ بالكامل إلى الماضي. بعد قراءة ثلاث صفحات من هذا الكتاب، رأيت قيصر العصور القديمة السالفة في كل مكان، يمشي بوقار إلى صلاة الغروب بزيه الملكي القديم.

1844

-2-

أكتب إليك تحت تأثير قصيدتك: «الزلزال». أرجوك، لا تترك العمل الذي بدأته! أعد قراءة الكتاب المقدس بدقة، واقتبس من العصور القديمة الروسية، وعلى ضوء ذلك، القِ نظرة فاحصة على الزمن الحاضر. أمامك أشياء كثيرة جداً، ومن الخطيئة ألّا تراها. ليس من أجل لا شيء وصف جوكوفسكي حتى الآن شعرك بأنه بهجة لم توّجه إلى أي مكان. إنه لأمر مخزٍ أن تهدر القوة الغنائية على شكل طلقات فارغة في الهواء، بينما أعطِيَت لك لتفجّرَ بها الحجارة وتحرّك المنحدرات. انظر من حولك: كل شيء أصبح الآن مادة للشاعر الغنائي؛ كل فرد يطلب نداءً غنائياً له؛ أينما تتجه، ترى أنك بحاجة إما إلى أنْ تعاتب أحداً أو تنعشه.

في البداية عاتب عتاباً غنائياً قوياً أولئك الناس الأذكياء، ولكنهم في الوقت نفسه لسبب ما يائسون. سوف تؤثّر فيهم إذا ما أظهرت لهم الأمر في شكله الحقيقي، أي إنّ الشخص الذي أسلم نفسه لليأس هو سيئ من جميع النواحي، مهما كانت أسباب اليأس، لأن اليأس ملعون من الله. ستقود الإنسان الروسي الحقيقي إلى المعركة حتى ضد اليأس، وترفعه فوق الخوف وفوق اهتزازات الأرض، كما ارتفعتْ بالشاعر في قصيدتك «الزلزال».

وجّه نداءً غنائياً قوياً إلى الشخص الرائع ولكنه نائم. ارمِ له لوحاً من الشاطئ واصرخ بأعلى

صوتك لإنقاذ روحه المسكينة: إنه أصبح بعيداً عن الشاطئ، تحمله قمة نور ضئيلة، تحمله المآدب، وأرجل الراقصين، ونشوة النوم اليومية؛ لقد اكتسى جسداً بلا وعي وأصبح كله جسداً، لم تعد فيه روح تقريباً. اصرخ صرخة وأره الشيخوخة القادمة إليه كالساحرة وهي كلها من الحديد، أمامها الحديد بمثابة الرحمة التي لا تعطي أبسط شعور بالحركة. آه، إذا كان بإمكانك إخباره بما سيقوله بليوشكين(38) إذا ما وصلتَ إلى المجلد الثالث من «النفوس الميتة». (39)!

افضح في قصائد المديح الغاضبة المرابي الجديد من العصر الحالي وترفه اللعين، وزوجته الخبيثة التي أهلكت نفسها وزوجها بالملابس والخِرَق، وعتبة بيتهم الثري الدنيئة، والهواء الشنيع الذي يتنفسون منه هناك، حتى يهرب الجميع منهم، مثلما يهربون من الطاعون، من دون أنْ يلتفتوا وراءهم.

ومجِّد في ترنيمة احتفاليةِ العاملَ البسيط، الذي، تكريماً للسلالة الروسية السامية، حتى عندما يكون وسط أكثر المرتشين جسارة لا يرتشي كما يرتشي الجميع من حوله. مجِّده ومجِّد عائلته وزوجته النبيلة التي تفضل ارتداء قبعة قديمة الطراز وتصبح موضع سخرية الآخرين بدلاً من السماح لزوجها بالظلم واللؤم. اكشف عن فقرهم الجميل حتى يضيء مثل شيء مقدس أمام الجميع، ويود كل واحد منهم أن يكون هو نفسه فقيراً.

ارض بالترنيمة، التي تخرج من التربة الروسية فقط، هذا العملاق الذي يستيقظ فجأة من النوم المخجل، وفجأة يصبح مختلفاً؛ بعد أنْ يتخلى أمام الجميع عن رجسه وعيبه الدنيء، ويصبح أول محارب من أجل الخير. أظهِر كيف يحدث هذا العمل البطولي في روح روسية حقيقية؛ لكن أظهر ذلك بكيفية ترفرف من خلالها الطبيعة الروسية بشكل لا إرادي في كل فرد، حتى يصرخ الجميع، حتى في الفئة الوقحة والدنيا: «آه، أحسنت!» – بعد أنْ يشعر بأن مثل هذا الشيء ممكن بالنسبة له.

هناك الكثير جداً من الموضوعات للشاعر الغنائي – لا يسعها كتاب، ناهيك عن رسالة. كل شعور روسي حقيقي يتلاشى إذا لم يوجد مَن يُنادى به! بسالتنا نائمة، وعزمنا وشجاعتنا غافيتان، وصلابتنا وقوتنا نائمتان، – وأذهاننا نائمة وسط الحياة الخاوية والدنيوية الأنثوية، التي غَرِسَت فينا، تحت اسم التنوير، البدع الفارغة والتافهة. انفض النوم عن عينيك واضرب على نوم الآخرين. اسجد أمام الله واسأله عن الغضب والمحبة! الغضب – على ما يدمر الإنسان، والحب – لروح الإنسان المسكينة، التي تحطمت من جميع الجهات والتي يدمرها هو بنفسه. ستجد كلمات، وستكون ثمة تعابير، وستخرج منك نيران، وليس كلمات، كما خرجت من الأنبياء

القدامى، إذا ما جعلك عملك الأصيل والعميق مثل عملهم، وبعد أن تذري الرماد على رأسك، تمزق ثياب القداسة، ادغ الله حتى يمنحك هذه القوة وستحب خلاص أرضك كما أحب الأنبياء خلاص شعبهم المختار.

1844

الموضوع السادس عشر

نصائح

(رسالة إلى هـ...ف)

عندما تُعلِّم الآخرين، فأنت تتعلم أيضاً. فأثناء حالتي الصعبة والمؤلمة، التي ترافقت مع معاناة نفسية شديدة، كان عليّ أن أعمل على مثل هذه المراسلات الفعّالة، والتي لم تكن لدي من قبل. وقد عانى كل شخص قريب من روحي تقريباً من أحداث واضطرابات داخلية في هذا الوقت، وكأنّ الأمر حدث عن قصد. وفي ذلك الوقت توجه إليّ الجميع بغريزة معيّنة، طلباً للمساعدة والمشورة. عندها فقط أدركتُ القرابة الوثيقة بين النفوس البشرية مع بعضها البعض. ما أنْ تبدأ تكتشف نفسك جيداً من خلال المعاناة حتى تدرك معاناة الآخرين وتصبح قادراً تقريباً على معرفة ما ينبغي أنْ تقول لهم. وليس هذا فقط، بل سيصحو عقلك نفسه: تصبح مواقف الناس ومجالاتهم المخفية قبل ذلك معروفةً لك، وسيتضح لك ما يحتاج كل واحد منهم. وحتى أنني في المدة الأخيرة تلقيت رسائل من أشخاص لم أكن أعرفهم تماماً تقريباً، ولم أتمكن بأي شكل من الأشكال من الرد عليها. وبالمناسبة أنا لست أذكى من أي شخص آخر. أعرف أشخاصاً أكثر منّي ذكاءً وتعليماً بعدة مرات ويمكن أن يقدموا نصائح أكثر فائدة من نصائحي بعدة مرات؛ ولكنهم لا يفعلون هذا ولا يعرفون حتى كيفية القيام به. عظيم هو الله الذي آتانا الحكمة، وبأي شيء آتانا الحكمة؟ – بذلك الحزن نفسه الذي نهرب منه ونريد الاختباء منه. فمن خلال المعاناة والحزن يتوجب علينا الحصول على مثقال ذرة من الحكمة التي لا نكتسبها في الكتب. ولكن مَن حصل على واحدة من هذه الذرات لم يعد له الحق في إخفائها عن الآخرين. إنها ليست ملكك بل ملك الله. الله صنعها فيك؛ فعطايا الله كلها توهَب لنا حتى نخدم بها إخوتنا: لقد أمرنا أن نعلّم بعضنا البعض في كل دقيقة. لذلك، لا تتوقف، علّم وأعطِ النصيحة! ولكن إذا ما كنت تريد أن يعود هذا عليك بالمنفعة في الوقت نفسه، فافعل ما أعتقد به وما أعددت نفسي لفعله من الآن فصاعداً: عندما تريد أنْ تقدّم أيّ نصيحة وإرشاد، بغض النظر عن الشخص الذي تُقدّم له، حتى للشخص الذي يقف على أدنى درجة من التعليم، والذي لا يمكن أن يكون لديك أي شيء مشترك معه، توجّه في الوقت نفسه إلى ذاتك، وانصحها بالشيء نفسه الذي تنصح به الآخرين؛ ولُم نفسك بذلك اللوم نفسه الذي وجهته إلى الآخرين. صدقني، كل شيء سيعود إليك، ولا أعرف حتى ما إذا كان ثمة لوم يمكن أن توجّهه إلى نفسك إذا ما نظرت إلى نفسك فقط باهتمام. استخدم سلاحك ذو الحدين! حتى لو غضبتَ من أي شخص، اغضب من نفسك في الوقت نفسه، ولو من حقيقة أنك تمكنت من الغضب من شخص آخر. افعل هذا بكل تأكيد! لا تغمض عينيك

عن نفسك بأيّ حال من الأحوال. اجعل نفسك دائماً في الموضوع أولاً وقبل كل شيء. كن أنانياً في هذه الحالة! فالأنانية ليست دائماً صفة سيئة. كان الناس أحراراً في إعطائها مثل هذا التفسير السيئ، ولكن في أساس الأنانية تكمن الحقيقة المطلقة. اعتن بنفسك أولاً، ثم بالآخرين؛ كن أولاً أنقى في الروح، ثم حاول أن تجعل الآخرين أكثر نقاءً.

1846

الموضوع السابع عشر

التعليم

(رسالة إلى ف. أ. جـــي)

مرة أخرى أكتب إليك في الطريق. يا أخي، شكراً لك على كل شيء! سأدعو عند القبر المقدس أنْ يساعدني الله أنْ أعطيك جزءاً على الأقل من هذا الخير الذكي الذي وهبته لي أنت شخصياً. آمن، ولا تدع قلبك يشك! ستأتي إلى موسكو، كما لو أتيتَ إلى عائلتك. ستبدو لك كملاذ مرغوب، وستكون أكثر سلاماً بالنسبة لك من هنا. لن يعكّر صفوك ضجيج الصخب الفارغ ولا قعقعة العربة: سوف يقودون بحذر حول الشارع الذي ستعيش فيه. إذا جاء أي شخص لزيارتك، سواء كان صديقاً قديماً لك أو شخصاً لا تعرفه قبل الآن، فسيطلب منك مسبقاً إنْ كنت ستسمح له بالزيارة، خوفاً من أنْ تضيع من وقتك حتى دقيقة واحدة. الناس لدينا يعرفون ويجيدون كيف يكرمون الشخص الذي أدى عمله بالكامل. إنّ الذي استخدم كل مواهبه بطريقة لا تشوبها شائبة وبصدق، ولم يدع قدراته تغفو، ولم يكسل لمدة دقيقة في حياته كلها، والذي حافظ على شيخوخته، مثلما حافظ على شبابه، بينما كل من حوله يضيع في إغراءات فارغة – فله الحق في أنْ يُوَقِّر ويُحتَرَم بعد أن ذهب شبابه وأصبح شيخاً واهناً. ستكون في موسكو كالبطريرك، وسوف يعادل الشباب بالذهب كلماتك التي فيها خبرة الشيوخ. سوف تجلب «الأوديسة» (التي ترجمتَها) الكثير من الخير العام، وأتوقع ذلك لك. تعيد النضارة للإنسان المعاصر الذي سئم ارتباك الحياة والأفكار؛ سوف تجدد في عينيه الكثير مما الأشياء التي رماها لأنها صارت عتيقة وغير ضرورية للحياة اليومية؛ وستعيد الإنسان إلى البساطة. ولكن تلك الأعمال التي قادك إليها الله بنفسه والتي تحتفظ بها على نحو معقول من دون أنْ تُطلِع الناس عليها سوف تجلب من الخير ما يزيد على ذلك الخير الذي جلبته «الأوديسة». وستكون كذلك ثمة حاجة عامة إليها. لا تنزعج وانظر بثبات إلى الأمام! فلن يرهبك أيّ تنافر في كل ما ستقابله. هناك مصلح لكل شيء في أرضنا، وهو أمر غير مرئي حتى الآن للجميع – إنها كنيستنا. إنها تستعد للظهور فجأة بكامل أهليتها لكي تنير الأرض كلها. إنها تحتوي على جميع المقومات المطلوبة للحياة الروسية الحقيقية، في جميع علاقاتها، بدءاً من علاقات الدولة إلى العلاقة الأسرية البسيطة، وقادرة على أنْ تسوي المواقف كلها وتوجّه كل شيء على المسار القانوني الصحيح. بالنسبة لي، فكرة إدخال نوع من التقليعات الجديدة في روسيا، وتجاوز كنيستنا، من دون طلب مباركتها، هي أيضاً فكرة مجنونة. من العبث أنْ نغرس في تفكيرنا أي أفكار أوروبية، قبل أنْ تعقّدها الكنيسة بنور المسيح. سترى عندما تنهض كنيستنا فجأة كيف سيعترف بدورها أمام عينيك الجميع في

روسيا، مؤمنين وغير مؤمنين على حدٍّ سواء. اقتضت إرادة العناية الإلهية أنْ يُصاب الكثيرون بعمى لا يمكن فهمه. فعندما أحلل خيط حوادث العالم بنظرة ثاقبة، أرى حكمة الله كلها، التي سمحت بالتقسيم المؤقت للكنائس، والتي أمرت إحداهما بالوقوف بلا حراك، وبعيداً عن الناس، وجعلَ الأخرى تضطرب مع الناس؛ جعلَ واحدة لا تقبل في داخلها بأيّ بدعة، باستثناء تلك التي أدخلها القديسون وآباء الكنيسة الأصليون في أفضل أوقات المسيحية، وجعل الأخرى – تتغيّر وتألف جميع ظروف العصر، وتألف روح وعادات الناس، وتقدّم جميع التقليعات الجديدة التي أحدثها حتى الأساقفة المنحرفون الأشرار؛ جعل واحدة تبدو للعالم ميتة مدة من الوقت، والأخرى تبدو مدة من الوقت تستولي على العالم بأسره؛ واحدة – مثل مريم(40) المتواضعة، بعد أن تركت كل الرعاية الأرضية، ارتمت عند قدمي الرب نفسه، من أجل أنْ تسمع كلماته بشكل أفضل، قبل أنْ تطبقها وتنقلها إلى الناس، في حين أنّ الأخرى، مثل المضيفة الحانية مرثا(41)، تسعى بالضيافة أمام الناس، وتنقل إليهم كلمات الرب قبل أنْ تزنها بعقلها. الجزء الجيد اختارته الأولى، التي ظلت لمدة طويلة تصغي إلى كلام الرب، وتحملت توبيخ أختها القصيرة النظر، التي تجرأت بالفعل على تسميتها جثة ميتة وحتى ضائعة ومرتدة عن الرب. ليس من السهل تطبيق كلمة المسيح على الناس وعليها قبل أن تتشرب بعمق بها. لكن كنيستنا احتفظت بكل ما هو مطلوب لمجتمع اليقظة الآن. لقد كانت رأس ودفة النظام الجديد الذي يقترب من الأشياء، وكلما أدخل إليها بقلبي وعقلي وفكري، كلما أندهش أكثر من الإمكانية الرائعة للتوفيق بين تلك التناقضات التي لا تستطيع الكنيسة الغربية الآن حلها. كانت الكنيسة الغربية آنذاك تكفي للنظام السابق غير المعقد؛ لا يزال بإمكانها بطريقة ما إدارة العالم وتصالحه مع المسيح باسم التطور الأحادي الجانب وغير المكتمل للبشرية. ولكن الآن، عندما بدأت البشرية في تحقيق أقصى قدر من التطور بكل قواها، في جميع الخصائص، سواء كانت جيدة أو سيئة، فإنها تنفّره فحسب من المسيح: كلما اهتمت بالتوافق، كلما جلبت الخلاف، وعجزت عن أنْ تنير بضوئها الضيق كل كائن موجود من جميع الجهات. يعترف الجميع أنّ هذه (الكنيسة الغربية)، من خلال إدخالها في سياقها للعديد من المراسيم البشرية التي أصدرها هؤلاء الأساقفة الذين لم يصلوا بعد في قداسة حياتهم إلى الحكمة المسيحية الكاملة والمتعددة الجوانب، ضيّقت نظرتها إلى الحياة والعالم ولم تستطع استيعابها. النظرة الكاملة والشاملة للحياة بقيت في (الكنيسة) الشرقية، ويبدو أنها حُفِظَت من أجل تعليم الإنسان بشكل أفضل في وقت لاحق. لديها مكان ليس فقط لروح الإنسان وقلبه، بل أيضاً للعقل، بكل قواه العليا؛ لديها طريق ومسار توجه من خلاله كل شيء في الإنسان إلى ترنيمة واحدة متوافقة للكائن الأسمى. يا صديقي، لا تمتعض من أيّ شيء! إذا ما اختلطت الظروف الحالية سبعة أضعاف، فإن كنيستنا ستصلح كل شيء وتفككه. وبالفعل

بشيء من الحس غير المعروف، حتى أناسنا الدنيويون، الذين يتدافعون بيننا، بدؤوا يشعرون أنْ ثمة كنزاً يأتي منه الخلاص، وهو بيننا ولكن لا نراه. سوف يتلألأ الكنز، وسوف يضيء بريقه على كل شيء. وهذا الوقت ليس ببعيد. نحن الآن نكرّر كلمة «التنوير»، التي لا تزال بلا معنى. لم نفكر حتى في مصدر هذه الكلمة وماذا تعني. هذه الكلمة ليس لها وجود فعلي بأيّ لغة، إنها في لغتنا فقط. التنوير لا يعني التعليم أو الإرشاد أو التثقيف أو حتى الإضاءة، بل يعني اختراق الضوء للإنسان من طرف إلى آخر في كل قواه، وليس في عقله وحده، ليحمل طبيعته بأكملها من خلال نار مطهّرة. هذه الكلمة مأخوذة من كنيستنا التي تنطقها منذ ما يقرب من ألف عام، برغم ظلام وظلمة الجهل كلها التي أحاطت بها من كل مكان، وتعرف سبب قولها. ليس من قبيل الصدفة أنْ الأسقف، في قداسه المهيب، يرفع بكلتا يديه الشمعدان الثلاثي، للدلالة على ثالوث الله، والشمعدان المزدوج، الذي يشير إلى نزول كلمته إلى الأرض في طبيعتها المزدوجة، التي تنير بطبيعتها الإلهية والبشرية قائلةً: «نور المسيح يضيء الجميع!» وليس من قبيل الصدفة أن يدوي القداس في مكان آخر بشكل متقطع، كما لو ترددت من السماء، بصوت عالٍ للجميع، الكلمتان: «نور التنويرا» – ولا يضاف لهما أكثر من ذلك.

1846

الموضوع الثامن عشر

أربع رسائل لأشخاص

مختلفين عن «النفوس الميتة»

-1-

ليس ثمة مبرّر لاستيائك من النغمة المفرِطة لبعض الهجمات على (رواية) «النفوس الميتة». إنّ هذا الأمر له جانبه الجيد. ففي بعض الأحيان يحتاج المرء إلى وجود حانقين عليه. فمَن انغمس في الجمال لا يرى النقص ويتهاون مع كل شيء؛ ولكن الحانق سيحاول البحث عن كل مُثلَبة فينا ويظهرها بكل سطوع للخارج لدرجة أنك ستراها لاإرادياً. نادراً ما تُسمع الحقيقة لدرجة أنه يمكن للمرء، من أجل مثقال ذرة منها، أنْ يغفر لأي صوت مهين، بغض النظر عن كيفية نطقه. في نقد بولغارين وسينكوفسكي وبوليفوي، هناك الكثير من الأمور العادلة، بدءاً من النصيحة التي قُدّمَت لي في ضرورة تعلم اللغة الروسية أولاً ثم البدء بالكتابة. في الواقع، لو لم أستعجل بطباعة المخطوطة واحتفظت بها معي لمدة عام، لرأيتُ بنفسي لاحقاً أنه ما كان ينبغي أن تظهر للنور في مثل هذه الحالة غير المرتبة. لقد كنتُ بحاجة إلى ذلك الهجاء والسخرية مني، على الرغم من حقيقة أنني لم أستسغه للوهلة الأولى. آه، كم نحتاج إلى التجريح المتواصل، وإلى نبرة الإهانة هذه، وإلى هذه السخرية اللاذعة النفّاذة! فكم يوجد في أعماق أرواحنا من غرور تافه وحقير، وحبّ الرّفعة المُدَغدِغ البغيض لدرجة أنه في كل دقيقة يجب طعننا وضربنا وجرحنا بكل الأدوات الممكنة، ويجب أن نشكر في كل دقيقة اليد التي تضربنا.

بيد أنّي وددتُ أنْ يكون ثمة المزيد من النقد، ليس من جانب الكُتّاب، بل من جانب الناس المنشغلين بقضية الحياة نفسها، من جانب الأشخاص العمليين؛ ولكن للأسف، لم يستجب أحد باستثناء الكتّاب. وفي غضون ذلك، أحدثت «النفوس الميتة» الكثير من الضجيج، والكثير من الهمهمة، وأثارت الكثيرين بالسخرية وبالحقيقة وبالصور الكاريكاتيرية؛ وتطرقت إلى ترتيب الأشياء التي تواجه الجميع أمام أعينهم كل يوم؛ وهي مليئة بالعثرات والمفارقات التاريخية والجهل الواضح بالعديد من الموضوعات؛ وحتى أنها تضمّنت في بعض الأماكن عن قصد أشياء مهينة وصادمة: ربما يختارني شخص ما بشكل جيد ومن خلال الشتائم والغضب يخبرني بالحقيقة التي أحاول الحصول عليها. ليت نفساً واحدة على الأقل تعلن عن نفسها وتفعل ذلك! مع إنّ كل شخص قادر على ذلك. وحبذا لو يفعله بذكاء! يمكن لموظف الخدمة المدنية أن يثبت لي بوضوح، أمام الجميع، بُعد الحادثة التي صورتها عن الحقيقة من خلال الاستشهاد بحالتين

أو ثلاث حالات حدثت بالفعل، وبهذا يدحض عملي أفضل من أي كلام، أو بالطريقة نفسها يمكنه الدفاع عن الرواية وتبرير إنصاف ما وصفته. فمن خلال الاستشهاد بحادثة حدثت تثبت القضية بشكل أفضل من الكلمات الجوفاء والتهديدات الأدبية. ويمكن للتاجر ومالك الأرض أن يفعلوا الشيء نفسه – باختصار، أيّ شخص يعرف القراءة والكتابة، سواء كان جالساً في مكانه أو يجوب وجه الأرض الروسية كاملاً بالطول والعرض. بعيداً عن وجهة النظر الخاصة، إنّ كل شخص، وفقاً للمكانة أو الدرجة في المجتمع، التي وضعه فيها منصبه ورتبته وتعليمه، لديه الفرصة لرؤية الشيء نفسه من جانب لا يمكن لأيّ شخص آخر رؤيته منه. كان من الممكن أن يكتب حشدٌ كامل من القراء عن «النفوس الميتة» كتاباً آخر، لا تضاهيه من حيث المتعة رواية «النفوس الميتة»، والذي كان يمكن أن يعلمني ليس وحدي فقط، بل ويعلّم القراء أنفسهم أيضاً، لأنه – لا يوجد شيء يخفي الخطيئة – كلنا لا نعرف روسيا بشكل صحيح للغاية.

ليث نفساً واحدة على الأقل تحدثت بصوت عالٍ ليسمعها الجميع! تماماً كما لو أنّ الجميع قد ماتوا، كما لو أنه في الواقع، لا يعيش في روسيا أناسٌ أحياء، بل نفوس ميتة. ومع هذا ألامُ على عدم معرفتي بروسيا جيداً! كأنّ عليّ أن أعرف بقوة الروح القدس كل ما يحدث في جميع أركان روسيا – من دون أنْ أعرف كيف أتعلّم! ولكن ما هي الطرق التي يمكنني أن أتعلّم بها، بوصفي كاتباً محكوماً عليه من خلال لقب الكاتب أنْ يعيش حياة مستقرة ومنعزلة. وعلاوة على ذلك، أنا مريض، بالإضافة إلى أنّي مُجبر على العيش بعيداً عن روسيا. فما هي الطرق التي يمكنني أن أتعلّمها؟ لن يعلمني هذا الأدباء والصحفيون، الذين هم أنفسهم أناس منعزلون في المكاتب وبعيدون عن الحياة العملية. الكاتب لديه معلّم واحد فقط – القراء أنفسهم. ولكن القراء رفضوا أن يعلموني. أعرف، أنّ عليّ أنْ أجد جواباً شافياً لله على سبب عدم تنفيذي لعملي بشكل صحيح؛ لكني أعلم أنّ الآخرين سيجيبون نيابة عني أيضاً. ولا أقول هذا عبثاً. والله يعلم، أني لا أقول هذا عبثاً!

1843

-2-

كان لدي شعور بأنّ جميع أنواع الاستطراد العاطفي في القصيدة ستؤخذ بالمعنى الخاطئ. إنها غامضة للغاية، ولا تتناغم كثيراً مع الأشياء التي تمر أمام أعين القارئ، ولا تتلاءم مع طبيعة ونمط العمل بأكمله، لدرجة أنها ضلّلت المعارضين والمدافعين على حدٍّ سواء. جميع الفقرات التي تطرقتُ فيها إلى الكاتب بشكل غامض نُسِبت إلي؛ وقد خجلتُ حتى من التفسيرات التي كانت في صالحي. وهذا ما أستحقه! لم يكن ينبغي بأي حال من الأحوال إصدار النتاج الذي،

على الرغم من أنه فُصِّلَ بشكل لا بأس به، ولكنه خِيطَ بطريقة ما بخيوط بيضاء، مثل فستان جلبه الخياط من أجل تجربة المقاسات فقط. إني مندهش فحسب لأنَّ القليل من اللوم وجِّه إليَّ فيما يتعلق بالفن والعلم الإبداعي. لقد حال دون ذلك موقف نُقَّادي الغاضب وعدم الاعتياد على التمعُّن في بنية العمل. كان ينبغي إظهار الأجزاء الطويلة جداً التي تخص الآخرين، التي خان فيها الكاتب نفسه، عندما لم يتمسك بنغمته الشخصية التي تبناها أكثر من مرة. وحتى أنَّ أحداً لم يلاحظ أنَّ النصف الأخير من الكتاب متقنٌ أقل من النصف الأول، وأنَّ فيه إغفالاً كثيراً، وأنَّ الظروف الرئيسة والمهمة مضغوطة ومختصرة، والظروف غير المهمة والعرضية مطوَّلة، إلى درجة لا تبدو معها الروح الداخلية للعمل بأكمله بقدر ما يبدو للعيان عدمُ تجانس أجزائه وزقِّعِه. باختصار، كان من الممكن أنْ توجَّه لي الكثير من الهجمات التي ربما تكون أكثر فاعلية، وألام أكثر بكثير مما ألام به الآن، ويكون اللوم موجَّهاً من أجل العمل نفسه. لكن الأمر لا يتعلق بذلك. فالكلام حول الاستطراد الغنائي، الذي تعرض لهجوم الصحفيين أكثر من غيره، حينما رأوا فيه علامات الفطرسة والثناء على الذات والفخر، والتي لم يُسمع بها عند أي كاتب آخر حتى الآن. أعني به الفقرات في الفصل الأخير التي يصور الكاتب فيها رحيل تشيتشيكوف عن المدينة، ويحل محله الكاتب لمدة من الوقت بعد أنْ يترك بطله على الطريق السريع. فينذهل من رتابة الأشياء المملة، ومن قفر أراضينا، ومن نغمة الأغنية الحزينة التي تحلّق على وجه الأرض الروسية كله من البحر إلى البحر. فيخاطب الكاتبُ في نداء عاطفي روسيا نفسها، طالباً منها شرحاً للشعور غير المفهوم الذي استولى عليه، أيْ: لماذا وعلامَ يبدو له كأنَّ كل ما فيها، من الحيوانات إلى جمادات، يحملق إليه وينتظر شيئاً منه. غذَّت تلك الكلمات فخراً وتفاخراً لم يُسمَع به حتى الآن، في حين أنها ليست هذه ولا تلك. إنها مجرد تعبير غريب عن الشعور الحقيقي. وحتى الآن لا يزال يبدو لي الشيء نفسه. ما زلت لا أستطيع تحمل تلك الأصوات الحزينة والممزقة لغنائنا، الذي يندفع في جميع المساحات الروسية التي لا حدود لها. هذه الأصوات تدور حول قلبي، وحتى أني أتساءل لماذا لا يشعر الجميع بنفس الشيء في أنفسهم. إنَّ مَن لا يشعر بالكآبة عند النظر إلى هذه الأماكن المهجورة وغير المأهولة حتى الآن والتي لا مأوى فيها، ومَن لا يسمع في الأصوات الحزينة لغنائنا عتاباً مؤلماً لنفسه – على وجه التحديد لنفسه – إما أنه قد أدى واجبه بالكامل بشكل صحيح أو أنه غير روسي في روحه. دعونا نفحص الأمر كما هو. لقد مرّ ما يقرب من مائة وخمسين عاماً منذ أن ظَهَرَ القيصر بطرس الأول أعيننا بفطهّر التنوير الأوروبي، وأعطانا جميع الوسائل والأدوات من أجل العمل، ولكن ما زالت مساحاتنا مهجورة وحزينة وقِفراً، وكذلك كل ما حولنا موحش ولا مأوى فيه، كما لو أننا ما زلنا لسنا في دارنا، ولا تحت سقفنا الأصلي، بل في مكان ما توقفنا بلا مأوى على الطريق، ولا نتنفس

من روسيا ترحيباً ودياً أخوياً، بل نحن متوقفون في محطة بريدية باردة مطمورة بعاصفة ثلجية، حيث لا يمكن للمرء أن يرى سوى ناظر المحطة غير المبالي بكل شيء ورذه الجاف: «لا توجد خيول!» لماذا هذا؟ من المذنب؟ هل نحن أم الحكومة؟ لكن الحكومة كانت تتصرف دائماً بلا كلل. والدليل على ذلك هو مجلدات كاملة من المراسيم والتشريعات والمؤسسات، والكثير من البيوت المبنية، والكثير من الكتب الصادرة، والعديد من المؤسسات القائمة من جميع الأنواع: التعليمية، والإنسانية، والخيرية، باختصار، حتى تلك المؤسسات التي لا تقيمها الحكومات في أي دولة أخرى غير روسيا... تصدر الأسئلة من الأعلى، والإجابات من الأسفل. في بعض الأحيان كانت تُسمع من الأعلى مثل هذه الأسئلة التي تشهد على حركة كرم الفرسان التي قام بها العديد من القياصرة الذين تصرفوا حتى على حساب مصالحهم الخاصة. ولكن كيف زُدّ على ذلك كله من الأسفل؟ النقطة المهمة، في النهاية، في التطبيق، في القدرة على تطبيق تلك الفكرة بطريقة نتقبلها وتستقر فينا. المرسوم، بغض النظر عن مدى فكرته ومقتضياته، ليس أكثر من ورقة بيضاء، إذا لم تكن ثمة رغبة صادقة من الأسفل لتطبيقه في العمل من طرف الجهة التي تحتاجه والتي تهتم به، والذي لا يبصره إلا المستنيرون بمفهوم العدالة الإلهي وليس بمفهوم العدالة البشرية. وبدون ذلك سيتحول كل شيء إلى شرّ. والدليل على ذلك هو كل المحتالين والمرتشين لدينا، الذين يعرفون كيف يتجاوزون أي مرسوم، والذين يُعَدّ المرسوم الجديد بالنسبة لهم مجرد مكسب جديد، ووسيلة جديدة لإفساد كل أداء للعمل بمزيد من التعقيد، وجعله حَجر عثرة في طريق الناس! باختصار، في كل مكان، أينما توجهتُ، أرى أنّ المستخدِم هو المسؤول، لذلك، يا أخي: إمّا أنْ يقع اللوم (على الكاتب) لكونه قد استعجل، رغبةً منه في أن يصبح مشهوراً في وقت مبكر جداً ويحصل على الأمر؛ أو أنه مذنب لأنه اندفع بفارغ الصبر، راغباً، وفقاً للعادات الروسية، في إظهار تضحيته بنفسه؛ من دون استيضاح من العقل، ومن دون النظر إلى العمل نفسه بحرارة، وصار يُقلّبه، كخبير، ثم فجأة، وفقاً للعادة الروسية أيضاً، بَرَدَ، بعد أنْ رأى الفشل؛ أو، أخيراً، يقع عليه اللوم لأنه بسبب بعض الطموح التافه المهين ترك كل شيء، وحتى المكان الذي انطلق منه بتبلٍ، وسلّمه لأول محتال – دعه يسرق الناس. باختصار، يوجد لدى القليلين منا المقدار الكافي من الحب للخير الذي يمكّنه من أنْ يقرر بسهولة التضحية بسب ذلك الحب بالطموح وبالفخر وبجميع الأشياء الصغيرة للأنانية الساخطة ويضع لنفسه قانوناً لا بدّ منه – أن يخدم بلده، لا أنْ يخدم نفسه، متذكراً في كل دقيقة أنه اتخذ القرار من أجل سعادة الآخرين، وليس من أجل سعادة نفسه. على العكس من ذلك، في الآونة الأخيرة، كما لو كان عن قصد، حاول الفرد الروسي أنْ يُظهِر للجميع حساسيته في جميع الأنواع وتفاهة تفاخره الانفعالي في جميع الطرق. لا أعرف، إنْ كان الكثيرون منّا قد فعلوا كل ما كان ينبغي عليهم فعله، ويمكنهم

أنْ يقولوا علناً أمام العالم كله أنّ روسيا لا تستطيع أنْ تلومهم على شيء، وأنّ كل شيء في المساحات القفر لا ينظر نظرة لوم إليهم، وأنّ الجميع راضون عنهم ولا ينتظرون منهم شيئاً. أعرف فحسب، أنّي أحسّ باللوم نحو نفسي. وأشعر به حتى الآن. وفي مجال عملي، بوصفي كاتباً، مهما كنتُ متواضعاً، كان يمكن أنْ أفعل شيئاً أكثر فائدة وأكثر ثباتاً. ولكن ماذا عن حقيقة أنّ الرغبة في الخير قد سكنت قلبي دائماً، وأنه بسببها فقط تناولت القلم وبدأتُ الكتابة؟ وكيف أديتُ عملي؟ دعني أتساءل عن عملي هذا، الذي ظهر الآن والذي يحمل عنوان «النفوس الميتة» – هل ترك انطباعاً، وأيّ انطباع يمكن أنْ يتركه إذا ما كان مكتوباً كما ينبغي؟ إنّي لم أتمكن من نقل أفكاري الخاصة البسيطة غير المدمرة، وأعطيت نفسي عذراً لتفسيرها في الجانب الخاطئ، بل والضار أكثر مما هو مفيد. مَن المذنب في هذا؟ هل يمكنني أنْ أقول، حقاً، إنني كنت مدفوعاً بطلبات الأصدقاء أو بالرغبات اللحوحة لعشاق الأناقة، الذين يستمتعون بالأصوات الفارغة العابرة؟ هل أحتاج حقاً إلى القول أنني كنت مضغوطاً بسبب الظروف، وأرغب في الحصول على المال اللازم لمعيشتي، فكان عليّ الإسراع في إصدار كتابي في وقت مبكر؟ كلا، إنّ مَن قرر أداء عمله بأمانة، لا يمكن لأي ظروف أن تهزه، إنه يمد يده ويطلب الصدقة، إذا وصل الأمر إلى ذلك الحال، إنه لن ينظر إلى أيّ لوم مؤقت، ناهيك عن سلوك الناس الفارغ. إنّ مَن يفسد عمله الضروري لبلده بسبب سلوك الناس الفارغ، فذلك لا يحب عمله. لقد شعرتُ بالضعف المقيت في شخصيتي، وبتخاذلي الدنيء، وبعجز حبي، ولذلك شعرتُ في داخلي بلوم مؤلم لنفسي على كل ما موجود في روسيا. لكن قوة عُليا رفعتني: لا توجد آثام لا يمكن إصلاحها، وتلك الفضاءات الفارغة التي جلبت الكآبة إلى روحي، أسعدتني بامتداد مساحاتها الكبير، وبمجالها الواسع للعمل. فوجّهتُ هذا النداء إلى روسيا من صميم القلب: «ألا ينبعث فيك بطل ذات يوم، إذا ما وجد مكاناً يستطيع فيه أن يُظهرَ مواهبه؟» إنّي لم أقل ذلك من أجل صورة فنية أو تفاخر: لقد شعرت به؛ وما زلتُ أشعر به الآن. في روسيا الآن في كل مكان يمكن للمرء أن يصبح بطلاً. فكل رتبة ومهنة تتطلّب البطولة. لقد تسبب كل فرد منا بإلحاق العار بقدسية رتبته ومهنته (جميع المهن مقدسة) لدرجة أنّ ثمة حاجة إلى قوى بطولية لرفعها إلى سموّها المشروع. لقد شعرتُ بالمجال العظيم الذي أصبح الآن مستحيلاً لأي شخص من الشعوب الأخرى، والذي لا يُتاح إلا للإنسان الروسي فقط، لأنّ أمامه فقط مثل هذا الاتساع وروحه فقط على دراية بالبطولة – وهذا هو السبب الذي جعلني أتلفظ بهذا النداء الذي تصوره البعض تفاخراً وغطرسة منّي!

1843

-3-

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الغريب أنْ تسألني، وأنت الخبير والعارف بالناس، الأسئلة نفسها الفارغة التي يستطيع الآخرون طرحها. نصفها يُنسب إلى ما لم يحن وقته بعد. ما فائدة مثل هذا الفضول؟ استفسار واحد فقط ذكي وجدير بك، ووددتُ لو طرحه عليّ الآخرون أيضاً، على الرغم من أنني لا أعرف ما إذا كنت سأتمكن من الإجابة عليه بذكاء – والسؤال تحديداً هو: لماذا أبطال أعمالي الأخيرة، ولا سيما «النفوس الميتة»، مع إنها بعيدة عن أنْ تكون صوراً لأشخاص حقيقيين، ومع كونها في حدّ ذاتها ميزات غير جذابة تماماً، لا يُعرف سبب قربها من الروح، كما لو أنّ بعض الظروف الروحية قد شاركت في تكوينها؟ قبل عام، كنت سأشعر بالحرج من الرد على هذا السؤال حتى لك. الآن سأقول كل شيء بصراحة: أبطالي قريبون من الروح لأنهم نابعون من الروح؛ وجميع كتاباتي الأخيرة هي تاريخ روحي الشخصي. ولكي أشرح هذا كله بشكل أفضل، سأعرّف نفسي لك ككاتب. لقد تحدث البعض كثيراً عني، وحلّلوا بعض جوانبي، لكنهم لم يحددوا حقيقتي الرئيسة. بوشكين وحده أحسّ بها. لقد كان دائماً يقول لي إنه لا يوجد كاتب واحد لديه هذه الموهبة لفضح ابتذال الحياة بشكل واضح، ويقدر على أنْ يصف بمثل هذه القوة فُحشَ الإنسان المبتذَل، إلى درجة تومض معها في عيون الجميع هذه التفاهة كلها التي تنسلّ من العيون. هذه هي ميزتي الرئيسة، والتي أتميّز بها وحدي والتي، بالتأكيد، لا يمتلكها الكتّاب الآخرون. وقد تعمّقت في داخلي لاحقاً بقوة أكبر من ارتباطها بظروف روحية معينة. لكنّي لم أتمكن من الكشف عن هذا في ذلك الوقت حتى لبوشكين.

ظهرت هذه السمة بقوة أكبر في «النفوس الميتة». لم تُخِف «النفوس الميتة» روسيا بهذا الشكل وتثير هذه الضجة بداخلها لأنها كشفت عن بعض من جروحها أو أمراضها الداخلية، وليس لأنها قدمت صوراً مذهلة للشرّ المنتصر والبراءة المعذّبة. كلا، على الإطلاق. أبطالي ليسوا أشراراً البتة؛ فلو أضفتُ ميزة جيدة واحدة فقط إلى أيٍّ منهم، لكان القارئ قد تصالح معهم جميعاً. ولكن الابتذال كله مجتمعاً قد أخاف القراء. لقد أخافتهم حقيقة أنّ أبطالي مبتذلون واحداً تلو الآخر، وابتذال الأول منهم أكثر من التالي، وأنه لا توجد ظاهرة واحدة مشجّعة، ولا توجد ثمة فقرة يمكن أنْ يرتاح فيها القارئ المسكين أو يلتقط أنفاسه، وبعد قراءة الكتاب كله يبدو كما لو أنه خرج من أحد الأقبية الخانقة إلى نور الله. ربما، كانوا سيغفرون لي لو أنّي عرضت مسوخاً مسرحية؛ لكنهم لم يغفروا لي الابتذال. الإنسان الروسي يخاف من هوانه أكثر مما يخاف من كل رذائله وعيوبه. وهذه الظاهرة رائعة! إنه الخوف الجميل! الذي يوجد فيه مثل هذا النفور الشديد من كل ما هو تافه، وهذا يتضمن، حقاً، كل ما هو مضاد للتفاهة. لذا، هذه هي ميزتي الرئيسة؛ ولكن هذه الميزة، أقول مرة أخرى، لم تكن لتتطور بداخلي بهذه القوة لو لم يندمج معها ظرفي الروحي وتاريخي الروحي. لم يعرف أيّ واحد من قرائي أنه، عندما يضحك على أبطالي، إنما

يضحك عليّ أنا.

لم تكن في داخلي رذيلة قوية يمكن أن تظهر بشكل أكثر سطوعاً من رذائلي الأخرى كلها، تماماً كما لم تكن ثمة فضيلة فاتنة يمكن أن تمنحني مظهراً فاتناً؛ ولكن من ناحية أخرى، بدلاً من ذلك، انعقدت فيّ مجموعة من كل أنواع القُبح الممكنة، قليل من كل نوع، علاوة على ذلك بمثل هذا العدد الكبير الذي لم أقابله في أي شخص من قبل. لقد أعطاني الله طبيعة متعددة الجوانب. كما وضع في روحي، منذ ولادتي، العديد من الصفات الحميدة؛ لكن أفضلها، والتي لا أعرف كيف أشكره عليها، هي **الرغبة في أن أكون الأفضل**. ما أحببتُ صفاتي السيئة قَط، ولولا أنّ حب الله السماوي أمرها بالانكشاف أمامي تدريجياً وشيئاً فشيئاً، بدلاً من أنْ تنكشف فجأة ومرة واحدة أمام عيني، لكنتُ شنقتُ نفسي في ذلك الوقت الذي لم أدرك فيه بَعد شيئاً عن مدى رحمة الله التي لا حدّ لها. عندما بدأت تنكشف، زادت الرغبة في داخلي للتخلص منها بإيحاءٍ سامٍ مذهِل؛ ومن خلال حادثة روحية غير عادية توجهتُ لنقلها إلى أبطالي. لا ينبغي لك أنْ تعرف ما تلك الحادثة التي حدثت: لو رأيتُ فيها فائدة لأحد ما، لأعلنتُ عنها. ومنذ ذلك الحين، بدأتُ أمنح أبطالي صفاتي الدنيئة إلى جانب الأشياء السيئة الخاصة بهم. وإليك كيف فعلتُ ذلك: بعد أن أخذتُ صفاتي السيئة، تعقّبتها في رتبة مختلفة وفي مجال عمل مختلف، وحاولت تصويرها لنفسي بهيئة عدوٍّ لدود ألحقَ بي أكبر إهانة ملموسة، وطاردتها بالخبث والسخرية، وبجميع ما أمكنني. لو رأى أحدٌ من الناس الوحوش التي خرجت لي من تحت قلمي في البداية، فمن المؤكد أنه سيرتجف من الفزع. يكفي أن أخبرك أنه عندما بدأتُ أقرأ لبوشكين الفصول الأولى من «النفوس الميتة»، بالشكل الذي كانت عليه قبل التعديل، بدأ التجهم ينتاب بوشكين، الذي طالما ضحك أثناء قراءتي (كان يهوى الضحك)، شيئاً فشيئاً وفي النهاية تجهّمَ تماماً. عندما انتهيتُ من القراءة، قال بصوت حزين: «يا إلهي، كم هي حزينة بلادنا، روسيا!» لقد أدهشني هذا. بوشكين، الذي كان يعرف روسيا جيداً، لم يلاحظ أنّ هذا كله عبارة عن صور كاريكاتورية وكلها من ابتداعي الشخصي! عندئذ رأيتُ معنى الفعل المأخوذ من الروح، ومعنى الحقيقة الروحية عموماً، وبأي طريقة مروعة للإنسان يمكن أنْ نصوّر له الظلام **وغياب النور** المخيف. ومنذ ذلك الحين، بدأت أفكر فحسب في كيفية تخفيف الانطباع المؤلم الذي يمكن أن تحدثه «النفوس الميتة». فرأيت أنّ الكثير من الأشياء السيئة لا تستحق الحقد؛ من الأفضل إظهار تفاهتها كلها، حتى يمكن التخلص منها إلى الأبد. علاوة على ذلك، كنت أرغب في تجربة ما سيقوله الإنسان الروسي بشكل عام، إذا ما قدمتُ له ابتذاله. وبسبب الخطة المُتَّخَذة منذ مدة طويلة «للنفوس الميتة» تطلّب الجزء الأول من الملحمة أشخاصاً تافهين بالذات. ومع ذلك، فإن هؤلاء الأشخاص التافهين ليسوا على الإطلاق صوراً لأناس تافهين؛ بل على العكس من ذلك، اجتمعت فيهم

ميزات من أولئك الذين يعدّون أنفسهم أفضل من الآخرين، بالطبع، في شكلٍ خُفِضت فيه الرتبة من جنرالات إلى جنود. وقد وضعتُ فيهم، بالإضافة إلى ميزاتي الشخصية، حتى ميزات من العديد من أصدقائي، وهناك ميزاتك أنت أيضاً. سأريها لك لاحقاً، عندما تحتاجها؛ وسوف أبقى محتفظاً بهذا السرّ حتى وقت معيّن. كنت بحاجة إلى أن آخذ من جميع الأشخاص الرائعين الذين أعرفهم، كل شيء مبتذل وقبيح، قد اختطفوه عن طريق الخطأ، وأعيده إلى أصحابه الشرعيين. لا تسأل لماذا يجب أن يكون الجزء الأول مبتذلاً ولماذا يجب أن تكون جميع الوجوه فيه مبتذلة: المجلدات الأخرى ستمنحك الإجابة – هذا كل شيء! الجزء الأول، على الرغم من كل عيوبه، فعلَ الشيء الرئيس: لقد غرس في الجميع الاشمئزاز من أبطالي ومن تفاهتهم؛ ونقل بعض الوحشة الضرورية لي من أبطالي أنفسهم. في الوقت الحالي، هذا يكفي بالنسبة لي؛ ولن أسعى للبحث عن غيرهم. وبالطبع، كان هذا كله سيصبح أفضل لو لم أستعجل في إصداره للجمهور، وعالجته بشكل أحسن. ما زال أبطالي غير منفصلين تماماً عني شخصياً، وبالتالي لم يحصلوا على استقلال حقيقي. ولم أوَطّنهم بعد بشكل وثيق في الأرض التي كان من المفترض أن يكونوا عليها، ولم يدخلوا دائرة عاداتنا، ويحيطوا أنفسهم بجميع ظروف الحياة الروسية الحقيقية. وحتى الكتاب كله ليس سوى «طفل صغير»؛ لكن روحه انتشرت بشكل غير مرئي، وقد يكون ظهوره المبكر للعلن مفيداً لي لأنه سيشجع قرّائي على الإشارة إلى جميع الأخطاء الفادحة المتعلقة بالنظام العام والخاص داخل روسيا. وليتك، بدلاً من تقديمك لتلك الأسئلة الفارغة (التي قمت بحشوها بنصف رسالتك والتي لا فائدة تُرجى منها، باستثناء إرضاء بعض الفضول العقيم)، وجمعتَ معاً تلك الملاحظات الجيدة على كتابي، سواء ملاحظاتك أو ملاحظات الأذكياء الآخرين من أمثالك المشغولين بالحياة التجريبية والعملية، وأضفتَ إلى ذلك الكثير من الحوادث والطُرَف التي حدثت في منطقتك وفي المقاطعة كلها والتي تؤكد أو تدحض كل حالة في كتابي والتي يمكنك أنْ تسطّر منها عشرات الصفحات – لكنتَ فعلتَ عملَ خيرٍ، ولكنتَ عبّرت لك عن شكري الجزيل. وكم كانت ستتوسع آفاقي من هذا! وكم يمكن أن ينتعش فكري وكم سيكون عملي ناجحاً! لكن ما أطلبه، لا أحد يحققه: لا أحد يعدّ طلباتي مهمة، بل الجميع يحترمون طلباتهم فقط؛ وحتى إنّ البعض يطلب مني نوعاً من الصدق والصراحة، من دون أنْ يفهم هو نفسه ما يطلبه. لماذا هذا الفضول الفارغ لمعرفة المستقبل وهذا التسرّع الفارغ الذي لا يؤدي إلى أيّ شيء، والذي، كما ألاحظ، بدأت عدواه تنتقل إليك أنت أيضاً؟ انظر كيف يجري كلُّ شيء في الطبيعة برصانة وحكمة، في قانون متناغم، وكيف ينطلق كل شيء بذكاء، واحداً بعد الآخر! نحن وحدنا نتعجّل الأمور، الله يعلم لماذا. فالجميع مستعجلون. الجميع هائجون. يا ترى، هل وزنتَ كلماتك بعناية حين قلتَ: «المجلد الثاني مطلوب الآن بشكل مُلِحّ»؟ إنك بهذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تريدني، برغم وجود الاستياء العام ضدي، أن أسرع في إصدار المجلد الثاني بنفس الحماقة التي أسرعتُ بها في إصدار المجلد الأول. هل جُننتَ حقاً؟ السخط هو ما أحتاجه؛ الإنسان في حالة السخط، سيخبرني على الأقل بشيء ما. ثم كيف استنتجتَ أنّ المجلد الثاني مطلوب الآن؟ هل تسلّلتَ إلى رأسي؟ هل شعرتَ بوجود المجلد الثاني؟ حسب رأيك هناك حاجة إليه الآن، وفي رأيي، ليس قبل سنتين أو ثلاث سنوات، بالإضافة إلى مراعاة مرور الظروف والوقت. مَن منا على حق؟ هل الشخص الذي لديه المجلد الثاني في رأسه، أم الشخص الذي لا يعرف حتى مم يتكون المجلد الثاني؟ يا لها من تقليعة غريبة بدأت الآن في روسيا! الرجل نفسه كسول في عمله ومستلقٍ على جنبه لا يفعل شيئاً، وفي الوقت نفسه يحث الآخر على الاستعجال، كما لو أنّ الآخر مُلزَم أن يفرح بكل ما وسِعه لأن صديقه مستلقٍ على جنبه ولا يفعل شيئاً. ما أن يلاحظ الناس شخصاً واحداً قد تولى بجدية عملاً ما، حتى يندفعون إليه من جميع الجهات ليستعجلوه، ثم بعد ذلك يلومونه إذا ما فعله بغباء – ويقولون له: «لماذا تستعجل؟». ها أنا، أنهي درسي لك. لقد أجبتُ على سؤالك الذكي وحتى أخبرتك بشيء لم أخبر به أي شخص من قبل. ومع ذلك، لا تعتقد، بعد هذا الاعتراف، أنني قبيح مثل أبطالي. كلا، أنا لا أشبههم. إني أحب الخير، أطلبه وأتحفّس له؛ ولكني لا أحب خساستي ولا أتمسّك بها مثل أبطالي؛ أنا لا أحب تلك الدناءة التي تعزلني عن الخير. إنّي أحاربها، وسأبقى أحاربها، وسأطردها، وسوف يساعدني الله في ذلك. وهذا الهراء الذي أطلقه المتحذلقون الدنيويون الأغبياء، من أنّ الإنسان لا يستطيع أن يربي نفسه إلا في مرحلة الدراسة، وبعد ذلك، لا يمكنه أنْ يغيّر صفاته الشخصية: إنّ هذه الفكرة الغبية لا توجد إلا في رأس شخص دنيوي غبي. لقد تخلصت بالفعل من العديد من صفاتي السيئة من خلال تمريرها إلى أبطالي، وسخرتُ منها فيهم وجعلتُ الآخرين يضحكون منها أيضاً. لقد تخلصتُ بالفعل من العديد من الصفات بعد أن أزحت المظهر الخلاب وقناع الفارس، الذي تكمن تحته جميع الرجاسات، ووضعتها بجانب تلك الدناءة المرئية للجميع. وعندما أجبر نفسي على الاعتراف إلى الله الذي أمرني أن أكون في هذا العالم وأمرني أن أتخلص من عيوبي، أرى الكثير من الرذائل في نفسي. لكنها لم تعد كما كانت في العام الماضي: ساعدتني القوة المقدسة على التخلص منها. وأنصحك ألا تتجاهل هذه الكلمات، بل بعد قراءة رسالتي، ابق وحدك لبضع دقائق، وانفصل عن كل شيء، والق نظرة جيدة على نفسك، واستعرض حياتك كلها أمامك، من أجل التحقق من صدق كلامي. في هذه الإجابة نفسها ستجد الردّ على الاستفسارات الأخرى، إذا ألقيتَ نظرة فاحصة. وسيتضح لك أيضاً سبب عدم عرضي لحدّ الآن الظواهر التي تطمئن القارئ، ولماذا لم أختر الأشخاص الفاضلين ليكونوا أبطالي. لا يمكنك اختراع الأبطال من ذهنك. إذا لم تتشبه بأبطالك إلى حدّ ما على الأقل، وإذا لم تتصرف بحماقة، ثم تكسب بالقوة بعض

الصفات الحسنة وتلحقها بروحك، فإن كل ما يكتبه قلمك سيكون عبارة عن ميتة، وسيبقى بعيداً عن الحقيقة بُعدَ الأرض عن السماء. إنّي لم أخترع هذه الكوابيس. الكوابيس هي التي ضغطت على روحي: وما كان في روحي خرج منها.

1843

-4-

إنّ حرقي للمجلد الثاني من «النفوس الميتة» كان حالة ملحة جداً. يقول الرسول بولس: «الّذِي تُزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ». يجب على المرء أن يموت أولاً حتى يقوم للبعث. لم يكن من السهل عليّ أنْ أحرق جهدي الذي أمضيت خمس سنوات لكي أنتجه في ظل هذه التوترات المؤلمة، والذي كل سطر فيه كان بمثابة صدمة، والذي أودعتُ فيه الكثير مما يشكل أفضل أفكاري ويشغل روحي. لكن كل شيء احترق، علاوة على ذلك، في اللحظة التي رأيت فيها الموت أمامي. كنتُ أود حقاً أن أترك ورائي على الأقل شيئاً من شأنه أن يُذَكِّر بي بشكل أفضل. أحمدُ الله لأنه منحني القوة لفعل ذلك. بمجرد أن أخذت النيران آخر أوراق كتابي، انبعثت في محتوياته فجأة من جديد بشكل نقي ومشرق، مثل طائر الفينيق(42) الذي ينبعث من النار، وفجأة رأيتُ كيف كان في حالة من الفوضى ما كنتُ أحسبه لائقاً ومنظماً. إنّ ظهور المجلد الثاني بالشكل الذي كان عليه، كان من شأنه أن يضر أكثر مما ينفع. من الضروري أن نأخذ في الاعتبار ليس متعة أيٍّ من محبي الفن والأدب، بل القراء كلهم الذين كتبتُ لهم «النفوس الميتة». إن إخراج بعض الشخصيات الجميلة التي تكشف عن النبل العالي لقومنا لن يؤدي إلى أيّ نفع. لن يثير سوى الكبرياء الفارغ والتفاخر. بدأ الكثيرون في بلادنا وما زالوا، ولاسيما بين الشباب، يتباهون كثيراً بالمروءة الروسية ولا يفكرون على الإطلاق في التعمق بها وتربية النفس عليها، بل لمجرد الاستعراض بها وأنْ يقولوا لأوروبا: «انظروا، أيها الألمان: نحن أفضل منكم!» هذا التفاخر يدمر كل شيء. إنه يزعج الآخرين ويؤذي المتفاخر نفسه. ويمكن أنْ يتحوّل أفضل عمل إلى قذارة إذا كنتَ تتباهى به وتفاخِر فحسب. ولكن الناس لدينا يتفاخرون بالعمل قبل أنْ يؤدوه! يتفاخرون بالمستقبل! كلا، بالنسبة لي، الشجن المؤقت والوحشة من الذات أفضل من الغطرسة في النفس. في الحالة الأولى، سيرى الإنسان، على الأقل، حقارته وتفاهته الدنيئة، ومن دون إرادته سوف يتذكر الله، الذي يرفع كل التفاهة ويُخرجها من الأعماق؛ وفي الحالة الأخرى، سيهرب من نفسه ليقع مباشرة في يد الشيطان، أبي الغطرسة، الذي بنفثة من كبريائه يجعل الإنسان متكبراً. كلا، هناك وقت يستحيل فيه توجيه جماعة أو حتى جيل بأكمله نحو الجمال بأي طريقة، ما لم تُظهر عمق الرجس الحقيقي كاملاً؛ وهناك أوقات لا ينبغي فيها حتى

الحديث عن العظمة والجمال، من دون أن تظهر في الحال المسالك والدروب المؤدية إليه بوضوح كوضوح الشمس في رابعة النهار. تطوّر الظرف الأخير قليلاً وبضعف في المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، وكان ينبغي أن يكون الشيء الرئيس تقريباً؛ لذلك أحرقته. لا تحكم عليّ ولا تستخلص استنتاجاتك: سوف تكون مخطئاً، مثل أصدقائي الذين، بعد أن كوّنوا مني مثالهم الخاص للكاتب، وفقاً لنموذجهم الشخصي في التفكير حول الكاتب، بدؤوا يطالبونني أنْ أردّ على المثل الأعلى الذي صنعوه. لقد خلقني الله ولم يخفِ عني الهدف المرجو مني. لم أولد لإنتاج حقبة في المجال الأدبي. عملي أبسط وأقرب: عملي عبارة عن شيء يجب التفكير فيه أولاً على كل شخص، وليس عليّ وحدي. عملي هو الروح والفعل الراسخ للحياة. وبالتالي يجب أن تكون صورة أفعالي راسخة، ويجب أن أؤلف بشكل راسخ. لا داعي لأن أتسرّع؛ دع الآخرين يستعجلون! أحرقْ عندما تستوجب الحالة الحرق، وبالتأكيد أفعل ما ينبغي فعله، لأنني بدون الصلاة لا أقترب من فعل أيّ شيء. لا داعي لمخاوفك بشأن صحتي الواهنة، التي ربما لن تسمح لي بكتابة المجلد الثاني. صحيحٌ أنّ صحتي واهنة جداً. أحياناً أشعر بألم شديد للغاية لدرجة أنني لولا الله ما كنت أتحمله. وبالإضافة إلى الإعياء ووهن القوة أشعر بالبرودة لدرجة لا أعرف معها كيف أتدفأ وبماذا: يجب عليّ أنْ أتحرّك، ولكن ليس لديّ القوة التي تمكنني من الحركة. بالكاد أستطيع الخروج ساعة في اليوم للعمل، وهذا ليس دائماً. لكنّ أملي لم يتضاءل قيد أنملة. الله الذي من خلال المحنة والأمراض والعقبات عجّلَ في تطوير قوتي وأفكاري التي بدونها ما كنت لأخطط عملي، والله، الذي طور أكثر من نصف العمل في رأسي سيعطيني القوة لأكمل بالباقي – أي أنْ أسطّره على الورق. إني هرِم في الجسد، لكن ليس في الروح. في روحي، على العكس من ذلك، كل شيء أقوى وأكثر صلابة؛ وستكون لديّ قوة في الجسد. وإنّي واثق أنه إذا ما حان الوقت المحدد، فسأحقق في بضعة أسابيع ما أمضيت عليه خمس سنوات مؤلمة.

1846

الموضوع التاسع عشر

يجب أن نحب روسيا

(من رسالة إلى الكونت أ. ب. تـ...وي)

لا يمكن لأحد أنْ يحقق الخلاص بدون حب الله؛ ولكنك ليس لديك حب لله. ولن تجده في الدير الكهنوتي؛ فالدير يذهب إليه مَن دعاه الله بنفسه إلى هناك. وبدون مشيئة الله لا يمكنك أن تحب الله. إذ كيف يستطيع المرء أنْ يحب من لم يره أحد؟ بأية صلاة وبأيّ جهد يُستَجدى منه هذا الحب؟ انظر كم من الناس الطيبين والرائعين الموجودين الآن في العالم يجاهدون بشدة من أجل هذا الحب ولا يسمعون سوى القسوة والفراغ البارد في أرواحهم. فمن الصعب أنْ تحبّ مَن لم يره أحد من قبل. المسيح وحده الذي جلب لنا سراً مفاده أننا في محبة الإخوة ننال محبة الله وكشف هذا السرّ لنا. يجب على المرء أن يحبهم بالطريقة التي أمر بها المسيح فقط، وستظهر محبة الله بنفسه في النهاية. اذهب إلى العالم وامتلك الحب أولاً لإخوتك.

ولكن كيف نحب الإخوة وكيف نحب الناس؟ فالروح تريد أن تحب الجمال وحده، بيد أنّ الفقراء ليسوا كاملين والجمال فيهم قليل! إذاً، كيف تفعل هذا؟ أولاً وقبل كل شيء، اشكر الله لكونك روسياً. فهذا المسار مفتوح الآن للروس، وهذا الطريق هو روسيا نفسها. إذا ما أحبّ الروسي روسيا، فسوف يحب كل شيء في روسيا. الله نفسه يقودنا الآن إلى هذه المحبة. ولن يشعر أيّ أحد منا بالتعاطف معها بدون الأمراض والمعاناة، التي تراكمت بداخلها بهذا الحجم الكبير، والتي نُلام عليها نحن بالذات. والتعاطف هو بداية الحب. إن الصرخات على انتهاك القانون والكذب والرشاوى – ليس مجرد سخط من الناس النبلاء ضد غير الشرفاء، بل صرخة الأرض كلها، التي شعرت بأن الأعداء الغرباء هجموا بأعداد لا حصر لها، وانتشروا في المنازل وألقوا نيراً ثقيلاً على كل شخص؛ وحتى أولئك الذين استقبلوا طواعية في منازلهم أعداء الروح الرهيبين هؤلاء، يريدون الآن تحرير أنفسهم منهم، ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك، فاندمج كل شيء في صرخة واحدة مذهلة، وتحرك من دون شعور. ولكن الحب المباشر لم يُحَسّ بعد في أي شخص – وأنت أيضاً لا تملكه. إنك لا تحب روسيا بعد: إنك تعرف فقط كيف تحزن وتغضب من الشائعات حول كل شيء سيئ يحدث فيها. وكل هذا لا ينتج عنه فيك سوى خيبة الأمل القاسية والقنوط فحسب. كلا، هذا ليس حباً بعد، فأنت بعيد عن الحب، ربما، يكون هذا مجرد نذير لا يزال بعيداً جداً عن الحب. كلا، إذا ما أحببتَ روسيا حقاً، فستختفي هذه الفكرة القصيرة البصر التي نشأت الآن لدى العديد من الأشخاص الصادقين وحتى الأذكياء جداً، والتي مفادها

أنه في الوقت الحاضر لم يعد بإمكانهم فعل أيّ شيء من أجل روسيا وكأنْ روسيا لم تعد بحاجة لهم على الإطلاق؛ بل الأمر على العكس، حينئذٍ فقط ستشعر بكل قوتك أنْ الحب قادر على كل شيء ويمكن أنْ يُفعل من خلاله كل شيء. كلا، إذا ما أحببتَ روسيا حقاً، فستكون حريصاً على خدمتها؛ واذهب ليس بصفتك محافظاً، بل نقيباً في الشرطة، وخذ أبسط وظيفة، كيف ما تجدها، بشرط أنْ تفضّل مثقال ذرة من العمل فيها على كل حياتك الحالية الخاملة والعقيمة. كلا، أنت لا تحب روسيا بعد. وإذا لم تحب روسيا، فلن تحب إخوتك، وإذا كنت لا تحب إخوتك، فلن تحترق شوقاً بحب الله، وإذا لم تحترق شوقاً بحب الله، فلن تجد الخلاص.

1844

الموضوع العشرون

ينبغي السفر إلى جميع أنحاء روسيا

(من رسالة إلى الكونت أ. ب. ت...وي)

لا توجد مرتبة سامية، مثل الرهبنة، وليمنحنا الله بعض الوقت لنرتدي رداء الراهب البسيط، كما تشتهي روحي. وإنّ مجرد التفكير في هذا يُشعرني بالفرح. لكن هذا لا يمكن أن يحدث بدون دعوة من الله. للحصول على حق الابتعاد عن العالم، يجب أن يكون المرء قادراً على توديع العالم. «وزِّع ممتلكاتك كلها على الفقراء ثم اذهب إلى الدير» – هكذا يقال لكل من يذهب إلى هناك. أنت لديك ثروة يمكنك توزيعها على الفقراء؛ لكن ماذا عليّ أنا أن أعطي؟ ممتلكاتي ليست بالمال. ساعدني الله في جمع بعض الخير الروحي والذكي وأعطاني بعض القدرات المفيدة والضرورية للآخرين – لذلك لا بدّ لي من توزيع هذه الممتلكات على من لا يملكها، ثم الذهاب إلى الدير. بيد أنّ المرء لا يحصل على الحق في ذلك من خلال توزيع النقود فحسب. أما إذا كنتَ متعلقاً بثروتك وكان من الصعب عليك التخلي عنها، فهذا أمر آخر؛ لكنك غير متعلق بثروتك، ولم تعد الثروة الآن تمثل شيئاً لك، – إذاً، أين مأثرتك وتضحيتك؟ أم أنّك عندما تلقي شيئاً غير الضروري من النافذة يعني أنك فعلتَ الخير لأخيك، وفهمتَ الخير بالمعنى المسيحي الراقي؟ كلا، إنّ أبواب الدير المنشود مغلقة أمامك، كما هي مغلَقة أمامي. ديرك – هو روسيا! ارتدِ ذهنياً رداء الكهنوت الأسود، واحسب نفسك ميتاً بالنسبة لنفسك، ولكن ليس بالنسبة لروسيا، وابدأ بالتحرك فيها. فهي الآن تدعو أبناءها أقوى من أيّ وقت مضى. إنّ روحها تتألم، وتُسمع صرخة مرضها الروحي. يا صديقي! إما أنّ قلبك غير حساس، أو أنك لا تعرف ما هي روسيا بالنسبة للروسي. تذكر، أنه لما أصابتها نكبة، خرج الرهبان من الأديرة ووقفوا صفاً صفاً مع الآخرين لإنقاذها. مثلما حمل الراهبان أوسليبيا وبيريسفيت، بمباركة رئيس الدير نفسه، السيف المقرف بالنسبة للمسيحي، ورقدا في ميدان المعركة الدامي، لكنك لا تريد أن تأخذ مجال المواطن المسالم. وأين هذا المجال؟ – إنه في قلب روسيا. لا تثبط عزيمتك بسبب عدم قدرتك – لديك الكثير مما هو مطلوب وتحتاجه روسيا الآن. ولأنك كنتَ محافظاً في محافظتين مختلفتين تماماً، ونفّذت هذا العمل أفضل من كثيرين، على الرغم من كل نقائصك في ذلك الوقت، فاكتسبت معلومات مباشرة وإيجابية عن الأمور التي كانت تحدث في الداخل، وتعرفت على روسيا في شكلها الحقيقي. لكن ليس هذا هو الشيء الرئيس، ولن أقنعك بالخدمة بهذه الطريقة، على الرغم من معلوماتك كلها، إذ لم أرَ فيك خاصية واحدة، في رأيي، أكثر أهمية من غيرها، سوى خاصية القدرة على جعل الآخرين يعملون، من دون أنْ

تجهد نفسك بأي شيء، ومن دون أن تعمل بنفسك، وحتى يكاد المرء يراك كسولاً. إنّ كل شيء لديك كان يتحرك بسرعة وبكفاءة؛ وعندما كنتَ تُسأل في ذهول: «ما سبب ذلك؟» – كنتَ تجيب: «السبب كله يكمن في الموظفين، لديّ موظفون جيدون لا يتركون لي أنْ أعمل أي شيء بنفسي»؛ وعندما يتعلق الأمر بتقديم الجوائز، كنت دائماً تقود موظفيك في الأمام، وتنسب كل شيء إليهم، ولا شيء لنفسك. هذه هي ميزتك الرئيسة، ناهيك عن القدرة على اختيار الموظفين أنفسهم. ليس من المستغرب أن يفجّر الموظفون لديك طاقتهم كلها. حتى أنّ أحدهم انهمك في التدوين لدرجة أنه أصيبَ بالسل ومات، بالرغم من محاولتك لكفّه عن العمل. ما الذي لن يفعله الإنسان الروسي إذا ما تصرّف معه رئيسه بهذا الشكل! ثمة حاجة ملحّة الآن لخاصيّتك هذه، لاسيما في الوقت الحالي، وقت الأنانية هذا، الذي يفكر فيه كل مسؤول في كيفية وضع نفسه في المقدمة وعزو كل شيء لنفسه وحده. أقول لك إنّ روسيا اليوم بحاجة ماسة لك بخاصيتك هذه... ومِن الخطيئة بالنسبة لك ألّا تشعر بهذا! وخطيئة لي إذا لم أكشف لك هذه الخاصية. إنها أفضل ما لديك من الصفات؛ يطلبها منك مَن يفتقرون إليها، لكنك، مثل الشحيح، قد حبستها وما زلت تتظاهر بالصمم. لنفترض أنّ من غير اللائق لك الآن أن تأخذ الوظيفة نفسها التي شغلتها قبل عشرَ سنوات، ليس لأنك تراها أدنى من مستواك – الحمد لله، ليس لديك حب الرفعة ولا تنظر إلى أيّ وظيفة نظرة دونية، – بل لأن قدراتك، بعد أن تطورت، تتطلب مجالاً آخر أوسع. وماذا يمكنني أنْ أقول؟ ألا توجد وظائف ومجالات كافية في روسيا؟ انظر حولك والق نظرة جيدة، وستجدها. أنت بحاجة للسفر إلى جميع أنحاء روسيا. لقد عرفتَها قبل عشر سنوات: هذا لا يكفي الآن. في غضون عشر سنوات، تحدث الكثير من الحوادث داخل روسيا، التي لا تحدث في دولة أخرى خلال نصف قرن. لقد لاحظتَ، أنت بنفسك، أثناء إقامتك هنا، في الخارج، أنّ في العامين أو الثلاثة الأعوام الماضية بدأ الناس يخرجون من روسيا مختلفين تماماً، ولا يشبهون بشيء مَن كنتَ تعرفهم قبل وقت ليس ببعيد. لمعرفة ما هي **روسيا اليوم**، لا بدّ لك من السفر عبرها بنفسك. لا تصدق أيّ شائعات. الصحيح فحسب، أنه لم يكن ثمة مثل هذا التنوع الهائل والاختلاف في آراء ومعتقدات جميع الناس في روسيا، ولم يحدث من قبل أنّ الاختلاف في التعليم والتربية أدى إلى عزل الجميع عن بعضهم البعض وتسبّب في مثل هذا الخلاف في كل شيء. ومن خلال هذا كله اجتاحت روح القيل والقال والاستنتاجات السطحية الفارغة والشائعات الغبية والاستنتاجات الأحادية الجانب والتافهة... هذا كله ضلّلَ وأربك رأي الجميع حول روسيا لدرجة لا يجوز معها تماماً الوثوق بأي شخص. يجب أنْ تتحقق بنفسك. ينبغي عليك أنْ تسافر إلى جميع أنحاء روسيا. هذا جيد بشكل خاص للشخص الذي كان بعيداً عن روسيا مدة من الوقت وعاد بذهن صافٍ ومنتعش. سيرى الكثير من الأشياء التي لا يراها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخص الموجود في الدوامة نفسها، السريع الانفعال والحساس للمصالح الآنية الفلحة. قم برحلتك بالطريقة الآتية: أولاً وقبل كل شيء، تخلص من كل رأي من آرائك حول روسيا، مهما كان شأنه عندك، وتخلَّ عن استنتاجاتك الخاصة، التي كوّنتها سابقاً، تخيّل نفسك أنّك لا تعرف شيئاً على الإطلاق واذهب وكأنك تنطلق في أرض جديدة غير معروفة لك. وتصرّف مثل المسافر الروسي الذي عندما يصل إلى أيّ مدينة أوروبية مهمة يسارع لرؤية جميع آثارها ومعالمها، بالطريقة نفسها بالضبط وبفضول أكبر، عندما تصل إلى أول مركز قضاء أو مركز محافظة، حاول أنْ تتعرف على معالمها. إنها ليست في الهياكل المعمارية والآثار، بل في الناس. أقسم لك، أنّ الإنسان يستحق التمعّن فيه بفضول أكثر من التمعّن في مصنع وأطلال. حاول فقط أن تنظر إليه، مسلحاً بقطرة واحدة من الحب الأخوي الحقيقي تجاهه، وسوف لن تنقطع عنه، لأنه سيصبح ظريفاً بالنسبة لك. تعرف أولاً وقبل كل شيء على أولئك الذين يشكلون ملح كل مدينة أو منطقة؛ وهؤلاء عادة ما يكونون شخصين أو ثلاثة أشخاص في كل مدينة. سيحددون لك المدينة بأكملها في عدد قليل من الخطوط العريضة، بحيث ترى بنفسك من خلالهم أين وفي أيّ مجالات يمكنك مراقبة الأشياء المحلية بشكل أكبر؟. عندما تتحدث مع شخص طليعي من أيّ فئة (وأنت مَن يود الجميع أنْ يتحدثوا معك عن طيب خاطر ويفتحوا صدورهم لك)، ستتعلم منه ماهية كل فئة في شكلها الحالي. فالتاجر النشناش(43) واللبق سيشرح لك فجأة طبيعة فئة التجّار في مدينتهم؛ والحِرَفي المحترم والرصين سيعطيك تصوّراً شاملاً عن الحِرَفيّين. وستعرف من الموظف العملي طبيعة العمل الوظيفي، وستحس بنفسك طبيعة الصبغة العامة وروح المجتمع. لا تعتمد كثيراً على الناس الطليعيين، بل حاول أن تسأل شخصين أو ثلاثة من كل فئة. لا تنسَ أنّ الجميع الآن على خلاف مع بعضهم البعض، والجميع يكذب ويشوه بعضهم بعضاً بلا رحمة. كوّن علاقة صداقة مع رجال الدين، لأنك بشكل عام سوف تتعرف عليهم قريباً؛ وسوف تعرف الباقي منهم. وإذا ما سافرت بهذه الطريقة عبر المدن والمراكز الرئيسة فقط في روسيا، فسترى بوضوح الشمس في رابعة النهار، أين وفي أيّ موقع يمكنك أن تكون نافعاً وما الوظيفة التي يجب أن تطلبها. وسوف يمكنك فعل الكثير من الخير برحلة واحدة، إذا كنت تريد ذلك فحسب. وفي هذه الرحلة سترى مآثر مسيحية لن تجدها في الدير نفسه. أولاً، لكونك لطيفاً في الحديث وتُعجب الجميع، فسوف يمكنك، بصفتك شخصاً غريباً وجديداً، أن تصبح طرفاً ثالثاً وتُصلِح بين المتخاصمين. هل تعرف مدى أهمية ذلك، وكم تحتاجه روسيا الآن، ومدى عظمة المأثرة هذه! لقد قدّرها المخلّص أكثر من كل الأفعال الأخرى تقريباً: فهو يدعو صانعي السلام مباشرة أبناءَ الله. ومجال إشاعة السلام لدينا في كل مكان. فالجميع يتشاجرون: النبلاء لدينا يتشاجرون فيما بينهم كالقطط والكلاب؛ والتجار فيما بينهم كالقطط والكلاب؛ الحِرَفيون

فيما بينهم كالقطط والكلاب؛ الفلاحون، إذا لم تدفعهم القوة إلى العمل الودي، يتشاجرون فيما بينهم كالقطط والكلاب. وحتى الأشخاص الصادقون والطيبون على خلاف مع بعضهم البعض؛ المحتالون فقط يُرى بينهم ثمة شيء شبيه بالصداقة والتواصل عندما يتعرض أحدهم للاضطهاد بشدة. في كل مكان ثمة مجال للموفّق بين الناس. لا تَخَف، التوفيق بين الناس ليس صعباً. الصعب، هو أنْ يتصالح الناس مع بعضهم البعض بأنفسهم من دون مشاركة طرف ثالث، ولكن بمجرد أن يسعى الطرف الثالث للمصالحة بينهم، فسوف يصالحهم على الفور. هذا هو السبب في أنّ المجلس التحكيمي في بلدنا يتمتع دائماً بهذه القوة التي حققت حتى الآن نجاحاً أكبر من جميع المحاكم الأخرى. إذ توجد في طبيعة الإنسان، وخاصةً الإنسان الروسي ثمة خاصية رائعة: بمجرد أن يلاحظ أنّ شخصاً آخر ينحني بطريقة ما أو يبدي تعاطفاً معه، يكون هو نفسه جاهزاً تقريباً للاعتذار. لا أحد يريد أن يستسلم أولاً، ولكن بمجرد أن يتصرف أحدهم بشهامة ونُبل، فإنّ الآخر يتوق إلى التفوق عليه بالشهامة والنُبل. لهذا السبب يمكن إنهاء الخلاف والتقاضي المستعصي في بلادنا أسرع مما في أي بلد آخر، إذا ما وقف بين المتقاضين شخص نبيل حقاً يحترمه الجميع وخبير في شؤون القلب البشري. والمصالحة، أكرر مرة أخرى، ضرورية الآن: إنّ المصالحة بين الناس الشرفاء (الذين بسبب الاختلاف في الرأي حول شيء ما يتعارضون مع بعضهم البعض في الأفعال) تغيظ الناس السيئين والمحتالين. إذاً، هذا جزء من المآثر التي يمكنك تخيلها في كل خطوة من رحلتك في روسيا. هناك شيء آخر لا يقل أهمية. إذ يمكنك أنْ تقدم خدمة رائعة لرجال الدين في تلك المدن التي ستمر فيها، من خلال تعريفهم بشكل أفضل بالمجتمع الذي يعيشون فيه، من خلال تعريفهم على تلك الأشياء والحيل التي لا يتحدث عنها الناس الحاليون عند الاعتراف (للكاهن) على الإطلاق معتبرين أنّ من الضروري أنْ تبقى خارج الحياة المسيحية. وهذا مهم للغاية، لأن العديد من رجال الدين، كما أعلم، مستاؤون من كثرة الفظائع التي ظهرت في الآونة الأخيرة، وهم مقتنعون تقريباً أنه لا أحد يستمع إليهم الآن، وأنّ كلماتهم ومواعظهم تمرُّ مثل الهواء في الشبكة، وقد مدّ الشر جذوره بعمق لدرجة لم يعد بإمكانك حتى التفكير في استئصاله. هذا ليس عدلاً. إنّ الإنسان الحالي يخطئ، حقاً، أكثر بكثير من أي وقت مضى، لكنه لا يخطئ من كثرة فجوره، وليس بسبب عدم الإدراك أو لأنه أراد أن يخطئ، بل لأنه لا يرى خطاياه. لم تتضح بعد حقيقة القرن الحالي الفظيعة ولم يُكشف بالكامل عنها، تلك الحقيقة المتمثلة في أنّ الجميع الآن بلا استثناء يخطئون، لكنهم يخطئون ليس بشكل مباشر، بل بشكل غير مباشر. وهذا ما لم يشعر به الواعظ بعد بشكل جيد. لهذا ذهبت موعظته أدراج الرياح وصُمّ الناس عن سماع كلماته. أن تقول: «لا تسرق، دع حياة الترف، لا ترتشِ، صلِّ وتصدّق على الفقراء» – هذه الكلمات لم تعد تُحدِث تأثيراً معيناً. إلى

جانب حقيقة أنّ كل فرد سيقول: «إنّ هذا كله معروف»، – ثم يظل يبرر لنفسه، حتى يتصور نفسه شبه قديس. وسيقول: «أنا لا أسرق: ضع أمامي ساعة، قطعة نقدية ذهبية، أو أيّ شيء آخر – لن ألمسها؛ وحتى أني طردت خادمي لأنه سرق؛ أنا أعيش، بالطبع، برفاهية، لأني ليس لديّ أطفال ولا أقارب، ليس لديّ من أدخر من أجله، وحتى أنني أقدم بالرفاهية رفاهية لغيري، رزقاً للحرفيين وأصحاب المهن والتجار وأصحاب المصانع؛ وإني لا أتقاضى رشوة إلا من الأثرياء الذين يطلبون مني بأنفسهم أنْ آخذها، وهذه الرشوة لا تتسبب بضرر لأحد؛ أما الصلاة فإني أصلي، وها أنا الآن أقف في الكنيسة، أصَلّب وأركع؛ والمساعدة – أساعد: لا يمر من جانبي متسول واحد من دون أنْ يأخذ قرشاً نحاسياً، ولم أرفض التبرع مرة واحدة لأيّ مؤسسة خيرية». باختصار، إنه لا يرى نفسه بعد هذه العظة تقياً فحسب بل وسيفتخر بكونه بلا خطيئة.

ولكن إذا ما أفطث اللثام أمامه وأظهرت له على الأقل جزءاً من الأهوال التي يتسبب بها **بشكل غير مباشر** وليس بشكل مباشر، فإنه سيتحدث بشكل مختلف. أن تخبر رجلاً ثرياً أميناً ولكنه قصير النظر أنه عندما يرتب منزله ويجلب إليه كل ما يجعله يعيش حياة الترف والبذخ، فإنه يضر بالإغراء، من خلال الإيحاء بالرغبة نفسها للآخر الأقل ثراء، الذي من أجل أن لا يشعر بأنه أدنى منه، سوف لا يدمّر ممتلكاته فحسب، بل ممتلكات الآخرين أيضاً، ويسرق ويسلب الآخرين قوتهم؛ وبعد ذلك، قدم له إحدى تلك الصور الرهيبة للمجاعة داخل روسيا، التي يقف شعره منها فنتصباً، والتي ربما لم تكن لتحدث لو لم يكن قد بدأ يعيش حياة الترف والبذخ، ولم يمارس دوره المؤذي في المجتمع ولم يُثِر الآخرين. واعرض تلك الصور بالطريقة نفسها لجميع المتأنقات الحريصات على اتباع الموضة اللائي لا يحببن الظهور في أي مكان في الفساتين نفسها، واللائي قبل أن يبلين ملابسهم يَخِظنّ أكواماً من الملابس الجديدة ويُتابعن أدنى تغييرات في الموضة، – واظهِر لهنّ أنهنّ لسن مخطئات على الإطلاق لأنهنّ يمارسن هذه الأعمال الباطلة وينفِقنّ المال عليها، بل هنّ مخطئات لأنهنّ جعلن أسلوب الحياة هذا ضرورة للأخريات، وجعلنّ زوج امرأة أخرى بسبب هذا يأخذ رشوة من أخيه الموظف (لنفترض أنّ هذا الموظف كان ثرياً؛ ولكن من أجل أن يُقدّم الرشوة، كان عليه أن يقبل بالعيش بثراء أقل، وهذا الموظف من جانبه، ضغط على موظف آخر أو ضابط شرطة، فتحتّمَ على ضابط الشرطة من دون إرادته أنْ يسرق الفقراء والمعدَمين)، وبعد ذلك اعرض على عاشقات الموضة صورة الجوع. عندئذ لن يُفكّرن في قبعة أو فستان فاخر؛ سيَرَيْنَ أنه لن تنقذهن من الإجابة الرهيبة أمام الله تلك النقود التي يُلقينها للمتسول ولا حتى تلك المؤسسات الخيرية التي يُقمنها في المدن على حساب المقاطعات المنهوبة. كلا، الإنسان ليس عديم الإحساس، فهو سوف يتحرك بمجرد أنْ تُريه الأمر على حقيقته. وسوف يتحرك الآن أكثر من أي وقت مضى، لأن طبيعته قد زُقّفت،

ونصف خطاياه – بسبب الجهل وليس بسبب الفجور. إنه سيقبّل الشخص الذي سيجعله ينظر إلى نفسه، مثلما يُقبّل المُخلِّص. بمجرد أنْ يميط الواعظ اللثام قليلاً ويكشف له عن واحدة على الأقل من الجرائم التي يرتكبها كل دقيقة، سوف تُشل لديه روح التفاخر بكونه بلا خطيئة؛ ولن يبرر رفاهيته بسفسطة بائسة ودنيئة، وكأنها لازمة من أجل رزق الحرفيين. سوف يدرك هو نفسه حينئذ أنْ تدمير نصف قرية أو نصف قضاء من أجل رزق النجار غامبس(44) هو استنتاج يمكن أن يتكون فقط في رأس فارغ لأحد مدبري المنازل في القرن التاسع عشر، وليس في رأس سليم لإنسان ذكي. ولكن ماذا لو كشف الواعظ عن سلسلة كاملة من تلك الجرائم غير المباشرة العديدة التي يرتكبها الإنسان من خلال طيشه وكبريائه وثقته بنفسه ويظهر الخطر الكامل للزمن الحالي، الذي يمكن فيه لكل من هبّ ودبّ أنْ يُهلك العديد من النفوس دفعة واحدة، وليس نفسه فقط، والذي يمكن فيه، حتى من دون أن يكون شريراً، أن يجبر الآخرين على أن يكونوا أشراراً وأوغاداً من خلال طيشهم فحسب؟ باختصار – إذا ما أظهر بطريقة ما مدى خطورة سلوكهم فقط. كلا، الناس لن يصموا آذانهم عن كلماته، ولن تذهب كلمة واحدة من موعظته أدراج الرياح. ويمكنك كذلك أن تقود الكثير من الكهنة إلى ذلك، عندما تخبرهم بمعلومات حول جميع الحيل التي يفعلها الناس الحاليّون التي ستلتقطها في الطريق. ومع هذا وبإمكانك أنْ تفيد ليس الكهنة وحدهم، بل وغيرهم أيضاً. الجميع يحتاج هذه المعلومات الآن.

يجب أن تُكشف الحياة للإنسان – الحياة المأخوذة من زاوية تعقيداتها الحالية، وليست السابقة، – الحياة، غير المنظورة بنظرة سطحية من إنسان دنيوي، بل الحياة التي وزنها وقيّمها المقيّم الذي نظر إليها بنظرة المسيحي السامية. إن الجهل بروسيا في وسط روسيا عظيم. يعيش الجميع في إطار تنشره المجلات والصحف الأجنبية، وليس في أرضهم. المدينة لا تعرف المدينة، والإنسان لا يعرف الإنسان؛ الناس الذين يفصل بينهم خلف جدار واحد فقط يبدون كأنّ بحاراً تفصل بينهم. يمكنك، خلال رحلتك، أنْ تُعرّفهم ببعضهم البعض وتجري معهم تبادلاً مفيداً للمعلومات، مثل التاجر النشناش، بعد أن يأخذ معلومات في مدينة ما، يبيعها بربح في مدينة أخرى، فيثري الجميع وفي الوقت نفسه يصبح هو الأكثر ثراءً بين الجميع. ستجد أمامك مأثرة بعد مأثرة في كل خطوة تخطوها، وسترى هذا بكل تأكيد! استيقظ! العشو الليلي أمام عينيك! لا تستحضر الحب لنفسك في روحك. لن تستطيع أن تحب الناس قبل أنْ تخدمهم. فأنّى للخادم أن يرتبط بسيده الذي هو بعيد عنه ولم يعمل لصالحه شخصياً بعد؟ لهذا السبب تحب الأمّ الطفلَ كثيراً، لأنها حملته في بطنها مدة طويلة، واستغلت كل شيء لصالحه وعانت من كل شيء بسببه. استيقظ! دَيرك هو روسيا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1845

الموضوع الحادي والعشرون

ماذا تعني زوجة المحافظ؟

(رسالة إلى أ. أو. مـــيا)

إني سعيد لأنّ صحتكِ أفضل؛ أما بخصوص صحتي... الأفضل أنْ نترك صحتنا جانباً؛ يجب أن ننسى صحتنا وننسى أنفسنا أيضاً. ها أنتِ، تعودين مرة أخرى إلى مركز المحافظة. يجب أن تحبيها بقوة متجددة – فهي مدينتك، وأنتِ مؤتمنة عليها، ويجب أن تكون خاصتكِ. من العبث أنْ تبدئي بالتفكير مرة أخرى في أنْ لا فائدة ترجى من وجودك فيما يتعلق بالأنشطة الاجتماعية فيها، وأنّ المجتمع فاسد فساداً فظيعاً. لقد تعبتِ فحسب – هذا كل ما في القضية. يمكن العثور على أنشطة لزوجة المحافظ في كل مكان وفي كل خطوة. وحتى أنها تمارس تأثيراً عندما لا تفعل شيئاً. أنتِ نفسكِ تعلمين أنّ الأمر لا يكمن في الجلبة التي لا داعي لها ولا في الاندفاع الأرعن نحو كل شيء. فيما يلي مثالان حيّان، ذكرتهما أنتِ بنفسك. فقد أدارت سَلَفُكِ ج***(45) مجموعةً من المؤسسات الخيرية، ومعها – أكوام من المراسلات الورقية والضجيج غير المبرّر، ومدبرات المنازل، والسكرتيرات، والسرقة، والفوضى، ووصل صِيتُ عملها الخيري إلى بطرسبورغ وتسببت في الفوضى في محافظة ك***؛ والأميرة أو***(46)، التي كانت قبلها زوجة المحافظ الأسبق في نفس مدينتك ك***، لم تُنشئ أيّ مؤسسات أو ملاجئ، ولم تُثِر ضوضاء في أي مكان أبعد من مدينتها، ولم يكن لها أيّ تأثير على زوجها ولم تدخل في أي شيء حكومي ورسمي بحت، ولكن حتى يومنا هذا لا يمكن لأحد في المدينة أن يتذكرها من دون أنْ يذرف الدموع، ولا يزال الجميع، من التاجر إلى أبسط فلاح، يرددون: «كلا، لن تكون هناك أبداً امرأة أخرى مثل الأميرة أو***!» ومَن يكرّر هذا؟ المدينة نفسها التي تعتقدين أنه لا يمكن فعل أي شيء لها، – والمجتمع نفسه الذي تعتقدين أنه فاسد إلى الأبد. وكأنْ لم يعد ثمة شيء يمكن فعله؟ إنّكِ مُتعَبَة – فحَسب! لقد تَعِبتِ لأنكِ عملتِ بانفعال شديد، واعتمدتِ كثيراً على قوّتكِ الشخصية، واستولى عليكِ حماس المرأة... أكرّرُ لكِ الشيء نفسه، كما كان مِن قَبل: تأثيركِ قوي. أنتِ الشخصية الأولى في المدينة، وسوف يُقلّدك الجميع في كل شيء حتى في آخر حلية تتزينين بها، وذلك بفضل التقليد الأعمى للموضة، وبشكل عام، تقليدنا الأعمى الروسي. سوف تكونينَ المُشرِّعة في كل شيء. إذا ما بدأتِ بتدبير شؤونك الخاصة فقط بشكل جيد، فحتى بهذا سيكون لكِ تأثير، لأنّكِ ستجبرين الآخرين أنْ يرتّبوا شؤونهم الخاصة بشكل أفضل. اطردي البذخ (حتى الآن، ليس ثمة ما ينبغي فعله)، فحتى هذا عمل نبيل، وعلاوة على ذلك، فإنه لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتطلب أي ضجة لا داعي لها أو نفقات. لا تفوّتي تجمّعاً واحداً ولا حفلة رقص واحدة، اذهبي لها لمجرد أنْ تُظهري في الفستان نفسه؛ ارتدي الفستان نفسه ثلاث، أربع، خمس، ست مرات. امدحي من الملابس الرخيص والبسيط فقط. باختصار، طاردي هذا الترف البغيض المقزز، هذا البلاء الذي حلّ بروسيا، مصدر الرشاوى والظلم والرجاسات التي لدينا. وإذا ما تمكنتِ مِن فِعل ذلك فقط، فسوف تحققين فوائد ملموسة أكثر مما حققته الأميرة أو*** نفسها. وهذا، كما ترينَ أنتِ بنفسك، لا يتطلب أيّ تبرعات، ولا يستنزف منكِ حتى الوقت. يا صديقتي، إنّكِ مُثعِبَة. من رسائلكِ السابقة، أرى أنك للبداية قد تمكنتِ من فعل الكثير من الخير (لو لم تستعجلي، لكان فعلكِ من الخيرات أكثر)، فقد انتشرت أخبارك خارج مدينة ك***؛ وقد وصل بعضها إليّ. لكنكِ ما زلتِ متسرعةً جداً، وما زلتِ مولَعة جداً، وما زلت سريعة التأثر وتؤلمكِ كل أنواع الكراهية والقذارة. يا صديقتي، تذكّري مرة أخرى كلامي، الذي تقولين إنكِ مقتنعة بصحته: أن تنظري إلى المدينة بأكملها، كما ينظر الطبيب في المستشفى. انظري هكذا، لكن أضيفي شيئاً آخر إلى هذا، وهو: اقنِعي نفسكِ أنّ جميع المرضى في المستشفى هم أهلكِ وقريبون من قلبكِ، عندئذ سيتغيّر كل شيء أمامك: سوف تتصالحين مع الناس وستعادينَ أمراضهم فقط. مَن قال لكِ إنّ هذه الأمراض مستعصية ولا علاج لها؟ أنتِ قلتِ هذا لنفسكِ، لأنّكِ لم تجدي الوسيلة لمكافحتها بين يديك. لا بأس، هل أنتِ طبيب عارف بكل شيء؟ لماذا لم تطلبي المساعدة من الآخرين؟ فهل عبثاً طلبتُ منكِ أنْ تخبريني بكل ما موجود في مدينتكِ، وأنْ تحيطينني علماً بشؤون مدينتكِ، حتى يتكون لديّ تصوّر كامل عن مدينتك؟ لماذا لم تفعلي هذا، لاسيما، وأنكِ بنفسكِ متأكدة من أنني أستطيع التأثير على أشياء كثيرة أكثر منكِ؛ وعلاوة على ذلك، إنكِ كنتِ تنسبين لي بعض المعرفة العامة بشؤون الناس، التي لا يعرفها الجميع؛ وبالإضافة إلى ذلك، أخيراً، إنّك نفسكِ تقولين إنني ساعدتُكِ في عملكِ الروحي أكثر من أي شخص آخر؟ هل تعتقدين حقاً أنني لن أتمكن من مساعدة مرضاك المستعصية أمراضهم بنفس الطريقة؟ فبعد كل شيء، قد نسيتِ أنني أستطيع أيضاً أن أصلي، ويمكن أنْ يسمع الله صلاتي، وربما، يوجه الله الهداية إلى ذهني، ويمكن لذهني الذي هداه الله أن يفعل شيئاً أفضل من العقل الذي لم يهدِه الله.

Telegram:@mbooks90

حتى الآن، قدّمتِ لي في رسائلك تصورات عامة فقط عن مدينتك، والتي يمكن، بشكل عام، أنْ تُنسب إلى أي مدينة من مدن المحافظات؛ ولكن حتى تصوراتكِ العامة ليست كاملة. فقد كنتِ تأملين أنّي أعرف روسيا معرفة كاملة ودقيقة؛ ولكنّي لا أعرف شيئاً مما يجري فيها الآن على الإطلاق. وحتى إذا ما كنتُ أعرف شيئاً ما، فقد تغير هذا الشيء منذ وقت مغادرتي. فقد حدثت تغييرات كبيرة في تكوين إدارة المحافظات: إذ خرجت العديد من الوظائف وخرج العديد من الموظّفين عن التبعية إلى المحافظ وصارت تابعة إلى إدارات ومديريات الوزارات

الأخرى؛ ودخل في التبعية للمحافظ موظفون جُدد ووظائف جديدة، باختصار – المحافظة ومركز المحافظة صارا في جوانب عديدة يختلفان نسبياً، وقد طلبتُ منك أنْ تُطلعيني بشكل كامل على الموقف عندك، ليس من الناحية **المثالية**، بل من الناحية **الحقيقية**، حتى أتمكن من رؤية كل ما يحيط بك من صغير الأمور إلى كبيرها.

أنتِ نفسكِ تقولين إنكِ خلال إقامتكِ القصيرة في مدينة ك*** عرفتِ روسيا أكثر مما عرفتِها طوال حياتك السابقة بأكملها. لماذا لم تشاركيني معرفتك؟ وتقولين إنكِ لا تعرفين حتى من أين تبدئين، وإن الكثير من المعلومات التي رتَّبتِها في رأسكِ لا تزال في حالة من الفوضى (سبب الفشل الرئيس). سأساعدكِ على ترتيبها، بشرط أنْ تلبي الطلب الذي يلي بعدها بأكبر قدر ممكن من الإخلاص، – ليس بالطريقة التي اعتادت على تنفيذها أختك في الله – المرأة المتحمسة التي تترك ثماني كلمات من كل عشر كلمات وتجيب على كلمتين اثنتين فقط، لأنهما بطريقة ما راقتا لها، بل بطريقة أخيك في الله – الرجل الفاتر غير المتحمس، أو الأفضل، بطريقة الموظف العملي الذكي الذي، من دون أن يروق له أي شيء، يجيب بالضبط على النقاط كلها.

يجب عليكِ من أجلي أن تبدئي من جديد في التمعن في مركز المحافظة. أولاً، يجب أن تذكري لي جميع الشخصيات الرئيسة في المدينة بأسمائهم وألقابهم وكناهم وجميع الموظفين. فإنني بحاجة إلى هذا. ينبغي لي أن أكون صديقاً لهم تماماً مثلما ينبغي لكِ أنْ تكوني صديقةً لهم جميعاً، بدون استثناء. ثانياً، يجب أن تكتبي لي بالضبط عن ماهية وظيفة كل واحد منهم. وهذا كله ينبغي أنْ تعرفيه منهم شخصياً وليس من أي شخص آخر. وعندما تتحدَّثين مع كل واحد، يجب أن تسأليه عن طبيعة وظيفته، حتى يخبرك بكل **حيثياتها** ويوضح لك **حدودها**. سيكون هذا هو السؤال الأول. ثم اطلبي منه أن يشرح لكِ بالضبط ما الذي يمكنه فعله بهذه الوظيفة وما مقدار الخير الذي يمكن أنْ يقدمه من خلال الوظيفة في ظل الظروف الحالية. سيكون هذا هو السؤال الثاني. ثم، ما هو الشرّ بالضبط الذي يمكن فعله في هذه الوظيفة بالذات وما مقداره. سيكون هذا هو السؤال الثالث. وبعد أن تعرفي ذلك، اذهبي إلى غرفتك وعلى الفور سطّري لي على الورق هذا كله. ستفعلين من خلال هذا أمرين في وقت واحد: بالإضافة إلى إعطائي وسيلة يمكنني أن أنفعك من خلالها لاحقاً، ستتعلمين بنفسك من إجابات الموظف الذاتية كيف يفهم وظيفته، وماذا ينقصه، باختصار – من خلال جوابه سيقدم لك صورة عن نفسه بنفسه. وحتى أنه يمكن أنْ يقودك إلى فعل شيء ما الآن... ولكن ليس هذا هو الهدف: من الأفضل عدم التسرع قبل الوقت؛ لا تفعلي أيّ شيء حتى لو كنتِ تعتقدين أنه يمكنك فعل شيء وأنّ بإمكانكِ المساعدة بشيء ما. من الأفضل أنْ تُلقي نظرة فاحصة أخرى؛ حتى تقتنعي بنقلها إليّ. ثم اكتبي في الصفحة نفسها، مقابل المكان نفسه أو على ورقة أخرى – ملاحظاتك الخاصة التي لاحظتِها

عن كل رجل على وجه الخصوص، وما يقوله الآخرون عنه، باختصار – كل ما يمكن إضافته عنه من الخارج.

ثم أعطيني مثل تلك المعلومات عن النصف النسوي من مدينتك. لقد كنتِ ذكية جداً لدرجة أنك قمتِ بزيارات لهنّ جميعاً وعرفتِهنّ جميعاً تقريباً. ومع ذلك، لم تعرفيهنّ حقَّ المعرفة – أنا متأكد من ذلك. إذ إنّكِ، فيما يخص النساء، تهتدين بالانطباعات الأولى: ومَن لم تعجبكِ تتركينها. إنكِ تبحثين عن النخبة وعن الأفضل. يا صديقتي! سألومكِ على هذا الفعل. يجب أن تحبي الجميع، لا سيما أولئك اللائي فيهنّ سوء أكثر من غيرهنّ، – على الأقل تعرّفي عليهم أكثر، لأن الكثير يعتمد على هذا، ويمكن أن يكون لهنّ تأثير كبير على أزواجهنّ. لا تتعجّلي ولا تتسرعي في إرشادهنّ، ولكن استوضحي منهنّ فحسب؛ فأنتِ لديكِ موهبة السؤال. لا تكتفي بمعرفة شؤون وأنشطة كل واحدة منهنّ فقط، بل حاولي أنْ تكتشفي منهنّ طريقة التفكير والأذواق وماذا يحببنّ وما يثير إعجابهن، وما هو الموضوع المحبّب لكل واحدة منهنّ. أحتاج هذا كله. في رأيي، كي يستطيع المرء مساعدة شخص ما، ينبغي له التعرّف عليه حق المعرفة، وبدون ذلك لا أفهم حتى كيف يمكن لأحدهم أن ينصح شخصاً آخر. أيّ نصيحة، مهما كان نوعها، يصعب على المتلقي قبولها، ولن تكون سهلة عليه أو مريحة له. باختصار، صِفي لي النساء وصفاً شاملاً! حتى أكوّن تصوّراً كاملاً عن مدينتك.

وبالإضافة إلى الأشخاص وطباعِهم من كلا الجنسين، اكتبي عن كل حادثة جرت ويمكن لها أنْ تعطي بطريقة ما تصوّراً عن الناس أو عن روح المحافظة بشكل عام، اكتبي ببساطة ومن دون تزويق، بالشكل الذي كانت عليه، أو بالشكل الذي نقله مَن تثقين بصدقهم... اكتبي لي أيضاً للاستشهاد شائعتين أو ثلاث شائعات، من أوائل ما يصادفك، حتى أعرف نوع القيل والقال الشائع في المحافظة. واحرصي على أن تجعلي هذه الكتابة ممارسة دائمة لكِ، وأنْ تحددي لها ساعة معينة من اليوم. تخيلي في أفكارك، بشكل منهجي وكامل، حجم المدينة كله، حتى تتمكنين على الفور من معرفة ما إذا كان قد فاتك شيء لتكتبيه لي، حتى أحصل أخيراً على فهم كامل لمدينتك.

وإذا ما عرّفتِني بهذه الطريقة على جميع الأشخاص، ووظائفهم، وكيف يرونها، وأخيراً، حتى على طبيعة الحوادث نفسها التي تحدث في المدينة، فسأقول لكِ حينئذ شيئاً ما، وسوف تُزيّن أنْ الكثير من الأشياء المستحيلة يمكن فعلها، ويمكن إصلاح الكثير مما ظننتِ عدم إمكانية إصلاحه. وحتى ذلك الحين، لن أقول أي شيء على وجه التحديد لأنني قد أكون مخطئاً، ولا أريد لهذا أنْ يحدث. إنّي أود أن أقول كلاماً، من شأنه أن يقع مباشرة في المكان الصحيح، لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوق ولا تحت الموضوع الموجّه إليه، – إني أريد أنْ أقدم لك النصيحة التي يمكنك أن تقولي عنها في اللحظة نفسها: «إنها نصيحة سهلة، يمكن تطبيقها عملياً».

ولكن بقي ثمة شيء بعد، وهو ليس لك، بل لزوجك: اطلبي منه أولاً وقبل كل شيء أنْ يحرص على أنْ يكون مستشارو إدارة المحافظة من الناس المخلصين الشرفاء. فهذا الشيء مهم جداً. إذ بمجرد أن يكون المستشارون أمناء، سيكون ضباط الشرطة وأعضاء المحكمة أمناء، باختصار – سيجري كل شيء بأمانة. يجب أن تعرفي (إذا كنت لا تعرفين هذا حتى الآن) أنّ الرشوة الأكثر أماناً التي تفلت من أيّ ملاحقة هي تلك الرشوة التي يأخذها الموظف من موظف بأمر من الأعلى إلى الأدنى؛ إنها تمر أحياناً بسلّم لا نهاية له. فغالباً ما يضطر قائد الشرطة وأعضاء المحكمة إلى أنْ يخالفوا ضميرهم ويأخذوا الرشوة لأنهم يدفعون الرُشى ولأنهم يحتاجون إلى المال لدفع ثمن وظائفهم. يمكن لعمليات البيع والشراء هذه أنْ تحدث أمام الأنظار وفي الوقت نفسه لا يلاحظها أحد. ناهيك عن إمكانية ملاحقتها. حاولي فحسب أنْ يحدث كل شيء في الأعلى بأمانة، وسيكون كل شيء في الأدنى أميناً من تلقاء نفسه. ولكن قبل أنْ يتنامى الشرّ لا تضايقي أحداً؛ الأفضل التصرف في هذه الأثناء على نحو أخلاقي. إنّ فكرتك بأن المحافظ لديه دائماً الفرصة لفعل الكثير من الشرّ والقليل من الخير، وأنه في مجال الخير محدود التأثير، ليست صحيحة تماماً. إذ يمكن دائماً أن يكون للمحافظ تأثير **أخلاقي**، وحتى تأثير كبير جداً، تماماً مثلما يمكن أن يكون لديك تأثير **أخلاقي** كبير، على الرغم من أنكِ لا تتمتعين بالسلطة التي ينص عليها القانون. صدّقيني، إذا ما زار المحافظ أحد الأعيان، فستتحدث المدينة بأكملها عن هذا الأمر، وسوف يتساءلون من أجل أيّ شيء ولماذا – وهذا السيد نفسه، بسبب هذا الخوف فقط، سوف يتردد عن فعل السوء الذي يخشى فعله أمام السلطة والقانون. تصرفكما، أي تصرفكِ أنت وزوجكِ، مع قاضي مركز القضاء م***، الذي استدعيتموه عمداً إلى المدينة من أجل التوفيق بينه وبين المدعي العام، وتكريمه بمعاملة طيبة واستقبال ودود لصدقه ونبله وأمانته، – صدقيني، كان له تأثيره الإيجابي. وما أعجبني في هذه الحادثة، أنّ القاضي (الذي، كما اتضح، كان من أكثر الناس تعلماً واستنارة) كان يرتدي ملابس، كما قُلتِ، لن يُستقبل فيها في قاعات الاستقبال الرئيسة في بطرسبورغ. في هذه اللحظة أودّ تقبيل أذيال معطفه المهترئ. صدقيني، إنّ أفضل صورة للتأثير في الوقت الحاضر – هي عدم تسليح النفس بقسوة وشدة ضد المرتشين والناس السيئين وعدم ملاحقتهم، بل بدلاً من ذلك ينبغي أنْ نحاول الكشف للعيان عن كل شخص نزيه، بطريقة ودية، أمام الجميع، والشدّ على أيدي كل شخص مستقيم ونزيه. صدّقيني أنه بمجرد أنْ يُشاع في المحافظة بأكملها أنّ المحافظ يتصرف فعلاً بهذا الشكل، – فإنّ جميع النبلاء سيكونون إلى جانبه. لدى طبقة النبلاء في بلادنا

سمة مدهشة لطالما أذهلتني، إنها – الشعور بالسمؤ، وليس ذلك السمؤ الذي تلوثت به طبقة النبلاء في الدول الأخرى، أي ليس سمؤ المولد أو الأصل، وليس (47) point d›honneur الأوروبية، بل السمؤ الأخلاقي الحقيقي. فحتى في تلك المحافظات والأماكن التي إذا ما تناول فيها المرء كل نبيل على حدة، لا يجد فيه سوى الأشياء السيئة، ولو أمسك النبيل عملاً سامياً حقاً – فسيرتفع كل شيء لديه فجأة كأنما بقوة كهربائية ما، والناس الذين يفعلون أشياء سيئة سرعان ما يعملون عملاً أسمى. وبالتالي، فإنّ كل سلوك نبيل يفعله المحافظ سيجد أولاً صدًى له عند طبقة النبلاء. وهذه المسألة مهمة. لا بدّ أن يكون لدى المحافظ تأثير أخلاقي على النبلاء، ومن خلال هذا وحده يمكنه تحفيزهم على النهوض بوظائفهم غير الهامة ومواقعهم غير الجذابة. وهذا ضروري، لأنه إذا ما أمسك أحد النبلاء من تلك المحافظة موقعاً ما ليبيّن كيف ينبغي للمرء أنْ يخدم، فبغض النظر عن حقيقته الشخصية، حتى وإنْ كان كسولاً وغير صالح في نظر الكثيرين، فسوف يؤدّي عمله بشكل رائع لا يؤديه الموظف الوافد (من خارج المحافظة) أبداً، حتى لو اجتهد دهراً في دواوين الإدارات. باختصار، لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تغيب عن بالنا حقيقة أنّ هؤلاء هم نفسهم النبلاء الذين ضحوا في عام اثني عشر(48) بالغالي والنفيس وبكل ما يملكون.

عندما يُقدَّم موظف ما إلى المحاكمة بسبب ارتكاب أشياء سيئة، فمن الضروري في هذه الحالة أنْ يُقدَّم **معزولاً من عمله**. وهذا مهم جداً. لأنه إذا ما قُدِّمَ للمحاكمة **من دون العزل من الوظيفة**، فسيقف جميع الموظفين إلى جانبه طويلاً، وسوف يتلاعب مدة طويلة وسيجد وسائل لإرباك كل شيء حتى يَحول دون الوصول إلى الحقيقة. ولكن بمجرد تقديمه للمحاكمة **معزولاً عن عمله**، سوف تستولي عليه الكآبة على الفور، ولن يعد أحد يخشى سطوته وسوف تنهال الأدلة ضده من جميع الجهات، وسينكشف كل شيء للملأ، وفجأة تصبح القضية بأكملها معروفة. ولكن، يا صديقتي، أرجوكِ لا تتخلّي عن الموظف الذي طُرد من عمله على الإطلاق، مهما كان سيئاً: إنه سيئ الحظ. يجب أنْ تنتقل المسؤولية عليه من يدَي زوجكِ إلى يديكِ؛ يجب أنْ يكون تحت رعايتكِ. ولكن لا تتحدثي معه بصراحة ولا تستقبليه، بل تابعيه من بعيد. لقد أحسنتِ بطرد ناظِرة ملجأ الأمراض العقلية لأنها أرادت بيع الخبز المخصص لهؤلاء التعساء – وهي جريمة مقززة بشكل مضاعف، مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أنّ المجانين لا يستطيعون حتى الشكوى! ولذلك كان يجب أن تُطرد علناً وأمام الأشهاد. ولكن لا تتخلّي عن أي شخص، ولا تقطعي حبل العودة لأيّ أحد، وتابعي المعزولين؛ فأحياناً بسبب الحزن، وبسبب اليأس، وبسبب الشعور بالعار يرتكب جرائم أكبر. تصرّفي إمّا من خلال كاهنكِ المعرّف أو بشكل عام من خلال قس ذكي يزوره باستمرار ويعطيكِ تقريراً عنه، والأهم من ذلك، حاولي ألّا تتركيه من دون

عمل أو فعل. في هذه الحالة، لا تتشبهي بالقانون **الميت**، بل تشبهي بالإله **الحي**، الذي يصيب الإنسان بكل ويلات المصائب، لكنه لا يتركه حتى نهاية حياته. أيّاً ما كان المجرم، ولكن إذا ما كانت الأرض لا تزال تحمله ولم يضربه رعد الله، فهذا يعني أنه أُبقِيَ في الدنيا حتى يتمكن شخص ما، هزه مصيره، من مساعدته وإنقاذه. إذا كنتِ، أثناء وصف الحالات التي سوف تبدئين في إعداده لي أو أثناء بحثك الخاص عن جميع الأمراض، تندهشين جداً من جوانبنا الحزينة ويغضب قلبك لها، فأنا أنصحك بالتحدث عن هذا كثيراً مع الأسقف؛ فهو كما يتبين من كلامك، رجل ذكي وراعٍ صالح. أريه مستشفاكِ كله واكشفي أمامه عن جميع علل مرضاكِ. حتى لو لم يكن خبيراً كبيراً في علم العلاج، فيجب عليكِ بالتأكيد أن تُطلعيه على جميع نوبات الأمراض وأعراضها وظواهرها. حاولي أن تصفي له كل شيء إلى الأخير بوضوح شديد، حتى يتمثل كل شيء أمام عينيه تماماً، وحتى تستولي مدينتك على تفكيره دائماً، كشيء حيّ، مثلما هي تشغل تفكيرك باستمرار، ومن خلال هذا الشيء بالذات سوف يتوجه تفكيره ذاتياً إلى الصلاة الدائمة من أجلها. صدّقيني، إنّ من هذا المنطلق، ستتوجه موعظته أكثر فأكثر إلى قلوب مستمعيه كل يوم أحد، وسيتمكن بعد ذلك من كشف الكثير عن الحقيقة، من دون الإشارة شخصياً إلى أيّ فرد، وسيتمكنْ من مواجهة كل شخص بخساسته، حتى يتخلى الفرد بنفسه عن مصلحته الشخصية. ووجهي اهتمامكِ أيضاً إلى كهنة المدينة، وتعرّفي حتماً عليهم جميعاً؛ فكل شيء يعتمد عليهم، ومسألة تحسين أعمالنا بأيديهم وليس بأيدي أي شخص آخر. لا تهملي أياً منها، بغضّ النظر عن سذاجة وجهل الكثيرين منهم. يمكن إعادتهم إلى واجبهم بسرعة أكثر من أيّ واحد منا. نحن الدنيويّون لدينا الفخر وحبّ الرفعة وحبّ الذات والثقة الذاتية في كمالنا، ونتيجة لذلك لن يسمع أحد كلام أخيه وتوجيهاته في بلادنا، مهما كانت صحيحة، وأخيراً، لدينا أنواع اللهو... أمّا رجل الدين، بغض النظر عما هو عليه وما كان عليه، لا يزال يشعر إلى حدٍّ ما أنه يجب عليه أن يكون أكثر الناس تواضعاً وأدناهم رتبة؛ علاوة على ذلك، حتى أثناء القدّاس اليومي الذي يوجهه بنفسه، يسمع تذكيراً لنفسه، باختصار – هو أقرب منا للعودة إلى طريقه، وعندما يعود إليه بنفسه، يمكنه أن يعيدنا معه جميعاً. وبالتالي، حتى لو قابلتِ أحدهم عاجزاً تماماً، فلا تهمليه، بل تحدثي معه جيداً. اسألي كل واحد منهم عن رعيته، حتى يعطيك تصوراً كاملاً لماهية الناس في رعيته وكيف يفهمهم هو نفسه وكيف يعرفهم. لا تنسي أنني ما زلت لا أعرف ما حال الحرفيين وفئة التجار في مدينتك؛ وأمّا كونهم بدؤوا يحرصون أيضاً على اتباع الموضة وتدخين السيجار، فهذا أمر شائع؛ أحتاج إلى أنْ أتعرّف على مثال **حيّ** من بينهم، وأنْ ألقي نظرة عليه من الرأس إلى أخمص القدمين بتفاصيله كلها. لذا، اعرفي عنهم كل شيء بالتفصيل. سوف تعرفين جانباً من هذا الأمر من الكهنة، والجانب الآخر من رئيس الشرطة إذا ما أجهدتِ

نفسك في الحديث معه بشكل جيد حول هذا الموضوع، وسوف تعرفين الجانب الثالث منهم شخصياً، إذا لم تترددي في التحدث إلى أحدهم، حتى وإنْ كان ذلك أثناء خروجكِ من الكنيسة يوم الأحد. سوف تكون جميع المعلومات التي تجمعينها مفيدة في رسم **صورة نموذجية** أمامك للتاجر والحِرَفي، وما يجب أن يكون عليه حقاً؛ وستشعرين في القبيح بالمثل الأعلى الذي جعله القبيح صورة كاريكاتورية. إذا شعرت بهذا، فاستدعي الكهنة وتحدثي معهم: وأخبريهم بما يحتاجون إليه بالذات: جوهر كل عنوان، أي ما يجب أن يكون لدينا، والصورة الكاريكاتورية لهذا العنوان، أيّ ما أصبح نتيجة لسوء استخدامنا. لا تضيفي أيّ شيء آخر. سيعود إلى عقله ذاتياً، بمجرد أن يصحح حياته. إذ إنّ كهنتنا يحتاجون بشكل خاص إلى التحدث مع هؤلاء الأشخاص المستعدين. وعندئذ يكون بإمكانهم أنْ يحددوا لهم حدودَ ومسؤوليات كل رتبة ووظيفة من خلال سِمات قليلة ولكنها مشرقة ودقيقة. في كثير من الأحيان، وبسبب هذا فقط، لا يعرف بعضهم كيفية التعامل مع أبناء الرعية والمستمعين، ويعبّر عن نفسه عند الموعظة بفقرات عامة، لا يوجهها مباشرة من أيّ جانب إلى الموضوع. ادخلي أيضاً إلى حالة الكاهن الخاصة، وساعدي زوجته وأولاده إذا ما كانت أبرشيته فقيرة. ومَن كان منهم فظّاً غليظ القلب، هدديه بالأسقف؛ لكن بشكل عام حاولي أنْ تؤثّري أخلاقياً. ذكّريهم أنّ مهمتهم مخيفة جداً، وأنهم سيُسألون أكثر من أي جماعة من الناس من أيّ رتبة أخرى، وأنّ السينود (المَجْمَع الكنسي) والعاهل شخصياً يوليان اهتماماً خاصاً لحياة الكاهن، وأنّ التدقيق يطال الجميع، لأنه ليس الحكومة العليا فقط، بل حتى الأفراد العاديون في الدولة بدؤوا يلاحظون أنّ سبب كل الشرور يكمن في حقيقة أنّ الكهنة بدؤوا يؤدون واجباتهم بلا مبالاة... أعلني لهم دائماً تلك الحقائق الرهيبة التي سترتجف أرواحهم منها حتماً. باختصار، لا تهملي كهنة المدينة بأي شكل من الأشكال. بمساعدة زوجة محافظهم، يمكن للكهنة أن يتركوا تأثيراً أخلاقياً كبيراً على فئة التجار وفئة الحِرَفيين وعلى كل طبقة بسيطة تعيش في المدينة، بقَدْرٍ لا يمكنكِ تخيله الآن. سأخبرك قليلاً عما يمكنك فعله، وسأشير إلى الوسائل التي يمكنكِ من خلالها القيام بذلك: أولاً... لكنني تذكرت أنه ليس لديّ أي فكرة على الإطلاق عن طبيعة فئة الحرفيين وفئة التجار في مدينتكِ: قد لا تأتي كلماتي في محلها تماماً، فالأفضل لي عدم نطقها على الإطلاق؛ سأقول لكِ فقط إنكِ ستندهشين فيما بعد عندما ترين عدد المآثر التي تنتظرك في هذا المجال، والتي ستكون الفائدة المتأتية منها أكثر بعدة مرات من فائدة الملاجئ وجميع أنواع المؤسسات الخيرية، والتي لا ترتبط فحسب بأيّ تبرعات وجهود، لكنها ستتحول إلى متعة، وإلى استرخاء وتسلية للروح.

حاولي تشجيع جميع النخبة والممتازين في المدينة على الانخراط في الأنشطة العامة: يمكن لكل واحد منهم فعل الكثير مثلكِ تقريباً. ويمكنكِ حثّهم. فإذا ما أعطيتني تصوراً كاملاً

عن شخصياتهم وأسلوب حياتهم ومهنهم، فسأخبرك كيف وبأيّ شيء يمكن حضّهم؛ هناك أوتار مكنونة داخل الإنسان الروسي، هو نفسه لا يعرفها، والتي يمكن ضربه عليها حتى يرتجف. لقد ذكرتِ لي بعض الأسماء في مدينتك بوصفهم أشخاصاً أذكياء ونبلاء؛ أنا متأكد من أنك ستجدين ثمة المزيد منهم. لا تنظري إلى المظهر المنفّر، ولا تنظري إلى أي سلوكيات كريهة، أو وقاحة، أو قسوة، أو ارتباك في الخطاب، أو حتى إلى التبجح والانتهازية في التصرفات وكل أنواع التباهي الحاذق الزائد عن اللازم. لقد اكتسبنا جميعاً في الآونة الأخيرة شيئاً متعجرفاً وبغيضاً في تعاملنا، ولكن على الرغم من ذلك كله توجد ثمة مشاعر طيبة في أعماق أرواحنا أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من حقيقة أننا ملأناها حتى الاكتظاظ بكل أنواع القمامة وحتى أننا ببساطة لم نولها أيّ أهمية. لا تهملي النساء على وجه الخصوص. أُقسِم، أنّ النساء أفضل بكثير منّا، نحن الرجال. ففيهنّ شهامة أكثر وشجاعة أكثر لفعل كل ما هو نبيل؛ لا تنظري إلى كونهنّ يَذِنّ في دوامة الموضة والطيش. فإذا تمكنتِ فقط من التحدث إليهم بلغة الروح نفسها، وإذا ما تمكنت بطريقة ما أنْ تحددي للمرأة مجالها السامي الذي ينتظره العالم منها الآن، – سيكون مضمار حياتها السماوي رافعاً لنا نحو كل شيء مستقيم ونبيل وصادق، ودافعاً للرجل نحو الطموح النبيل. ثم إن هذه المرأة نفسها، التي تحسبينها فارغة، ستتوهّج فجأة، وتنظر إلى نفسها وإلى واجباتها المهجورة، وسوف تندفع إلى كل شيء مخلص نقي، وتدفع زوجها إلى أداء الواجب بإخلاص، وبعد أنْ ترمي الخِرَق عنها جانباً، ستوجّه الجميع نحو العمل. أُقسِم، أنّ النساء سوف يستيقظن قبل الرجال وسيوبّخنن بكل نُبل، وسيجلدنن بنُبلٍ ويقُدنن بسَوط الخجل والضمير، مثل قطيع خراف غبي، قبل أن يتاح لكل واحد منا الوقت لأن يستيقظ ويشعر بأنه كان ينبغي عليه أن يركض بنفسه منذ زمن بعيد قبل أنْ يلحقه السوط. سوف يُحببنكِ كثيراً، وكيف لهنّ ألّا يحببنكِ إذا ما عرفنّ روحك؛ لكن حتى ذلك الوقت ينبغي عليك أنْ تحبيهنّ كلهنّ جميعاً، من دون أنْ تولي انتباهاً إلى ما إذا كانت إحداهنّ لا تحبكِ...

لقد أطلتُ عليك برسالتي هذه. وأشعر أنني بدأت أقول أشياء قد لا تكون مناسبة لمدينتك أو لكِ في الوقت الحاضر؛ لكنّ اللوم يقع عليكِ لأنكِ لم تعطني معلومات مفصلة عن أي شيء. حتى الآن الأمر غامض بالنسبة لي، فأنا كالذي يسير في غابة كثيفة. أسمع فقط عن أمراض مستعصية ولا أعرف ما الذي يعاني منه كل مريض. وقد اعتدت على عدم التصديق بالشائعات عن وجود مرض مستعصٍ على العلاج، وإني لا أرى أيّ مرض على الإطلاق غير قابل للشفاء حتى أتلمّسه بيدي. لذا، القي نظرة فاحصة على المدينة كلها مرة أخرى، من أجلي. صِفي كل شيء وكل شخص، من دون إعفاء أيّ شخص من ثلاثة أسئلة لا مفرّ منها: ما هي طبيعة منصبه، وما مقدار الخير الذي يمكن فعله فيه، وما مقدار الشرّ. تصرّفي مثل تلميذة مجتهدة: اعملي دفتراً لهذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغرض ولا تنسي أن تكوني معي في تفسيراتك بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الدقة، ولا تنسي أنني أبله، بل أبله جداً، حتى أطّلع على المعلومات بأكبر تفصيل. من الأفضل أن تتخيلي أنّ طفلاً يجلس أمامك أو أحد الجهلة الذي يحتاج إلى تفسير كل شيء بالتفصيل؛ عندئذ فقط ستكون رسالتك كما ينبغي. لا أعرف لماذا تحسبينني من النوع الذي يعرف كل شيء. فإذا ما حدث لي ذات مرة أنْ تنبأتُ بشيء وتحقق ما تم توقعه – فذلك لمجرد أنّكِ آنذاك أخذتِ بيدي إلى موقع روحك. أهمية هذا النوع من التخمين عظيمة! على المرء أن يلقي نظرة فاحصة على الحاضر فحسب، وسيظهر المستقبل من تلقاء نفسه. الأحمق هو الذي يفكّر في المستقبل من دون أن يمر بالحاضر. فهو إمّا يكذب أو يحكي أحجية. بالمناسبة، سأوبخك على سطورك التالية، التي سأضعها أمام عينيك: «*إنه لأمر محزن بل وكئيب أن نرى حالة روسيا عن كثب، ولكن، مع ذلك، يجب الا نتحدث عن هذا. يجب علينا أنْ ننظر إلى المستقبل بأمل وبنظرة مشرقة. فالمستقبل في يد الله الرحيم*». إنّ كل شيء في يدي الله الرحيم: الحاضر والماضي والمستقبل. لهذا السبب مصيبتنا كلها تنحصر في كوننا لا ننظر إلى الحاضر، بل ننظر إلى المستقبل. ولهذا السبب أيضاً تكمن المشكلة برمتها في أنه بمجرد أنْ ننظر إلى الحاضر بتمعن ونلاحظ أن فيه شيئاً آخر محزناً وكئيباً، شيئاً آخر شنيعاً أو زُنُبَ ليس كما نرغب، نُعرِض عنه ونولي أبصارنا نحو المستقبل. لهذا لا يعطينا الله ذكاءً؛ ولهذا المستقبل لدينا جميعاً كما لو كان معلّقاً في الهواء: يشعر البعض أنه جيد، وذلك بفضل بعض الأشخاص الطليعيين الذين أحسّوا به أيضاً بالفطرة ولم يتحققوا منه بعد باستنتاج حسابي قانوني؛ لكن لا أحد يعرف كيف يمكن الوصول إلى هذا المستقبل. إنه مثل العنب الحامض. والشيء الخامل يُنسى! لقد نسي الجميع أن المسارات والطرق المؤدية إلى هذا المستقبل **المشرق** مخفية على وجه التحديد في هذا الحاضر **المظلم والغامض**، الذي لا يريد أحد أن يدركه: الجميع يعذونه دونياً ولا يستحق الاهتمام به، بل ويغضبون إذا كُشِفَ عنه للجميع. ادفعيني إلى معرفة الحاضر، حتى وإن وحدي فقط. لا تمتعضي من الرجاسات واكتبي لي عن كل رجس! بالنسبة لي، الرجاسات ليست غريبة: أنا نفسي رجس إلى حدٍّ ما. قبل أنْ أدخل كثيراً في الرجاسة، كنت أمتعض من كل الرجاسات، وينتابني اليأس من الكثير منها، وشعرتُ بالفزع على روسيا؛ منذ أن بدأت أنظر عن كثب إلى الرجس، استنرتُ من الناحية الروحية؛ وبدأت تتكشّف أمامي النتائج والوسائل والطرق، وأصبحت أبجّل العناية الإلهية أكثر. والآن، أحمد الله أكثر لأنه منحني أن أعرف، وإن كان ذلك جزئياً، رجاستي ورجاسات إخوتي الفقراء على حدٍّ سواء. وإذا كان لديّ ذرة من العقل، الذي هو ليس من سمات جميع الناس، فذلك لأنني نظرت عن كثب إلى هذه الرجاسات. وإذا تمكنتُ من تقديم المساعدة الروحية لبعض المقربين إلى قلبي، بمن فيهم أنتِ، فذلك لأنني نظرتُ عن كثب إلى هذه الرجاسات.

وإذا اكتسبتُ أخيراً القدرة على حب الناس، ليس الحب الحالم، بل الحب الحقيقي، فهذا كله أخيرًا من كوني تمغنث بالنظر عن كتب في جميع أنواع الرجاسات. لا تخافي من الرجاسات ولا تشيحي بوجهك على وجه الخصوص عن أولئك الذين يبدون لك لسبب ما أرجاساً. أؤكد لكِ، سيأتي زمان يبكي فيه الكثير من الناس الأنقياء في روسيا بمرارة، ويغطون وجوههم بأيديهم، بالذات لأنهم عدّوا أنفسهم أنقياء للغاية فتباهوا بنقائهم وبجميع طموحاتهم السامية في الارتقاء نحو العلاء، بعد أن عدّوا أنفسهم من خلال هذا أنهم أفضل من الآخرين. تذكّري هذا كله، عندما تُضلّين، واستأنفي عملك مرة أخرى بنشاط وحيوية أكثر من أي وقت مضى. أعيدي قراءة رسالتي خمس أو ست مرات، بالذات لأن كل شيء مبعثر فيها ولا يوجد ترتيب منطقي صارم، وهو مع ذلك ذنبكِ. من الضروري أن يظل جوهر الرسالة كاملاً فيكِ، وتصبح أسئلتي أسئلتكِ ورغبتي تصير رغبتكِ، وأن تلاحقك كل كلمة وحرف وتعذبك حتى تلبي طلبي بالطريقة التي أريدها بالضبط.

1846

الموضوع الثاني والعشرون

الإقطاعي الروسي

(رسالة إلى ب. ن. بـ...وي)

الشيء الرئيس هو أنك جئت إلى القرية وقررت من كلّ بد أن تكون ملّاكاً للأراضي؛ أما الباقي، فسيأتي من تلقاء نفسه. لا تزعج نفسك بالتفكير باختفاء الروابط القديمة التي كانت تربط صاحب الأرض بالفلاحين إلى الأبد. صحيح أنها اختفت؛ وصحيح أيضاً أنّ اللوم في ذلك يقع على الملاكين أنفسهم؛ ولكن تجاهل كلام من يقول اختفت هذه الروابط إلى الأبد أو مدى الدهر: لا يمكن أن يقولها إلا من لا يرى شيئاً أبعد من أنفه. ألا يمكن ربط الإنسان الروسي الذي يعرف كيف يقدّم الشكر مقابل كل خير، والذي لا يحتاج أنْ تعلّمه، هل من الصعب أنْ تجعل الرجل الروسي يتعلق بك؟ بل يمكن أنْ تربطه إليك إلى درجة سوف تضطر للتفكير بعد ذلك في وسيلة تُفكّنك من حل ارتباطه بك. إذا فعلت بالضبط ما أقول لك الآن، فعند نهاية العام سترى أنني على حق. تولّ أعمال الإقطاعي، وكيف يجب أن تتعامل بمكانه بالمعنى الحقيقي والقانوني. بادئ ذي بدء، اجمع الرجال واشرح لهم ماذا عليك وماذا عليهم؟. قل لهم إنّك إقطاعي عليهم، ليس لأنك أردت أن تأمر وأن تكون مالكاً للأرض، بل لأنك بالفعل إقطاعي، ولأنك ولدت إقطاعياً، فماذا يكون جزاؤك من الله إذا ما استبدلت بهذه الرتبة رتبة أخرى، لأن الجميع يجب أن يعبدوا الله في موقعهم الخاص، وليس في موقع آخر، تماماً مثلما أنهم يجب أن يخضعوا أيضاً للسلطة وأنْ يطيعوا تلك السلطة نفسها التي ولدوا تحت ظلها، لأنه لا توجد سلطة ليست من الله. وأرِهم هذا في الإنجيل، حتى يتمكنوا كلهم من رؤيته. ثم قل لهم إنك تجبرهم على الشغل والكدح ليس لأنك بحاجة إلى المال من أجل متعتك الشخصية على الإطلاق، وكدليل، احرق بعض الأوراق النقدية أمامهم على الفور، حتى يروا بالفعل أنّ المال لا يعني لك شيئاً، ولكنك تجبرهم على العمل لأنّ الله أمر الإنسان أن يعمل وأنْ يكسب الخبز لنفسه، واقرأ لهم هذا في الكتاب المقدس حتى يتمكنوا من رؤيته. قل لهم الحقيقة كاملة: كيف ستكون مسؤولاً أمام الله على كل شخص طالح في القرية، وأنك لهذا الشيء بالذات ستعمل كل ما بوسعك حتى يعملوا بأمانة ليس من أجلك فقط، بل ومن أجل أنفسهم أيضاً، لأنك تعلم، وهم يعلمون أيضاً أنه عندما يكسل الرجل القادر على العمل والعطاء – سيصبح لصاً وسكيراً، وسيهلك روحه، وسيجعلك مسؤولاً أمام لله. وكل ما تقوله لهم، أكّد صحته بكلمات من الكتاب المقدس؛ أرِهم بإصبعك الحروف المكتوب بها هذا الكلام؛ واجبر الجميع أنْ يصلّبوا ويركعوا ويقبلوا الكتاب نفسه الذي كُتِب فيه هذا الكلام. باختصار، حتى يروا بوضوح أنّك في كل ما يتعلق بهم تتوافق مع إرادة الله، وليس مع أفكارك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوروبية أو غيرها. سوف يفهم الفلاحون هذا، فهم لا يحتاجون إلى الكثير من الكلمات. قل لهم الحقيقة كاملة: إنّ النفس البشرية أغلى من أي شيء في العالم، وأنك قبل كل شيء ستعمل على ألّا يدمر أحدٌ روحه ويسلمها للعذاب الأبدي. واجعل اللوم والتوبيخ كله الذي تبدأ بتوجيهه لشخص مدان بالسرقة أو الكسل أو السكر موجّهاً من الله وليس منك شخصياً؛ أره كيف يخطئ إلى الله وليس إليك. ولا تلُمه وحده، بل ادغ امرأته وأهله واجمع الجيران. عاتب المرأة على عدم طردها لشرّ زوجها وعلى عدم تهديدها له بالخوف من الله؛ وعاتب الجيران، لماذا تركوا أخاهم يعيش بينهم مثل عيش الكلب ويهلك روحه من أجل لا شيء؛ واثبت لهم أنهم سوف يُسألون أمام الله على كل شيء. رتب الأمر بشكل تقع فيه المسؤولية على عاتق الجميع وأنّ كل ما يحيط بالإنسان سوف يوبخه ولا يسمح له أنْ يستهتر أكثر. اجمع قوة التأثير، ومعها المسؤولية على رؤوس أرباب العمل والفلاحين المثاليين. اشرح لهم بوضوح أنّ واجبهم لا ينحصر في أنْ يعيشوا هم أنفسهم بشكل جيد، بل وكذلك في أنْ يعلّموا الآخرين كيف يعيشون عيشة صالحة، حتى لا يتمكن السكير من تعليم السكر وأنّ هذا واجبهم. وأمُر الطالحين والسكيرين بأن يظهروا لهم الاحترام نفسه الذي يحظى به عريف الجماعة أو الكاتب أو الكاهن أو حتى الاحترام الذي تحظى به أنت؛ واجعل جميع الفلاحين عندما يرون من بعيد الفلاح المثالي وربّ العمل أنْ يخلعوا قبّعاتهم عن رؤوسهم ويفسحوا له الطريق؛ ومن يتجرّأ على أن يظهر له نوعاً من عدم الاحترام أو يعصي كلماته الذكية، أدّبه أمام الجميع؛ وقل له: «آه منك، يا صاحب الأنف القذر! إنك تعيش وسط السخام، إلى درجة لا يمكن معها حتى رؤية عينيك، ومع هذا لا تريد إبداء الاحترام لرجل شريف! اركع عند قدميه واطلب منه أنْ يعيدك إلى رشدك؛ فإنْ لم يعدك إلى رشدك – ستضيع مثل الكلب». وأجلِس أمامك الفلاحين المثاليين الذين استدعيتهم إليك، إذا كانوا كبار السن، وتحدّث معهم حول الكيفية التي يمكنهم بها إرشاد الآخرين وتعليمهم الخير، وبالتالي القيام بالضبط بما أوصانا الله به. افعل ذلك لمدة عام واحد فقط، وسترى بنفسك كيف سيكون كل شيء على ما يرام؛ وحتى أنّ المزرعة ستكون من هذا أفضل. اهتم بالشيء الرئيس فقط، وسوف يصلح كل شيء آخر من تلقاء نفسه. إذ ليس من العبث أنّ المسيح قال: «فإنّ هذِهِ كُلّها تَطلُبهَا الأُمَمُ». تظهر هذه الحقيقة في حياة الفلاحين أكثر مما في حياتنا؛ فهم لديهم المالك الثري والرجل الطيب – مرادفان. وإذا ما أطلّت الحياة المسيحية وحدها على قرية ما، تجد الرجال فيها يجرفون الفضة بالمجارف.

ولكن هنا، مع ذلك، ثمة نصائح لك تتعلق بالمزرعة. إذا ما أدركتْ فحواها إدراكاً صحيحاً، فلن تخسر. فقد شكرني شخصان عليها؛ أحدهما من معارفك، إنه ك**. في الواقع، لن أقول لك ما هي مجالات الزراعة التي يجب أنْ تشتغل بها ولا كيف ينبغي عليك أنْ تعمل. فأنت تعرف هذا

أفضل مني. وإلى جانب ذلك، لا أعرف قريتك حق المعرفة. وفيما يتعلق بأي ابتكارات، فأنت ذكي وأدركت بنفسك أنه لا يجب عليك التمسك فحسب بكل شيء قديم، بل ويجب كذلك أن تتمعن فيه بشكل صحيح لكي تستخرج منه ما يمكن به تحسينه. لكنني سأقدم لك النصيحة بشأن العلاقة بين مالك الأرض والفلاح في الشؤون الزراعية والعمل، وهذا أمر ضروري في الوقت الحالي أكثر من أي شيء آخر. تذكّر علاقة الملاكين السادة السابقين مع فلاحيهم: كُن الأب والمؤسس، وابدأ بنفسك في كل شيء، وكن في المقدمة في الأمور كلها. احرص في بداية أي عمل مشترك، مثل البذار والجز والحصاد، على أنْ تقيم وليمة للقرية بأكملها، بحيث تكون ثمة في هذه الأيام طاولة مشتركة لجميع الفلاحين في حديقتك، كما لو كانوا في يوم عيد الفصح، وليتك تتناول طعامك معهم، وتذهب للعمل معهم، وتكون الأفضل في العمل، وتشجع الجميع على العمل بشكل جيد، وتمدح النشيط في الحال وتوبخ الكسلان على الفور. وعندما يحل فصل الخريف وينتهي العمل في الحقل، احتفل بنهاية العمل بالطريقة نفسها وبمأدبة أكبر، مصحوبة بصلاة احتفال وشكر. لا تضرب الفلاح. فضرب الرجل على وجهه ليس أمراً مستحسناً البتة. يمكن أنْ يفعل ذلك ضابط الشرطة وعضو المحكمة وحتى عريف الجماعة؛ فالفلاح معتاد على هذا؛ وسيأخذ الأمر ببساطة ويحك قفاه قليلاً وينهض. ولكن تعلّم كيف تخزه جيداً بالكلمة؛ وأنت بارع في الكلمات المناسبة. وبّخه أمام الناس كلهم، حتى يضحك عليه الناس كلهم في الحال؛ سيكون هذا مفيداً له عدة مرات أكثر من أيّ كف على قفاه أو لكمة على أسنانه. احتفظ بجميع مرادفات كلمة «أحسنت» لمن يحتاج إلى حضّ، وبجميع مرادفات كلمة «امرأة» لمن يحتاج إلى لوم، حتى تسمع القرية بأكملها أنّ الرجل الكسول والسكير هو امرأة وتافه. وابحث عن كلمة أسوأ، باختصار – انعته بكل الصفات التي يأنف منها الرجل الروسي. لا تبقى حبيسَ الغرفة، بل تواجد كثيراً في أماكن عمل الفلاحين. وأينما حللتَ، تصرّف بشكل يجعل كل شيء منذ وصولك أكثر حيوية وبهجة وجمالاً وروعة في العمل. أعطهم قوة منك بالكلمات: «لنكمل العمل كله دفعة واحدة، يا رفاق، كلنا معاً!» خذ الفأس أو المنجل بنفسك. سيكون هذا في صالحك ومفيداً لك في صحتك أفضل من أنواع الرياضات والمشي الصحي والجولات البطيئة.

ملاحظاتك حول المدارس صحيحة تماماً. إن تعليم الفلاح القراءة والكتابة لمنحه الفرصة لقراءة الكتيّبات الفارغة التي ينشرها فاعلو الخير الأوروبيون للناس هو في الحقيقة هراء. الشيء الرئيس، هو أنّ الفلاح ليس لديه وقت لهذا على الإطلاق. فبعد العمل الكثير، لن يستوعب ذهنه أيّ كتاب، وعندما يعود إلى المنزل، سوف ينام نوماً عميقاً. وأنت نفسك ستفعل الشيء نفسه عندما تتواجد كثيراً في أماكن العمل. يستطيع كاهن القرية أن يقول ما هو ضروري حقاً للفلاح أكثر من هذه الكتب كلها. وإذا ما ظهرت حقاً رغبة جامحة لتعلم القراءة والكتابة لدى

أحدهم، ليس على الإطلاق من أجل الرغبة بأن يصبح نساخاً مارقاً، بل من أجل أن يقرأ فيما بعد تلك الكتب التي نُقشت فيها شريعة الله للإنسان، – فهذه مسألة أخرى. ربّه ونشّئه مثل ابنك، وانفق عليه وحده ما كنت ستنفقه على المدرسة بأكملها. فالناس في بلادنا ليسوا أغبياء عندما يهربون من كل ورقة مكتوبة كما يهربون من الشيطان. فهم يعرفون أنها لا تخلّف إلا التشويش على البشر والانشغال بالتوافه والخداع. حقاً، لا ينبغي لهم حتى أن يعرف ما إذا كانت ثمة أي كتب أخرى غير كُتب القديسين.

أما بخصوص الكاهن. إنك عبثاً تهتم بتغييره وتبدأ في مطالبة الأسقف كي يرسل لك كاهناً آخر أكثر معرفة وأكثر خبرة. إنه لن يعطيك مثل هذا الكاهن، لأن مثل هذا الكاهن مطلوب في كل مكان. اترك نهائياً فكرة البحث عن كاهن يتلاءم تماماً مع مُثلك. لا يوجد معهد لاهوتي ولا مدرسة يمكنها تربية مثل هذا الكاهن. في المدرسة اللاهوتية، لا يتلقى سوى التربية الأساسية الأولية، لكنه يتكامل تماماً من خلال الحياة العملية. كن له رفيقاً، فأنت تفهم جيداً واجبات كاهن القرية. إذا كان الكاهن سيئاً، فاللوم كله يقع دائماً على الإقطاعيين أنفسهم. فبدلاً من أن يؤووه في منزلهم كفرد من العائلة، ويغرسوا فيه الرغبة في الحديث الممتاز الذي يمكن أن يعلّمه شيئاً ما، فإنهم يتركونه بين الفلاحين، شاباً عديم الخبرة، لا يزال لا يعرف ما هي طبيعة الفلاح، ويضعونه في مثل هذا الموقف الذي يتعين عليه فيه غض النظر عن سلوكهم وإرضائهم، بدلاً من أن تكون له بعض السلطة عليهم منذ البداية، وبعد ذلك يصرخون أن كهنتهم سيئون، وأنهم اكتسبوا سلوكيات الفلاحين ولا يختلفون عن الفلاحين البسطاء. وإنّي هنا أتساءل: مَن ذا الذي لا يخشوشن حتى من أولئك المدرّبين والمتعلمين؟ لذا عليك أن تتصرف على هذا النحو. اجعل الكاهن يتناول الغداء معك كل يوم. اقرأ معه الكتب الدينية: هذه القراءة تشغلك الآن وتغذيك أكثر من أي شيء آخر. والأهم من ذلك كله، اصطحب الكاهن معك أينما ذهبت للعمل، حتى يكون معك في البداية كمساعد، وحتى يرى شخصياً جميع جيلك مع الفلاحين. وفي هذه الحالة سيرى بوضوح ما هو الإقطاعي، وما هو الفلاح، وكيف ينبغي أن تكون علاقتهما ببعضهما البعض. وفي هذه الأثناء سوف يكنّ له الفلاحون احتراماً أكبر عندما يرون أنه يسير يداً بيد معك. احرص على ألّا يحتاج في منزله إلى شيء، وأن توفّر احتياجاته الأسريّة، ومن خلال ذلك ستتاح له الفرصة ليكون معك باستمرار. صدّقني، أنه سوف يعتاد عليك أخيراً حتى يشعر بالملل من دونك. وبعد أن يعتاد عليك، سوف يكتسب منك بشكل غير واعٍ معرفة الأشياء، ومعرفة الإنسان، والكثير من كل أنواع الخير، لأنه فيك، والحمد لله، ما يكفي من هذا كله، وأنت تعرف كيف تُفصِح عن نفسك بشكل واضح وجيد لدرجة أن الجميع يستوعبونك ويتعلمون منك من غير شعور، ليس من خلال أفكارك فحسب، بل وحتى من صورة التعبير عنها، ومن خلال كلماتك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاتها.

أما بالنسبة للموعظة التي تعتقد أنها ضرورية، فسأخبرك بهذا: إنّي أرى أنّ من الأفضل للكاهن الذي ليس على دراية كاملة بشؤون وظيفته وليس على دراية بالناس من حوله، ألّا يلقي خطبة على الإطلاق. هل فكرت في مدى صعوبة إلقاء موعظة معقولة، وخاصة للفلاحين؟ كلا، من الأفضل أنْ تصبر قليلاً، على الأقل حتى يتمعّن الكاهن بالنظر فيما حوله قليلاً، وكذلك أنت. وحتى ذلك الوقت، سوف أنصحك بما نصحتُ به أحدهم قبلك وقد استفاد من تلك النصيحة على ما يبدو. خذ كتب الآباء القديسين، وخاصة يوحنا فم الذهب، أقول فم الذهب لأن فم الذهب تعامل مع أناس جاهلين اعتنقوا المسيحية من الخارج فقط، لكن في قلوبهم ظلوا وثنيين أفظاظاً، وحاولَ بشكل خاص أنْ يجعل كلامه مفهوماً للإنسان البسيط والوقح ويتحدث بلغة حية حول الأشياء الضرورية وحتى السامية جداً. وأعتقد أنه يمكن تماماً أن تؤخذ مقاطع من عظاته إلى فلاحينا، وسوف يفهمونها. خذ مواعظ فم الذهب واقرأها مع كاهنك، وعلاوة على ذلك، ضع قلم رصاص في يدك، حتى يمكنك على الفور تحديد جميع هذه المقاطع، فثمة العشرات من هذه المقاطع في كل واحدة من مواعظ يوحنا فم الذهب. وليحكي الكاهن للناس هذه المقاطع بالذات؛ ولا يلزم الأمر أن تكون المقاطع طويلة: صفحة أو حتى نصف صفحة؛ كلما قلّ حجمها كلما كان أفضل. لكن من الضروري، قبل أن يتفوّه بها الكاهن للناس، أنْ يقرأها معك عدة مرات، حتى يتمكن من نطقها ليس بحماسة فقط، بل وبصوت مقنع، كما لو كان يتحدث عن مصلحة خاصة له، والتي تعتمد عليها رفاهية حياته. سترى أنّ هذا سيكون أكثر فعالية من موعظته الشخصية. يحتاج الناس إلى القليل من الكلام، ولكن بدقة، فهم لا يستطيعون أنْ يعتادوا على الموعظة بنفس الطريقة التي اعتاد عليها أبناء الطبقة العليا، الذين يذهبون للاستماع إلى الدعاة الأوروبيين المشهورين بنفس الطريقة التي يذهبون بها للاستماع إلى الأوبرا أو إلى المسرحية. الكاهن لدى السيد ك** لا يخطب بأي موعظة، لكنه، بسبب معرفته لجميع الفلاحين حق المعرفة، ينتظر منهم الاعترافات فقط. وفي الاعتراف يطهرهم من كل الأدران، حتى يغادروا الكنيسة نظيفين كما لو خرجوا من الحمام. وقد أرسل إليه السيد ز** عن قصد للاعتراف بثلاثين عاملاً من مصنعه، ومن السكارى والنصابين من الدرجة الأولى، ووقف هو نفسه على شرفة الكنيسة لينظر إلى وجوههم أثناء مغادرتهم الكنيسة: لقد خرجوا جميعاً خفر الوجوه مثل جراد البحر. وقد تبيّن أنه أمسكهم قليلاً في الاعتراف؛ أربعة وخمسة أشخاص يعترفون دفعة واحدة. وبعد ذلك، حسب ما ذكر السيد ز** نفسه، لم يُرَ أحد منهم في حانة لمدة شهرين، وحتى أنّ أصحاب الخمارات في المنطقة لم يستطيعوا التكيف مع الواقع ولم يعرفوا سبب ما حدث.

لا بأس، هذا يكفي. اعمل بجدٍ لمدة عام فقط، وبعد ذلك سيجري العمل من تلقاء نفسه بطريقة لن تحتاج إلى معها إلى التدخل بيدك. سوف تصبح ثرياً مثل كرويسيوس (ملك ليديا)، على عكس أولئك الأشخاص نصف المكفوفين الذين يعتقدون أن فائدة الإقطاعي تتعارض مع فوائد الفلاحين. ستثبت لهم بالفعل، وليس بالكلام، أنهم يكذبون، وأنه إذا نظر الإقطاعي إلى واجبه بعين المسيحي، فلن يتمكن فحسب من تقوية الروابط القديمة، التي يقال إنها اختفت إلى الأبد، بل وسيربطهم بعلاقات جديدة أقوى – برابطة المسيح التي لا يمكن لرابطة أن تكون أقوى منها. وأنت، الذي لم تخدم حتى الآن بحماسة في أي مجال، سوف تخدم صاحب السيادة (القيصر) في رتبة إقطاعي، وهذا ما لن يقوم به أي مسؤول كبير آخر. قل ما يحلو لك، ولكن أن تضع 800 شخص من الرعايا، كلهم كواحد، ويمكن أن يكونوا مثالاً لكل من حولهم بحياتهم المثالية حقاً، فهذا ليس عملاً خاملاً بل خدمة شرعية ورائعة حقاً.

1846

الموضوع الثالث والعشرون

الرسام التاريخي إيفانوف

(رسالة إلى الكونت ماتفي يو. ف...وي)

أكتب لك عن إيفانوف(49). يا لمصير هذا الرجل غير المفهوم! أخيراً، بدأ الجميع يدركون أهمية عمله. فقد اقتنع الجميع بأن اللوحة التي يعمل عليها، – هي ظاهرة غير مسبوقة، وشاركوا الفنان، وانشغلوا من جميع الجهات للتأكد من حصوله على مورد مالي لإنهائها، حتى لا يموت الفنان من الجوع عليها، – أقول حرفياً، – حتى لا يموت من الجوع، – ولكن حتى يومنا هذا لا يوجد ردّ بكلمة واحدة من بطرسبورغ. أرجوك، افهم ما يعني هذا كله. لقد ترددت هنا شائعات سخيفة بأن الفنانين وجميع أساتذة أكاديمية الفنون في بلادنا يحاولون ضمان عدم منحه وسيلة لإنهائها، بدافع الحسد وخوفاً من أن تقتل لوحةُ إيفانوف كل ما أُنتج في فننا حتى الآن. هذه كذبة، أنا متأكد منها. الرسامون لدينا نبلاء، وإذا ما عرفوا كل ما عانى منه المسكين إيفانوف بسبب نكران الذات وحبه للعمل الذي لا مثيل له، مخاطراً حقاً بالموت جوعاً، لتقاسموا معه أموالهم الخاصة بطريقة أخوية، لا أنْ يوحوا للآخرين بهذه الأعمال القاسية. ولماذا يخافون من إيفانوف؟ إنه يسير في طريقه ولا يشكل عائقاً أمام أحد. إنه لا يبحث عن رتبة الأستاذية ولا عن المنافع الدنيوية، بل وحتى إنه ببساطة لا يبحث عن أي شيء، لأنه مات منذ مدة طويلة بالنسبة لكل ما في هذا العالم، باستثناء عمله. إنه يصلي من أجل الحصول على نفقة المتسولين، من أجل معاش يُعطى للطالب الذي بدأ للتو في العمل، وليس من أجل المعاش الذي يستحقه، بصفته أستاذاً، يشتغل على مثل هذا العمل الضخم الذي لم يُنفَّذ مثله أحدٌ حتى الآن. إنه لم يتمكن من الحصول على معاش المتسولين هذا، الذي يحاول الجميع تحقيقه له ويهتمون بشأنه، بالرغم من جهود الجميع. الحقيقة، أني أرى في هذا كله إرادة العناية الإلهية، التي حددت لإيفانوف أن يصبر ويتألم ويتحمل كل شيء، لا يمكنني أن أنسب أيّ شيء إلى غير هذا.

حتى الآن، وجّهَ له اللوم على البطء في العمل. وقال الجميع: «كيف! له أنْ يعمل على تنفيذ لوحة لمدة ثماني سنوات، وما زالت اللوحة غير مكتملة!» ولكن الآن هدأ هذا اللوم، عندما رأوا أنه حتى لحظة واحدة من وقت الفنان لم تذهب سدى، وأنّ الرسومات التحضيرية وحدها التي أعدها للوحته ستملأ القاعة بأكملها ويمكن أن تشكل معرضاً منفصلاً، بالإضافة إلى هذا الحجم الاستثنائي للوحة نفسها، التي لم تكن متساوية بعد (إنها أكبر من لوحات بريولوف(50) وبروني(51))، تطلبت الكثير من الوقت للعمل، خاصة في ظل تلك الموارد المالية الشحيحة

التي لم تمنحه الفرصة للحصول على عدة موديلات للرسم دفعة واحدة، وعلاوة على ذلك، لم يكن أولئك الناس (الموديلات) مثلما أراد. باختصار، يشعر الجميع الآن بعبثية اللوم على البطء والكسل لمثل هذا الفنان الذي انكبّ، مثل الكادح، طوال حياته على العمل ونسي حتى ما إذا كانت ثمة أيّ متعة أخرى في العالم إلى جانب العمل. وسيشعر أكثر بالخجل أولئك الذين وجّهوا اللوم له على بطئه، عندما يدركون سبباً مخفياً آخر لبطئه. ارتبطت بإنتاج هذه اللوحة قضية روحية لدى الفنان، وهي ظاهرة نادرة جداً في العالم، ظاهرة لا يشترك فيها تصرف اعتباطي من الإنسان على الإطلاق، بل إرادة الله الذي هو أسمى من الإنسان. لقد تقرر أنْ تتكامل في هذه اللوحة تربية الفنان نفسه، سواء في العمل الإبداعي الفني أو في الأفكار التي توجه الفن إلى غرض مشروع وسامٍ. موضوع اللوحة، كما تعلم، مهم للغاية. أُخِذَت أصعب المواقف بالنسبة للتنفيذ من المقاطع الإنجيلية، التي حتى الآن لم يتولَّ العمل عليها أيّ رسّام حتى في القرون الفنية الصالحة السابقة، أيّ – الظهور الأول للمسيح إلى الناس بعد القيامة. تُصور اللوحة الصحراء على ضفة نهر الأردن. ويوحنا المعمدان، أبرز الجميع، يكرز ويعمد باسم المسيح، الذي لم يره أحد بعد بين الناس. إنه محاط بحشد من الناس العراة والذين يخلعون ملابسهم والذين يرتدون الملابس وآخرين مرتدين، بعضهم يخرجون من المياه وبعضهم يستعدون للغطس فيها. ويقف في هذا الحشد تلاميذ المخلّص المستقبليون أيضاً. الجميع، عندما يوجهون حركاتهم الجسدية المختلفة، يندفعون بأذنهم الداخلية إلى خِطابات النبي، وكأنهم يمسكون كل كلمة من شفتيه ويعبرون عن مشاعر مختلفة على وجوههم المختلفة: بعضهم تبدو عليهم أمارات الإيمان الكامل؛ وبعضهم لا تزال تبدو عليهم علامات الشك؛ وبعض ثالث لا يزالون يترددون بين الإيمان والشك. وبعض رابع نكّسوا رؤوسهم ندماً وتوبةً؛ ويوجد ثمة مَن لا تزال تُرى عليهم قساوة القلب وعدم حساسيته. في ذلك الوقت بالذات، الذي يتحرك فيه كل شيء بمثل هذه الحركات المختلفة، يظهر من بعيد الشخص الذي حدثت المعمودية باسمه – وهذه بالذات اللحظة الحقيقية للوحة. صوّرَ يوحنا المعمدان في تلك اللحظة بالذات عندما يقول، وهو يشير بإصبعه إلى المخلص: «هُوَ ذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!» والحشد كله، من دون أن يتركوا تعابير وجوههم، يتوجهون بالبصر أو بالفكر إلى المسيح الذي أشار إليه النبي. وفوق الانطباعات السابقة التي لم يُسعفها الوقت للهروب من الوجوه، ظهرت انطباعات جديدة على الوجوه كلها. وتوهجت وجوه الذين اختيروا في المقدمة بنور مُذهِل، بينما لا يزال آخرون يحاولون أنْ يدركوا معاني الكلمات غير المفهومة، متسائلين كيف يمكن لشخص واحد أن يأخذ على عاتقه خطايا العالم كله، ولا يزال آخرون يهزّون رؤوسهم بريبة، قائلين: «أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟». وهو (المسيح)، في **طمأنينة سماوية** وعلى بُعدِ مدهش، وبخطوة هادئة وواثقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقترب من الناس.

إنه لأمر عسير – أن تصور على الوجوه هذا المسار الكامل **لتوجه الإنسان إلى المسيح!** هناك أناس على يقين من أنْ كل شيء متاح للفنان العظيم. لو كان الفنان موهوباً ودرس في الأكاديمية يمكنه أن يصوّر كل شيء بسهولة: الأرض، البحر، الإنسان، الضفدع، العراك وولائم الناس، لعب القمار والصلاة لله. يمكن للفنان أن يصور ما **يشعر به** فقط وما تكونت عنه فكرة كاملة في رأسه؛ وبخلاف ذلك ستكون اللوحة ميتة، صورة أكاديمية. لقد فعل إيفانوف كل ما كان سيحسبه فنان آخر كافياً لإكمال الصورة. فقد نفّذ إلى حدّ الكمال الجزء المادي بالكامل، وكل ما يتعلق بتوزيع المجموعات المعقول والصارم في الصورة. واكتسبت الوجوه نفسها توافقها النموذجي مع ما ورد في الإنجيل، وتشابهها في الوقت نفسه مع السحنات اليهودية. فعلى الفور يشعر المرء من الوجوه في أيّ أرض تجري الحادثة. فقد ذهب إيفانوف إلى كل مكان عن قصد لدراسة الوجوه اليهودية لهذا الغرض. ودرس كل ما يتعلق بالترتيب المتناغم للألوان وملابس الناس وتخطيطاتها المدروسة على الجسد لدرجة أن كل طية تجذب انتباه المتذوق. وأخيراً، أكمل الجزء الخاص بالمنظر الطبيعي كله، الذي في العادة لا يراعيه الرسام التاريخي كثيراً، ونفّذ منظر الصحراء الخلابة بأكملها المحيطة بمجموعة الناس بطريقة تجعل رسامي المناظر الطبيعية أنفسهم الذين يعيشون في روما يُذهلون منه. جلس إيفانوف من أجل هذا مدة أشهر في مستنقعات بنطس(52) غير الصحية والأماكن المهجورة في إيطاليا، ونقل إلى رسوماته التحضيرية جميع المناطق النائية البرية حول روما، ودرس كل حصاة وورقة شجرة، باختصار، فعل كل ما في وسعه، وصوّر كل شيء وجد فيه عينةً. لكن كيف السبيل إلى تصوير ما لم يجد له الفنان عينات بعد؟ أين يمكن أن يجد نموذجاً من أجل تصوير الشيء الرئيس الذي يشكل مهمة الصورة بأكملها، والذي يمثل في الوجوه مجمل حركة تَوجه الناس إلى المسيح؟ من أين يمكنه الحصول عليه؟ من رأسه؟ أن يخلقه بالخيال؟ أنْ يفهمه ذهنياً؟ كلا، هذا هراء! الفكرة هذه باردة والخيال تافه. لقد أجهد إيفانوف خياله، وبالكاد استطاع، حاول على وجوه جميع الأشخاص الذين التقى بهم أنْ يلتقط حركات الروح السامية، وبقي في الكنائس لمتابعة صلاة الناس، فرأى أنّ كل شيء كان ضعيفاً وغير كافٍ ولا يؤكد في روحه الفكرة الكاملة لما يحتاجه. وتسبب هذا الموضوع بمعاناة نفسية شديدة له وكان سبباً لجعل اللوحة يطول أمد تنفيذها. كلا، قبل أنْ يحدث التوجه الحقيقي للمسيح في الفنان نفسه، لا يمكنه تصوير ذلك على القماش. دعا إيفانوف الله أن ينزّل عليه مثل هذا التوجه الكامل، وذرف الدموع في صمت، طالباً من الله القوة لتنفيذ الفكرة التي ألهمها له؛ وفي هذا الوقت وجّه له اللوم على بطئه وحثّ على أنْ يُسرع! فطلب إيفانوف من الله أن يحرق فيه بنار النعمة تلك القسوة الباردة التي يعاني

منها الآن العديد من أفضل وأطيب الناس، وأن يلهمه أنْ يصور هذا التوجه بطريقة يمكن أن يتأثر بها غير المسيحي أيضاً عندما ينظر إلى صورته؛ وقد لامه في ذلك الوقت حتى الناس الذين عرفوه جيداً، وحتى أصدقاؤه، معتقدين أنه ببساطة يتكاسل، وفكروا بجدية فيما إذا كان بإمكانهم جعله ينهي الصورة من خلال الجوع والحرمان من جميع الموارد المالية. وقال أكثرهم تعاطفاً: «إنه ذنبه؛ دع اللوحة الكبيرة تستمر كالمعتاد، وفي الفترات الفاصلة يمكنه عمل صور صغيرة، وكسب المال مقابلها حتى لا يموت من الجوع». – قالوا ذلك، وهم لا يعرفون أنْ الفنان الذي تحول عمله بإرادة من الله إلى قضية روحية لم يعد قادراً على الانخراط في أي عمل آخر، وليس لديه فترات فاصلة ولا يستطيع أنْ يوجه تفكيره إلى أيّ شيء آخر، مهما احتاج ومهما أُجبِرَ. إنه مثل الزوجة الوفية، التي تحب زوجها حباً حقيقياً، فهي لن تحب أي شخص آخر، ولن تبيع مداعباتها لأي شخص مقابل المال، حتى لو تمكنت من إنقاذ نفسها وزوجها من الفقر بهذه الطريقة. هذه هي ظروف إيفانوف الروحية. ستقول: «لماذا لم يكتب هذا كله على ورقة؟ ولماذا لم يصف موقفه الفعلي بوضوح؟ كان يمكن آنذاك إرسال الأموال اللازمة إليه على الفور». أجل، الأمر ليس كما تظن. ليجرب أحدنا، الذي لم يثبت قوته بعد ولم يتمكن بعد من التعبير عن نفسه لنفسه، أنْ يُفْهِم الناس ذوي المجالات الأخرى الذين لا يستطيعون، بطبيعة الحال، حتى أنْ يدركوا أنْ في الفن يمكن أن توجد درجات أعلى، وأسمى من تلك الدرجة التي هو (الفن) عليها في عصر الموضة الحالي! هل من الممكن حقاً أن تقول لأحدهم: «سأفعل شيئاً ما سيدهشك لاحقاً، ولكن لا يمكنني أنْ أحدثك عنه الآن، لأن الكثير لا يزال غير واضح تماماً بالنسبة لي، وانتظرني بصبر، طوال الوقت الذي سأنكب فيه على العمل، وأعطني نقوداً لأعيش بها؟» بعد ذلك، ربما سيظهر العديد من أولئك المحتالين الذين سيتحدثون بالطريقة نفسها – لكن هل ثمة مجنون سيعطيهم المال. ولنفترض حتى، أنْ إيفانوف كان بإمكانه التعبير عن نفسه بوضوح في هذا الوقت الغامض وقال هكذا: «ألهمني أحدهم من الأعلى بفكرة ملحّة – أنْ أرسم توجّه الناس إلى المسيح بالفرشاة. وأشعر أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك من دون أنْ أتوجه إليه أنا شخصياً. لذلك، انتظروا حتى يحدث هذا التوجه فيّ، وأعطوني في هذا الوقت المال اللازم لمعيشتي ولعملي». لكنّا صرخنا آنذاك جميعاً بصوت واحد: «ما هذا الهراء، يا أخي، أنت تخدعنا؟ هل تحسبنا حمقى؟ ما هذه العلاقة بين الروح واللوحة؟ الروح مستقلة في حدّ ذاتها، واللوحة شيء آخر في حدّ ذاته. لماذا علينا أنْ ننتظر توجّهك إلى المسيح! فأنت من دون هذا مسيحي على أيّ حال؛ وبعد كل شيء، نحن هنا جميعاً مسيحيون حقيقيون». هذا ما سنقوله جميعاً لإيفانوف، وكل واحد منا على حق تقريباً. لولا تلك الظروف الصعبة والعذابات الداخلية لروحه التي أجبرته بالقوة على أن يتوجه إلى الله بحرارة أكثر من الآخرين وأعطته القدرة على أن يلتجئ إلى الله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعيش في الله بطريقة لا يعيشها الفنان الدنيوي الحالي، وأن يبكي بالدموع تلك المشاعر التي حاول الوصول إليها من قبل بالتأملات فقط، – لما كان بمقدوره أنْ يصور قط ما بدأ بالفعل في تصويره على قماش اللوحة، ولكان حقاً سيخدع نفسه والآخرين، برغم عدم رغبته في الخداع.

لا تعتقد أنْ من السهل التواصل مع الناس أثناء الحالة الروحية انتقالية، التي تبدأ فيها بمشيئة الله تغييرات في طبيعة الإنسان الشخصية. أنا أعرف هذا، وجربته إلى حدٍّ ما بنفسي. كما ارتبطت كتاباتي بطريقة معجزة بروحي وبتربيتي الداخلية. فعلى امتداد أكثر من ست سنوات لم أتمكن من عمل أي شيء للناس. العمل كله حدث في داخلي ومن أجلي شخصياً. ولا تنس أني كنت في ذلك الحين أعيش مما أكسبه من كتاباتي فقط. كان الجميع يعلم تقريباً أنني بحاجة إلى المال، لكنهم كانوا على يقين من أنْ هذا كان بسبب عنادي، وما كان عليّ إلا أن أجلس وأكتب شيئاً بسيطاً من أجل الحصول على أموال كبيرة؛ ولكن لم يكن بمقدوري إنتاج سطر واحد، وعندما قررت، باتباع نصيحة شخص طائش، أن أجبر نفسي على كتابة بعض المقالات لإحدى المجلات بالإكراه، فكان ذلك صعب عليّ جداً وحتى إنني كنت أشعر بألم في رأسي وألم في جميع حواسّي، وأكتب بصورة ركيكة وأمزّق الأوراق، وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر من هذا التعذيب، أسأتُ بشدة إلى صحتي، التي كانت سيئة قبل هذا، لدرجة أنني رقدتُ في الفراش وصاحبت ذلك بعض العلل العصبية، وأخيراً، أمراض ناجمة عن عدم القدرة على أنْ أشرح شيئاً لأي شخص في العالم، وقد أرهقني ذلك حتى أوشكت على الموت. وقد حدث الشيء نفسه مرتين تقريباً. وفي إحدى المرات، بالإضافة إلى هذا كله، كنت أسكن في مدينة تكاد لا توجد فيها نفس قريبة مني، ومن دون أيّ مورد مالي، وكنت على حافة الموت ليس من المرض والمعاناة الروحية فقط، بل وحتى من الجوع. حدث ذلك منذ وقت طويل. وقد أنقذني العاهل (القيصر). إذ جاءتني فجأة مساعدة منه. هل أحسّ بقلبه أنْ أحد رعاياه المساكين، قصد أن يخدمه، في مجاله غير المفيد وغير الملحوظ، نفس الخدمة الصادقة التي يقدمها له الآخرون في مجالات خدمتهم المفيدة والملحوظة، أم أنها كانت حركة من حركات رحمته المعتادة. وقد نهضت بي هذه المساعدة على الفور. وكان من دواعي سروري في تلك اللحظة أن أكون ملتزماً أمامه وليس أمام أيّ شخص آخر. ومن الأسباب التي دفعتني إلى العمل بنشاط متجدد، أضيفت فكرة جديدة أيضاً مفادها، أنه إذا ما خصني الله لأصبح، تماماً، شخصاً قريباً من العديد من الناس ومستحقاً، تماماً، لحب كل مَن أحبهم، – فسوف أقول لهم: «لا تنسوا، ربما، ما كنت لأبقى في هذا العالم، لولا صاحب الجلالة». هكذا تحدث المواقف. بالإضافة إلى ذلك، أقول لك، إنني في ذلك الوقت كنت أسمع اتهامات لي بالأنانية: إذ لم يستطع الكثيرون أن يغفروا لي عدم مشاركتي في مختلف الأمور التي كانوا يديرونها، حسب رأيهم، من أجل الصالح العام. وحسبوا

قولي، الذي ادعيث فيه أنّي لا أتمكن من الكتابة ولا أستطيع أن أعمل لأيّ واحدة من المجلات أو الإصدارات المشتركة، ضرباً من الخيال. وعُزِيَت حياتي ذاتها، التي قضيتها في بلاد الغربة، إلى الرغبة بالانغماس في الملذات والاستمتاع بجمال إيطاليا. لم أستطع حتى أنْ أشرح لأيّ واحد من أصدقائي المقربين أنني، بالإضافة إلى اعتلال الصحة، كنت بحاجة إلى الابتعاد المؤقت عنهم، وذلك على وجه التحديد كي لا أدخل في علاقة مزيفة معهم ولا أسبب لهم المشاكل، – وحتى هذا لم أستطع أنْ أشرحه لهم. فقد أحسست بنفسي أنّ حالتي الروحية أصبحت غريبة جداً لدرجة أنني لم أستطع إخبار أيّ شخص في العالم عنها بوضوح. وعندما كنث أحاول أن أكشف جزءاً واحداً على الأقل من نفسيّتي، كنث أرى في تلك اللحظة أمام عيني كيف أنّي بكلماتي كنث أشوش رأس الشخص الذي يستمع إلي وأسلب عقله، فأندم بمرارة حتى على الرغبة وحدها في أن أكون صريحاً. أقسم لك، أنّ ثمة مواقف صعبة للغاية لدرجة أنه لا يمكن تشبيهها إلا بموقف الشخص الذي يعيش في سبات كامل، والذي يرى نفسه كيف يُدفن حيّاً، ولا يمكنه حتى رفع إصبعه وإعطاء إشارة على أنه لا يزال على قيد الحياة. كلا، ليحمِك الله، لا يمكن في تلك اللحظات من الحالة الروحية الانتقالية أنْ تشرح حالتك لشخص ما؛ عليك أن تلجأ إلى الله وحده، لا لأحد غيره. لقد ظلمني آنذاك الكثيرون، حتى أولئك الناس المقربون مني، الذين في الحقيقة لم يكونوا مذنبين البتة؛ فأنا نفسي كنث سأفعل الشيء نفسه لو كنت مكانهم.

الشيء نفسه الذي حدث ينطبق على قضية إيفانوف: إذا ما حدث أنه مات من الفقر ومن عدم كفاية المال، فسيغتاظ الجميع فجأة ويسخطون على من تركه حتى وصل إلى ذلك الحال، وسوف يوجهون الاتهامات إلى الفنانين الآخرين بعدم الإحساس وبالحسد تجاهه. ولنهض شاعر درامي وألّف من هذا الموضوع دراما تعاطف، من شأنها أن تحرك المستمعين وتثير فيهم الغضب على أعدائه. وكل هذا سيكون كذبة، لأنه، بالتأكيد، لن يكون أحد مذنباً حقاً بموته. شخص واحد فقط سيكون نذلاً ومذنباً، وهذا الشخص هو أنا: لأني مررث بالحالة نفسها تقريباً، واختبرتها على جسدي، ولم أشرحها للآخرين! ولهذا أكتب إليك الآن. رتّب، إذاً، هذا العمل؛ وأزح الخطيئة التي ستجثم على روحك. لقد أزحتُ، أنا، الخطيئة عن روحي بهذه الرسالة بالذات؛ والآن صارت متعلقة بك. واحرص على أنْ تمنح إيفانوف ليس الإعانة الزهيدة التي يطلبها فقط، بل اجعل منها في الوقت نفسه مكافأة له بالذات لأنه عمل مدة طويلة على لوحته ولم يرغب في عمل أيّ شيء غيرها في ذلك الوقت، بالرغم من إكراه الآخرين له وبالرغم من ضغط الحاجة المادية عليه. لا تبخل عليه! فالمال على كل حال سيُعوَّض. لقد بدأت أهمية الصورة تتكشف للجميع. وبدأت روما كلها تقول عنها بصوت عالٍ (حتى في ظل مظهرها الحالي الذي لم تظهر فيه فكرة الفنان بالكامل بعد) أنّ مثل هذه الظاهرة لم تبرز بعد منذ زمن رافائيل وليوناردو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دافنشي. وبعدما ينتهي العمل على اللوحة – سيدفع أفقر قصر في أوروبا مقابلها عن طيب خاطر بمقدار ما يُدفع الآن من المال مقابل لوحات الرسامين العظماء السابقين التي يُعثر عليها من جديد، ومثل تلك اللوحات لا يمكن أن تقل قيمتها عن مائة أو مائتي ألف. رتب الأمر بشكل لا تكون فيه الجائزة على اللوحة، بل مقابل تفانيه في العمل وحبه الفريد للفن، وأن تكون بمثابة درس للفنانين. وهذا الدرس ضروري حتى يتمكن الآخرون من رؤية كيف ينبغي لهم أن يحبوا الفن. وكيف ينبغي أن تُفنى لديهم إغراءات الحياة كلها، مثلما فُنيت لدى إيفانوف؛ وأن يتعلموا، مثل إيفانوف، ويحسبوا أنفسهم تلاميذ طوال الحياة؛ وأن يحرموا أنفسهم، مثل إيفانوف، من كل شيء، حتى من طبق إضافي في العيد؛ وأن يرتدوا، مثل إيفانوف، سترة مخملية بسيطة عندما انقطعت عنه جميع الموارد المالية وتجاهل الحشمة الفارغة؛ وأن يتحفلوا كل شيء، مثلما تحمل إيفانوف، سواء أثناء التكامل الروحي السامي واللطيف أو أثناء الإحساس الكبير بكل شيء، ومثلما تجاوز آثار جميع الهزائم الشديدة. وحتى عندما ارتأى البعض أن يعلن أنه مجنون ونشروا هذه الإشاعة بطريقة تجعله يسمعها بأذنيه في كل خطوة يخطوها لم يهتم لتلك الإشاعة. لذا ينبغي مقابل هذه المآثر أن يحصل على مكافأة. وهذا ضروري بشكل خاص للفنانين الشباب ولأولئك الذين يدخلون للتو في مجال الفن، حتى لا يفكروا في كيفية ارتداء أربطة العنق وسترات الحفلات واستدانة المال لتعزيز مكانتهم في المجتمع؛ وحتى يعرفوا مسبقاً أن الدعم المالي والمساعدة من الحكومة لا تنتظر إلا أولئك الذين لم يعودوا يفكرون في السترات والحفلات مع الرفاق، وكرسوا أنفسهم لعملهم، مثلما يكرس الراهب نفسه للدير. وليت المبلغ الذي سوف يُمنح لإيفانوف يكون كبيراً جداً إلى درجة يبدأ الآخرون في حك أقفيتهم من دون وعي من شدة الدهشة. لا تخف، لن يأخذ هذا المبلغ لنفسه؛ ربما لن يأخذ كوبيكاً(53) واحداً منه لنفسه – سوف يستعمل هذا المبلغ كله لمساعدة كادحي الفن الحقيقيين، الذين يعرفهم الفنان أكثر مما يعرفهم أيّ موظف، وسيكون التصرف بها في هذا المجال أفضل من تصرّف الموظفين. إذ لا يمكن للمرء أن يتكهن بالكيفية التي سوف يوزع بها الموظف المبلغ: يمكن أن يكون لديه زوجة محبة للأزياء وأصدقاء يحبون الأكل فيحتاج أن يضيفهم على وجبة غداء؛ الموظف يهتم بالموظفين وبالبريق الزائف؛ وحتى أنه يحاول أن يؤكد أن من أجل الحفاظ على شرف الأمة الروسية ينبغي أن يعطي شيئاً قليلاً للأجانب، وسوف يطلب المال لهذا الغرض. لكن الشخص الذي زهد بنفسه في هذا المجال، والذي هو نفسه يحتاج المساعدة، والذي سمع صرخة الحاجة والعوز الحقيقي، وليس العوز المزيف، والذي صبر ورأى كيف يصبر الآخرون، وحزن من أجلهم، والذي تشارك بالقميص الأخير مع العامل المعوز في ذلك الوقت الذي لم يكن لديه فيه ما يأكله ولا ما يرتديه، كما فعل هذا إيفانوف، فهذه – مسألة أخرى. يمكنك أن تأمنه بلا تردد على

مليون روبل وتنام بسلام – ولن يضيع كوبيك واحد من هذا المليون. افعل ذلك بإنصاف، وأرِ رسالتي للكثير من أصدقائك وأصدقائي على حدٍ سواء، وخاصة لأولئك الذين يثق أحد الأقسام بإدارتهم، لأن الكادحين، من أمثال إيفانوف يمكن أن يوجَدوا في جميع المجالات، ومع ذلك يجب ألا تتركهم يموتون من الجوع. وإذا ما رأيتَ أنّ أحدهم، بعد أن اعتزل الآخرين بدأ يمارس عمله الخاص بهمة أشدّ من الجميع، حتى لو كان عملاً شخصياً فقط، ثم قال إنّ هذا العمل، الذي يبدو عملاً خاصاً، سيحتاجه الجميع، فاحسبه كما لو كان في وظيفة عامة وأعطه رزقه اليومي. وراقب حياته للتأكد مما إذا كان ثمة أي خداع هنا، لأنّ أي شخص كسول ولا يفعل شيئاً يمكنه أنْ يتستر بهذا الفعل ويدّعي ما ليس فيه؛ إنّ حياته الشخصية ستحكي عنه كل شيء. فإذا ما كان، مثل إيفانوف، لا يهتم بجميع أساليب الحياة والظروف الدنيوية، ويرتدي سترة بسيطة ونأى بنفسه ليس فحسب عن التفكير بالملذات والمسرات، بل وحتى عن التفكير في الزواج وتكوين أسرة أو امتلاك منزل، وعاش حياة رهبانية حقيقية، وانكبّ ليلاً ونهاراً على عمله وصلّى في كل دقيقة – فعندئذٍ لا يستحق الأمر التدبّر طويلاً، بل ينبغي إعطاؤه المعاش الذي يمكنه من العمل، وكذلك لا ينبغي الاستعجال ودفعه للعمل، بل اتركه وشأنه: سيدفعه الله من دون الحاجة لتدخلك؛ مهمتك تنحصر في رعايتك له فحسب حتى لا يموت من الجوع. لا تعطِه معاشاً كبيراً؛ أعطه مبلغاً زهيداً يكفيه حياة الكفاف ولا تغرِه بمغريات العالم. هناك أناس يجب أن يظلوا معدمين مدى الحياة. حياة التسول نعمة لم يكتشف أسرارها العالم بعد. ولكن مَن مكّنه الله من تذوّق حلاوتها وأحبّ كيس تسوله حباً حقيقياً، فلن يبيعها مقابل كل كنوز هذا العالم.

1846

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الرابع والعشرون

كيف يمكن أن تكون الزوجة لزوجها

في الحياة المنزلية البسيطة،

في ظل النظام الحالي للأشياء في روسيا؟

فكرتُ لوقت طويل أهاجم مَن منكما: أهاجمكِ أم أهاجم زوجك؟ أخيراً قررت أنْ أهاجمكِ: المرأة أسرع في القدرة على الاستيقاظ والاندفاع. إنّ وضعيتكما كلاكما، على الرغم من أنكِ تحسبينَ نفسكِ في ذروة النعيم، في رأيي، ليس غير سعيدة فحسب، بل وحتى أسوأ من وضعية أولئك الذين يعدّون أنفسهم في حالة حزن وبؤس. كلاكما تتمتعان بالعديد من الصفات الحميدة في الروح والقلب وحتى الصفات العقلية، ولكنكما تفتقران إلى ذلك الشيء، الذي بدونه لن ينفع كل ما ذكرته: إنكما تفتقران إلى ضبط الذات في داخلكما. لا أحد منكما سيد نفسه. ليس لديكما سجية **قوة الإرادة**. زوجك، عندما شعر بهذا النقص في نفسه، تزوج خصيصاً لكي يجد في زوجته دافعاً له لأي عمل أو مأثرة. وأنتِ تزوجتِه حتى يكون هو المحفز لك في كل أمور الحياة. كلاكما تنتظران من بعضكما البعض ما لا يملكه كلاكما. أقول لكِ: إن وضعيتكما ليست غير سعيدة فحسب، بل وخطيرة أيضاً. أنتما كلاكما تذوبان وتتفككان في خضم الحياة مثل الصابون في الماء؛ ستختفي كل فضائلكما وصفاتكما الحميدة في فوضى الأفعال، التي ستصبح وحدها سجيتكما، وستصبحان كلاكما عجزاً متجسداً. ادعوا الله أنْ يمنحكما القوة. يمكن طلب كل شيء من الله، حتى القوة، التي، كما تعلمين، لا يستطيع الشخص الخائر والضعيف أنْ يحصل عليها بأي وسيلة. تصرّفا بذكاء. يقول المثل: «صلوا وجذّفوا إلى الشاطئ» (اعقِل وتوكّل). وردّدا مع نفسيكما في الصباح وفي الظهيرة وفي المساء وفي كل ساعات اليوم: «يا الله، اجمع لي أمري وآتني القوة!» – وافعلا طوال العام ما سأقوله لكِ الآن، من دون أنْ تفكّرا لمدة من الوقت لماذا هذا ولأيّ غرض. وخذي على عاتقك تدبير الشؤون الأسرية في المنزل بأكملها؛ وأن يكون الدخل والمصروف تحت تصرّفكِ. لا تمسكا دفتر حسابات عام، ولكن من بداية العام اعملا كشفاً تقديرياً للنفقات كلها للمرحلة المقبلة، واحسبا جميع احتياجاتكما، واحصرا مسبقاً المبلغ الذي يمكنكما أن تنفقاه والمبلغ الذي ينبغي أن تنفقانه خلال العام، وفقاً لدخلِكما، واحسبا كل شيء بأرقام تقريبية. قسما أموالكما إلى سبعة أقسام متساوية تقريباً. في القسم الأول سيكون المال المخصص لإيجار الشقة مع التدفئة والماء والحطب وكل ما يتعلق بالإنفاق على المنزل ونظافة الفناء. وفي القسم الثاني – المال المخصص للأكل وكل

ما يتعلق به، مثل راتب الطباخ وطعام جميع مَن يعيشون في منزلكما. وفي القسم الثالث – المركب: العربة، الحوذي، الخيل، القش، العلف (الشوفان)، باختصار – كل ما يتعلق بهذا القسم. وفي القسم الرابع – المال المخصص للملابس، أي كل ما تحتاجانه كليكما للظهور بين الناس أو للبقاء في المنزل. والقسم الخامس – النقود اللازمة لمصروف الجيب. وفي القسم السادس المال المخصص لنفقات الطوارئ التي قد تحتاجان إليها: تبديل الأثاث، وشراء عربة جديدة، وحتى مساعدة أحد أقاربكما، إذا ما طرأت عليه حاجة مفاجئة. والقسم السابع – لله، أي المال المخصص للكنيسة وللفقراء. واحرصي على ألا تختلط لديك هذه الأقسام السبعة، بل اجعليها مثل سبع وزارات منفصلة. واجعلي النفقات كل واحدة على حدة، ولا تقترضي من قسم إلى آخر تحت أيّ ذريعة. ومهما بدت لكِ المشتريات مربحة في هذا الوقت ومهما أغرتك برخص سعرها، فلا تشتريها. يمكنكما أن تقدما على فعل بذلك لاحقاً، عندما يقوى موقفكما أكثر. والآن لا تنسي للحظة أنّ هذا كله تفعلينه من أجل اكتساب سمة القوة، وهذا المكسب في الوقت الحالي أكثر ضرورة بالنسبة لك من أي عملية شراء أخرى، لذا ينبغي أنْ تكوني عنيدة في هذا الأمر. واطلبي من الله أنْ يمنحكِ العناد. وحتى إذا ما كانت ثمة حاجة لمساعدة الفقراء، فلا يمكنك استخدام أكثر من ذلك الذي في القسم المعيّن. وحتى لو شاهدت صورة محنة تمزق قلبك، ورأيتِ بنفسكِ أنّ المساعدة المالية يمكن أن تساعد، فلا تتجرئي حتى على لمس الأقسام الأخرى، بل اذهبي إلى جميع أنحاء المدينة، إلى جميع أصدقائك وحاولي أن تميليهم إلى الشفقة: اطلبي، توسّلي، كوني مستعدة حتى لإذلال نفسكِ، لكي يبقى هذا درساً لكِ، وحتى تتذكري إلى الأبد كيف دفعتكِ الحاجة القاسية إلى أنْ ترفضي مساعدة إنسانٍ بائس، وكيف كان عليك أن تعرّضي نفسكِ للإذلال وحتى للسخرية علناً بسبب ذلك؛ ولكي لا يخرج هذا من ذهنكِ، وكي تتعلمي من خلال هذا أن تمنعي نفسك عن الإنفاق من قسم على قسم آخر وأنْ تفكري سلفاً كي يبقى بحلول نهاية العام ثمة بقايا من كل قسم منها للفقراء، لا أنْ تسد حاجاتك فقط من دون بقايا. وإذا ما وضعتِ هذا في ذهنكِ باستمرار، فلن تذهبي أبداً إلى المتجر من دون حاجة ماسة ولن تشتري لنفسك، بشكل غير متوقع لك، بعض الزخارف للمدفأة أو للطاولة، التي يطمع لاقتنائها النساء والرجال بشدة في بلادنا (الرجال يسعون لاقتنائها أكثر، والنساء لسن جميعهن، بل العديمات المروءة منهنّ فقط). سوف تنضغط نزواتكِ بشكل لا إرادي وغير محسوس، وستصل في النهاية إلى النقطة التي ستشعرين فيها بنفسكِ أنكما لستما بحاجة إلى أكثر من عربة واحدة وزوج من الخيول، ولا إلى أكثر من أربعة أطباق على الطاولة، وأنّ مأدبة الغداء يمكن كذلك أنْ تُشبع المدعوّين بمائدة بسيطة مع زيادة طبق إضافي وزجاجة نبيذ تُقدّم من دون أي تفاصيل دقيقة في كؤوس بسيطة. وأنكِ سوف لن تتوهّجي من الخجل فحسب إذا انتشرت شائعة في

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

جميع أنحاء المدينة أنه ليس لديكما (54)comme il faut، بل وستضحكين عليها بنفسك، بعد أن اقتنعتِ حقاً أنّ comme il faut الحقيقي هو ذلك الشيء الذي يريده من الإنسان الله الذي خلقه، وليس الشخص الذي يهتم بما على مائدة الغداء، ولا حتى الشخص الذي يؤلف آداب السلوك المتغيرة كل يوم، ولا حتى السيدة سيخلير(55) نفسها. وخصّصي سجلاً منفصلاً لكل قسم من المال، ولخصي مجمل الإنفاق على كل قسم كل شهر ثم أعيدي قراءتها في اليوم الأخير من الشهر مع زوجك، وقارنا الأشياء بعضها مع بعض، حتى تتمكنان من معرفة أيّ الأشياء أهم من غيرها، من أجل أن تريا بوضوح أيّ شيء يجب التخلي عنه أولاً إذا لزم الأمر، من أجل معرفة حكمة إدراك ما هو الأكثر ضرورة من بين الضرورات.

تمسكّي بهذا بشكل صارم مدة عام كامل. كوني قوية وعنيدة، وخلال هذا الوقت كله صلّي إلى الله أن يقويك. وسوف تصبحين بالتأكيد أقوى. من المهم أن يقوى شيء ما في الإنسان على الأقل ويصبح أمراً ثابتاً لا يمكن التشكيك به؛ سيعمل هذا بشكل لا إرادي على ترتيب كل شيء آخر. بمجرد أنْ تقوي في مسألة الترتيب المادي، ستصبحين أقوى بشكل غير محسوس في مسألة الترتيب الروحي. قسّمي وقتكِ؛ وضّعي ساعةً محدّدة لكل شيء. لا تبقي مع زوجك في الصباح؛ ادفعيه إلى وظيفته في دائرته، وذكّريه في كل دقيقة أنْ يكرس نفسه كلياً إلى العمل العام وإلى شؤون الدولة بأكملها (وأنّ شؤونه الخاصة لا تدخل ضمن اهتماماته: إنها تقع على عاتقكِ، وليس على عاتقه) وأنه تزوج بالذات من أجل أنْ يتمكن من تخليص نفسه من الهموم الصغيرة، وأن يعطي نفسه كلياً للوطن، وأنّ زوجته جاءت إليه ليس كي تعيق أداء واجبه، بل لتقويته في أداء الوظيفة. اعملا في كل صباح كلّ واحد على حدة، كل واحد في مجاله الخاص. وهذا سوف يساعدكما بعد ذلك حتى تلتقيان بمرح قبل الغداء وتسعدان جداً ببعضكما البعض، كأنكما لم تريا بعضكما البعض منذ عدة سنوات، وسيكون لديكما ما ستحكيان به لبعضكما البعض ولن تعودا تجلسان صامتين يتثاءب أحدكما في وجه الآخر. حدّثيه بكل ما فعلتِه في منزلك وبجميع شؤونك المنزلية، ودعيه يخبرك بكل ما أنتجه في دائرته للمصلحة العامة. يجب أن تعرفي جوهر عمله الوظيفي حقّ المعرفة، وما هي طبيعة قسمه، وما الأشياء التي حدثت وأنجزها في ذلك اليوم، وكيف أنجزها. لا تهملي هذا، وتذكّري أنّ الزوجة يجب أنْ تكون معينة لزوجها. وإذا ما استمعتِ جيداً إلى كل شيء منه لمدة عام واحد فقط، فستتمكنين في العام المقبل حتى من تقديم المشورة له، وستعرفين كيف تبهجينه عندما يواجه أي مشكلة في العمل، وستعرفين كيف تجعلينه يتحمّل ويتجاوز ما يصعب عليه، وستكونين محفّزاً حقيقياً لكل الأشياء الجميلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابدئي من هذا اليوم فصاعداً بفعل كل ما أخبرتك به الآن. كوني قوية، صلّي واسألي الله باستمرار، عسى أن يساعدك على جمع أمرك والحفاظ على نفسك. فكل شيء في بلادنا الآن ساخ وتحلل. وكثر السيئون والمنحطون؛ وتوجهوا نحو كل سفالة خسيسة وتحوّلوا إلى عبيد لأتفه الظروف وأحقرها، ولم تعد الآن ثمة حرية في أي مكان بمعناها الحقيقي. أحد أصدقائي، الذي لا تعرفينه شخصياً لكنّ روسيا كلها تعرفه، عزّف هذه الحرية على النحو الآتي: «الحرية ليست في الانسياق وراء رغباتك باعتباطية: بل الحرية في القدرة على أن تقول لرغباتك: كلا». إنه محق مثل الحقيقة نفسها. لا أحد في روسيا الآن يعرف كيف يقول لنفسه «كلا». لا أرى زوجك في أي مكان. دع المرأة الضعيفة تذكره بذلك! أصبح كل شيء رائعاً الآن لدرجة أنّ الزوجة يجب أن تأمر زوجها ليكون رئيسها وحاكمها.

1846

الموضوع الخامس والعشرون

المحاكم الريفية والعقاب

(من رسالة إلى م.)

لا تتجاهل العقاب والمحكمة. لا تعهد بهذا العمل إلى الوكيل أو إلى أي شخص آخر في القرية: هذا القسم أهم من المزرعة نفسها. احكم بنفسك. بهذا وحده ستتمكن من تقوية العلاقة المقطوعة بين مالك الأرض والفلاحين. الدينونة من شأن الله، ولا أعلم ما الذي يمكن أن يكون أسمى من ذلك. ليس عبثاً أن يُكرّم بين الناس الأشخاص القادرون على النطق بالحكم الصحيح. سيأتيك ليس قريتك فقط، بل سيأتي كذلك جميع رجال المنطقة من القرى الأخرى، بمجرد أن يكتشفوا أنك تعرف كيف تعاقب. لا تهمل أيّ شخص يأتي واحكم على الجميع حتى في شجار أو عراك صغير. وخلال ذلك يمكنك أن تقول للفلاح الكثير من الأمور التي ستفيد روحه، وأيّ شيء قد لا تجد المناسبة لتقوله له في وقت آخر، من دون أنْ يجد ما يرد به.

احكم على كل شخص بحكم مزدوج وانزل على كل قضية عقوبة مزدوجة. يجب أن يكون أحد الحكَمين إنسانياً. برّئ فيه البريء وأدِن المذنب. حاول أن تجعل ذلك أمام الشهود، وأنْ يحضر الفلاحون الآخرون إلى هناك أيضاً، بحيث يمكن للجميع أن يرَوا بوضوح كوضوح النهار بأيّ شيء أحدهما مُحِقّ وبأيّ شيء الآخر مذنب. والحكم الآخر اجعله إلهياً. وفيه أدِن البريء والمذنب على حدٍّ سواء. بيّن للأول بوضوح كيف كان هو نفسه مذنباً لأنه جعل الآخر يسيء إليه، وبيّن للثاني كيف أنه مذنب بشكل مضاعف أمام الله وأمام الناس؛ وجّه اللوم لأحدهما، لماذا لم يغفر لأخيه كما أمر المسيح، ووبخ الآخر، لماذا أساء إلى المسيح نفسه في أخيه. ووبخهما كليهما لأنهما لم يتصالحا بنفسيهما وجاءا إلى المحكمة، وخذ كلمة منهما كليهما بأنْ يعترفا للقس بكل شيء من دون توانٍ عند الاعتراف في الكنيسة. إذا ما نطقت بمثل هذه الدينونة، فستكون مخولاً بالحكم، كالله، لأن الله سيقوّيك. وسوف تستمد من هناك لنفسك الكثير من الخير والكثير من المعرفة المباشرة والصحيحة. وإذا ما بدأ العديد من رجال الدولة حياتهم المهنية ليس بالأعمال الورقية، بل بالجزاء اللفظي للقضايا بين الناس البسطاء، لكانوا سيعرفون بشكل أفضل روح الأرض وخصائص الناس وروح الإنسان بشكل عام، ولما استعاروا لنا فيما بعد بِدعاً غير لائقة من البلاد الأجنبية. يمكن تحقيق العدالة في بلدنا بشكل أفضل من جميع الدول الأخرى، لأنه من بين جميع الشعوب، نبتت لدى الإنسان الروسي وحده فقط هذه الفكرة الصحيحة القائلة بأنه لا يوجد شخص محق وأنْ المحق هو الله وحده. هذه الفكرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوصفها عقيدة ثابتة، انتشرت بين ناسنا في كل مكان. فعندما يتسلح بها حتى الشخص البسيط والأبله يحصل على السلطة بين الناس ويوقف المشاجرات. نحن فقط، الناس الذين في الأعلى، لا نسمعها، لأننا تراكمت لدينا مفاهيم أوروبية فارغة عن الحقيقة. إننا نتجادل فحسب حول مَن هو المحق ومن هو الباطل؛ وإذا قمت بتحليل كل حالة من حالاتنا، فستصل إلى نفس القاسم المشترك، أي إنَّ كليهما مذنبان. وترى كيف تصرّفت بحكمة عالية زوجة الأمر في قصة بوشكين «ابنة الآمر»، عندما أرسلت الملازم ليحكم على الشرطي والمرأة اللذين تشاجرا في الحمام من أجل طست الاغتسال الخشبي، وأعطته التعليمات الآتية: «اعرف أيهما المحق وأيهما المذنب وعاقبهما كليهما».

1845

الموضوع السادس والعشرون

مخاوف روسيا وفظائعها

(رسالة إلى الكونتيسة..... يا)

استلمتُ رسالتكِ الطويلة التي كتبتِها بهذا الخوف الشديد والتي طلبتِ مني إتلافها بعد قراءتها على الفور وألّا أردّ عليها إلا من خلال أيد أمينة، وليس بالبريد بأي حال من الأحوال، وها أنا ذا أجيب عليها ليس علناً فحسب، بل، كما ترين، في كتاب مطبوع، ربما سيقرؤه نصف الذين يعرفون القراءة والكتابة في روسيا. إنّ ما دفعني إلى ذلك، هو الاعتقاد بأنّ رسالتي، ربما، تصلح في الوقت نفسه كإجابة للآخرين الذين، مثلك، يشعرون بالاضطراب من المخاوف نفسها. إنّ ما تعلنيه لي سرّاً ليس سوى جزءٍ واحدٍ من القضية برمتها؛ ولكن إذا ما أخبرتكِ بما أعرفه (وأنا، بلا شك، لا أعرف كل شيء تماماً)، فمن المؤكد أنّ أفكارك ستتعكّر وسوف تفكرين شخصياً في كيفية الهروب من روسيا. لكن إلى أين المفر؟ هنا يكمن السؤال. فأوروبا نفسها تمر بظروف أصعب من ظروف روسيا. الفرق هو أنه لا يوجد أحد هناك حتى الآن يرى هذا بشكل كامل: الجميع، حتى من دون استثناء رجال الدولة، لا يعرفون إلا معلومات سطحية، أي إنهم باقون في تلك الحلقة المفرغة من المعرفة، التي ترسمها المجلات في شكل استنتاجات متسرعة، وإفادات طائشة تُقدَّم من خلال منظورات زائفة لأحزاب مختلفة، بعيدة كل البعد عن الحقيقة. انتظري، وسترين كيف ستتعالى الصرخات قريباً من الأسفل، على وجه التحديد في تلك الدول التي تبدو منظّمة وتتمتع بوسائل الراحة، والتي نندهش كثيراً من روعتها الخارجية، ونسعى لتبني كل شيء منها وتكييفه مع حالتنا، والتي ينبهر بها حتى رجال الدولة المشهورون الذين أثاروا انتباهكِ في القاعات والمجالس العمومية. يغلي الآن الاضطراب في كل مكان في أوروبا إلى درجة لا تنفع معها أيّ وسيلة علاج بشرية عندما تنكشف، وستكون المخاوف التي ترينها الآن في روسيا شيئاً تافهاً مقارنة بها. في روسيا، لا يزال النور يشرق، ولا تزال هناك مسارات وطرق للخلاص، والحمد لله أنّ هذه المخاوف حلّت الآن وليس لاحقاً. إنّ كلماتك: «الجميع محبطون من الناحية الروحية، كما لو كانوا ينتظرون شيئاً لا مفرّ من وقوعه»، وكذلك الكلمات: «لا يفكر الجميع إلا في الحفاظ على المكاسب الشخصية، والحفاظ على منافعهم الخاصة، تماماً كما في ساحة المعركة بعد حرب خاسرة، كل واحد يفكر في إنقاذ حياته فقط: **sauve qui peut**(56)» صحيحة تماماً؛ وهذا ما موجود الآن بالفعل؛ وهكذا ينبغي أن يكون الحال: لأنّ الله أمرَ أن يكون بهذا الشكل. يجب على كل فرد الآن أن يفكر في نفسه، وفي خلاصه على وجه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحديد. ولكن أنْ نفكر بنوع آخر من الخلاص. لا أنْ نهرب على متن سفينة من أرضنا، لإنقاذ ممتلكاتنا الدنيوية الحقيرة، بل لإنقاذ أرواحنا، من دون مغادرة الدولة، يجب على كل واحد منا أن ينقذ نفسه في قلب الدولة. يجب على كل واحد منّا الآن أنْ يندفع من الدوامة على متن سفينة منصبه ووظيفته، موجهاً بصره تلقاء الربّان السماوي. وحتى مَن لا يعمل في وظيفة يجب عليه الآن أنْ ينضم إلى وظيفة فوراً ويمسك بمنصبه، مثل غريق يتمسك بلوح، وبدون ذلك لا يمكن لأحد أنْ ينقذ نفسه. الآن يجب على كل واحد منا أن يخدم، ليس كما كان ينبغي عليه أنْ يخدم في روسيا السابقة، بل في دولة سماوية أخرى، رأسها هو المسيح نفسه، ولذا فإنّ علاقاتنا سواءً نحو السلطة العليا ونحو الناس المساوين لنا والمحيطين بنا أو نحو مَن هم أدنى منّا ومَن هم تحتنا يجب أنْ تكون كما أمر المسيح، وليس أي شخص آخر. وعندئذٍ لا تعود ثمة حاجة إلى الاهتمام بأيّ صدمات قد يوجهها أحدهم نحو طموحنا أو كبريائنا، ولن نعود نحتاج سوى إلى أنْ نتذكر أننا استلمنا الوظيفة من أجل المسيح، وبالتالي يجب أن ننفّذها كما أمرَ المسيح وليس كما يأمر أيّ شخص آخر. بهذه الوسيلة فقط يمكن لكل واحد منا أن يخلّص نفسه الآن. وسيشقى مَن لا يفكر في هذا الأمر الآن. سيضعف عقله، وسوف تدلّهِمّ أفكاره، ولن يجد زاوية يختبئ فيها من مخاوفه. تذكّري **الظلمة المصرية**(57)، التي نقلها الملك سليمان بتلك القوة، عندما أراد الرب أن يعاقب البعض، فأرسل إليهم مخاوف غير معروفة وغير مفهومة. فقد كللَ عليهم ليل داج فجأة في وضح النهار؛ وحدّقت فيهم صور مرعبة من كل جانب؛ وأصبحت الوحوش البالية ذات الوجوه الحزينة لا تفارق أبصارهم؛ وقيّدهم الهلعُ جميعاً من دون أغلال حديدية وحرمهم من كل شيء، من الحواس كلها ومن الدوافع كلها ودمّرت كل القوى التي بداخلهم، ما عدا الخوف وحده. وحدث هذا لأولئك فقط الذين عاقبهم الرب. وفي ذلك الوقت نفسه لم يرَ الآخرون أيّ أهوال؛ كان الحال بالنسبة لهم نهاراً ونوراً.

احرصي على أنْ لا يحدث لك شيء من هذا. من الأفضل أن تصلي وتسألي الله أن يرشدكِ إلى الوضعية التي ينبغي لكِ تكوني فيها في موقعكِ الشخصي وتنفذين كل ما فيه، وفقاً لناموس المسيح. المسألة الآن جادة. قبل أن نشعر بالارتباك من الاضطرابات المحيطة، ليس بالأمر السيئ أنْ ينظر كل فرد منا إلى روحه. وانظري، أنتِ أيضاً إلى روحكِ. الله أعلم، ربما ستَرين الاضطراب نفسه الذي تؤنبين الآخرين بسببه؛ ربما يعشش هناك غضبٌ أشعث مهمَل، قادر على أنْ يستولي على روحكِ في أيّ لحظة، فيُسَرُّ بذلك عدوّ المسيح؛ ربما ثوّت هناك القدرة الخائبة التي تؤدي إلى الوقوع في اليأس في كل خطوة، والتي هي ابنة الكفر بالله البائسة؛ ربما لا تزال هناك رغبة متعجرفة لمطاردة كل ما يلمع ويتمتع بشهرة دنيوية؛ ربما استقر هناك الفخر بأفضل سماتنا الروحية، القادر على تحويل كل الخير الذي نملكه إلى لا شيء. يعلم الله ما يمكن أن يكون في

أرواحنا. من الأفضل أن نتململ مما بداخلنا عدة مرات أكثر مما في الخارج ومما حولنا. أما بالنسبة للمخاوف والأهوال التي في روسيا، فهي لا تخلو من فوائد: من بينها، نشأ الكثيرون في تنشئة لن تقدمها أيّ مدارس. إنّ أصعب الظروف، بعد أن حلّت التقلبات الجديدة والتحولات في الذهنية، قد أيقظت القدرات الكامنة لدى الكثيرين، وفي الوقت الذي كان فيه البعض وما زالوا يرقصون في بعض أطراف روسيا رقصة البولكا ويلعبون لعبة الفريفيرانس (في الورق)، فإن حكماء الحياة الحقيقيين يتكاملون بشكل غير مرئي في مجالات مختلفة. ستمر عشر سنوات أخرى، وسترين أنّ أوروبا ستأتي إلينا ليس لشراء القنب وشحم الخنزير، بل لشراء الحكمة التي لن تعد تُباع في الأسواق الأوروبية. وددتُ لو ذكرتُ لك الكثير من أولئك الذين سيصنعون يوماً ما جمال الأرض الروسية ويجلبون لها الخير الأبدي؛ ولكن لصالح جنسك، يجب أن أقول إنّ النساء هناك أكثر. تحتفظ ذاكرتي بأسمائهنّ كعقد كامل من اللؤلؤ. كلهنّ، بدءاً من بناتكِ، اللائي ذكّرنني كثيراً بالمرات التي تكون فيها القرابة بالروح أعلى من أي علاقة دم (أتمنى من الله أنْ تلبي أفضل أخت طلب أخيها بالسهولة التي تُلبي فيها بناتكِ أدنى رغبة من رغبات روحي)، – بدءاً منهنّ واستمراراً بمَن لم تسمعي عنهنّ إلا القليل، وانتهاءً بأولئك اللائي ربما لن تسمعي عنهنّ أبداً، ولكنهنّ أكثر كمالاً مِن جميع مَن سمعتِ عنهنّ. كلهنّ لا يشبهنّ بعضهنّ بعضاً، وكل واحدة منهنّ في حدّ ذاتها ظاهرة غير عادية. روسيا وحدها فقط التي تستطيع إنتاج مثل هذه المجموعة المتنوعة من الشخصيات. وفي وقتنا الحالي هذا فقط، الذي يمتاز بالظروف الصعبة والضعف والانحلال الخلقي العام، استطعنّ أنْ يتكاملنّ. ولكن واحدة تجاوزت الجميع. إنني لا أعرفها البتة، وقد وصلت إلي عنها قصة غامضة واحدة فقط. لم أكن أعتقد أنّ مثل هذا الكمال يمكن أنْ يوجد على الأرض. وأنْ تفعل شيئاً ذكياً ونبيلاً، وأن تفعله بالطريقة التي عرفت بها كيف تفعله؛ وأنْ تفعله بطريقة تحيد فيها الشك عن نفسها بالمشاركة الشخصية بالعمل، وتضع ثقل المأثرة بأكمله على الآخرين، بطريقة تجعل هؤلاء الآخرين يتباهون بما فعلته، كما لو كانوا واثقين تماماً من أنهم هم الذين فعلوه. إنّ من الذكاء التفكير مسبقاً في كيفية الهروب من الشهرة، بيد أنّ العمل نفسه يعلن عن نفسه بصوتٍ عالٍ ويكشف للجميع أنها هي مَن فعلته! وفي الوقت نفسه تتمكن بهذا الفعل من أنْ تبقى مجهولة! كلا، لم أرَ مثل هذه الحكمة من قَبل في أيّ واحد من إخوتنا الذكور. وفي تلك اللحظة، بدت جميع الفئل النسوية التي ابتدعها الشعراء شاحبة أمامي: إنهنّ أمام هذه الحقيقة مثل هذيان الخيال أمام العقل الكامل. وفي تلك اللحظة، بدا لي أيضاً أنّ جميع أولئك النسوة اللائي يسعين وراء الشهرة اللامعة ما هنّ إلا نساء بائسات يُثرن الشفقة! فأين، يا ترى، ظهرت هذه المعجزة؟ لقد ظهرت في المناطق الروسية النائية وغير الملحوظة، وفي هذا الوقت بالتحديد الذي أصبح فيه من الصعب على الإنسان المراوغة، والذي

اختلطت فيه ظروف الجميع وحلّت فيه مخاوف وأهوال روسيا التي تخيفك.

1846

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الموضوع السابع والعشرون

إلى صديقي العديم التبصر

لقد تسلّحت بالآراء الحديثة القصيرة النظر وتعتقد أنك محق في حكمك على الحوادث! إنّ استنتاجاتك فاسدة. ابتدعت بدون الله. أنّى لك أنْ تشير إلى التاريخ؟ التاريخ ميت بالنسبة لك – وليس سوى كتاب مغلق. من دون الله لا يمكنك استخلاص نتائج عظيمة منه؛ لن تستخلص سوى أشياء صغيرة وتافهة. روسيا ليست فرنسا. تلك العناصر فرنسية وليست روسية. لقد نسيتَ حتى تفرّد كل شعب وتعتقد أنّ الحوادث الواحدة نفسها يمكن أن تؤثر بالشكل نفسه على كل شعب. المطرقة الواحدة نفسها، عندما تسقط على الزجاج، تحطمه إلى قطع صغيرة، ولكنها عندما تسقط على الحديد، تطرقه. إنّ أفكارك حول التمويل مستمدّة من قراءة الكتب الأجنبية والمجلات الإنكليزية، وبالتالي فهي أفكار ميتة. إنه لأمر مخزٍ بالنسبة لك، وأنت الرجل الحليم، ألا تعتمد حتى الآن على عقلك، الذي يمكن أن يتطور بطريقته الخاصة، وتركته يتمرغ بقذارات الأجانب. إني لا أرى في مشاريعك نصيب الله. ولم أشعر من كلمات رسالتك، برغم حصافتك كلها وذكائك، أنّ الله كان حاضراً في أفكارك وقت كتابتها؛ ولا أرى القدسية السماوية في فكرك. كلا، لن تصنع الخير في منصبك، بالرغم من أنك تريد فعله؛ لن تؤتي أفعالك بالثمار التي تتوقعها. بنواياك الحسنة يمكن أن تفعل الشرّ، كما فعله الكثيرون. في الآونة الأخيرة، لم يتسبب الأغبياء في حدوث الكثير من الاضطرابات بقدر ما تسبب الأذكياء، وكل ذلك لأنهم يعتمدون على قوتهم وعقولهم. إنك فخور، فبأيّ شيء تفتخر؟ ربما، تفخر بعقلك. كلا، لقد حشوتَ بالقمامة عقلك، الرائع والعظيم حقاً، وجعلته غريباً عنك. إنك تفخر بعقل ميت وغريب عنك، وتتصوره عقلك. انتبه لنفسك: إنك تمشي في مسار خطر. إنك تسعى لتكون من رجال الدولة، وستكون من رجال الدولة، لأنك بالتأكيد لديك المؤهلات اللازمة لذلك؛ ولكن الآن اعتن بنفسك بشكل أكثر صرامة. لا تحرك هذه التحسينات التي امتلأ بها رأسك حتى قبل أن تتولى منصبك، وتذكر أنّ أي عمل متهوّر يمكن أن يتسبب الآن في شرٍّ عظيم. إنّ مشاريعك الحالية تثير الخوف أكثر مما تثير التبصّر. أفكارك كلها موجهة لتجنب شيء ما يهددك في المستقبل. لا تخشَ المستقبل، بل اخشَ من الحاضر. فالله يأمرنا أن نعتني بالحاضر. أولئك الذين طغى عليهم الخوف من المستقبل، يعتقدون أنّ القوة المقدسة قد تراجعت. إنّ الذي مع الله يتطلع إلى الأمام بطمأنينة ويخلق في الوقت الحاضر مستقبلاً مُشرقاً. وأنت الفخور: حتى الآن لا تريد أن ترى شيئاً؛ إنك كثير الوثوق بنفسك: تعتقد أنك تعرف كل شيء؛ وتعتقد أنّ ظروف روسيا كلها مفتوحة أمامك؛ وتعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يعلمك بعد الآن؛ إنك تسعى بكل قوتك لتكون مثل رجال الدولة الذين خمدوا

بسرعة واختفوا بسرعة، والذين كان لديهم كل شيء في أنفسهم للقيام بالكثير من الخير، وحتى أنهم توقّدوا رغبةً في فعل الخير، بل وعملوا بجدّ مثل النمل، طوال حياتهم، وبرغم ذلك كله لم يبق منهم أيّ أثر، ونُسيت ذكراهم؛ وتلاشت حياتهم في وسط روسيا مثل الدوامات الدائرية التي يصنعها حجرٌ بسيط في بركةٍ. ويا للعار، فحتى يومنا هذا يشير لنا الأوروبيون إلى ناسهم العظماء، الذين يكون أحياناً الناس البسطاء في بلادنا أكثر ذكاءً منهم؛ ولكن أولئك تركوا وراءهم على الأقل عملاً راسخاً، لكننا نقوم بالكثير من الأعمال، وكلها تنجرف معنا من الأرض، مثل الغبار. أنت فخور – أقول لك، وأكرر لك مرة أخرى: أنت فخور؛ احترس من نفسك وانقذ نفسك من الكبرياء سلَفاً. ابدأ بما يُقنع نفسك أنك الأكثر غباءً في روسيا، وأنك من الآن فصاعدًا يجب أن تصبح بجدية أكثر حكمة، وأن تستمع باهتمام شديد إلى كل صاحب عمل، كما لو كنت لا تعرف شيئاً وتريد أن تتعلم كل شيء منه. لكن كلامي لا يزال لغزاً بالنسبة لك؛ إنه لا يؤثّر فيك. أنت بحاجة إما إلى نكبة ما أو إلى صدمة. صلّ إلى الله أن تحدث هذه الصدمة، وأنْ تواجهك بعض المتاعب التي لا تطاق في الخدمة، وأن تجد رجلاً يهينك بشدة ويخزيك أمام الجميع بطريقة تجعلك من الخجل لا تعرف أين تختبئ، وتود أنْ تقطع جميع خيوط كبريائك الحساسة في آن واحد. سيكون ذلك الرجل أخاك الحقيقي ومنقذك. آه، كم نحتاج في بعض الأحيان إلى صفعة علنية على الوجه أمام الجميع!.

1844

الموضوع الثامن والعشرون

رسالة إلى رجل يشغل مكانة مهمة

توكّل على الله، وخذ باسمه أيّ وظيفة تُعرَض عليك ولا تتردد في شيء. سواءٌ كان عليك الذهاب إلى الشركس في القوقاز أو أنْ تشغل كالسابق منصب الحاكم العام – فثمة حاجة إليك الآن في كل مكان. أما عن الصعوبات التي تتحدث عنها، فكل شيء صعب في هذه الأيام؛ وكل شيء أصبح معقداً؛ وفي كل مكان ثمة الكثير من العمل. كلما أفكّر بجدية في جوهر الأشياء الحالية، تقل قدرتي في تحديد الوظيفة الأكثر صعوبة الآن وأيها الأسهل. بالنسبة للإنسان غير المسيحي، أصبح الآن كل شيء صعباً؛ أما بالنسبة لمن أدخل المسيح في كل أعماله وفي كل أفعال حياته، فكل شيء سهل. لا أطلب منك أن تصبح مسيحياً بالكامل، فأنت قريب من ذلك. لم تعد مدفوعاً بحب الرفعة، ولم تعد تغريك الرُّتب ولا الجوائز، ولم تعد تفكر في التباهي أمام أوروبا وجعل نفسك شخصية تاريخيةً. باختصار، لقد وصلتَ بالضبط إلى هذا المستوى من الحالة الروحية، التي يجب أن يكون فيها مَن يريد الآن أن يفعل الخير لروسيا. ما الذي يخيفك؟ إنّي حتىّ لا أفهم كيف يمكن للشخص الذي أدرك الحاجة إلى التصرف كمسيحي في كل مكان أن يخاف من أي شيء. فهكذا رجل – حكيم في كل مكان، خبير بعمله أين ما ولّى وجهه. عندما تذهب إلى القوقاز، عليك أولاً أن تلقي نظرة فاحصة. لن يسمح لك التواضع المسيحي بالتسرع. عليك أولاً أن تتعلم، كالتلميذ. لا تترك أيّ ضابط عجوز من دون أن تسأله عن معاركه الشخصية مع العدوّ، واعلم أنّ معرفة الكل مستمدة فقط من معرفة التفاصيل. اجعل كل شخص يحكي لك على حدة عن جميع مآثر الحياة الفهينة والفضية؛ اسأل الذين خدموا في قوات تسيتيانوف(58)، والذين خدموا في قوات يرمولوف(59)، واسأل ضباط العصر الحالي، وعندما تأخذ كل ما تحتاجه، ضُم جميع التفاصيل، واجمع كل الأرقام المنفصلة وأجمِلها معاً – وستخرج لك خطة القيادة من تلقاء نفسها: لن تكون ثمة حاجة لك لتجهد نفسك بالتفكير، سيكون لك واضحاً كل ما ينبغي عليك فعله وضوح الشمس في رابعة النهار. وعندما تكون الخطة بأكملها في رأسك، لا تستعجل؛ لن يسمح لك الحلم المسيحي بفعل هذا. ومن دون أن تعلن ذلك لأي شخص، اسأل كل ضابط بارز كيف سيتصرف لو كان في مكانك؛ اسمع جميع الآراء ولا تترك رأياً واحداً، ولا حتى نصيحة من أي شخص، حتى ممّن هو في رتبة دُنيا، واعلم أنّ الله في بعض الأحيان يمكن أن يلهم الشخص العادي برأي حصيف. لا تقم من أجل ذلك بجمع المجالس العسكرية، واعلم، أنّ المسألة ليست مسألة نقاش وجدال، لذا انصت لكل من يريد التحدث إليك واحداً تلو الآخر. باختصار، استمع إلى الجميع، لكن افعل ما يأمرك رأسك؛ وسوف

يأمرك رأسك بالرأي السديد، لأنه أصغى إلى الجميع. ولن تكون قادراً حتى على القيام بعمل غير معقول، لأن الأفعال غير المعقولة تحدث بسبب الكبرياء والثقة الزائدة بالنفس. لكن التواضع المسيحي سيخلصك في كل مكان ويبعد عنك فقدان الإحساس بالواقعية الذي يخيم على الكثير من الأشخاص الأذكياء الذين، بعد أن عرفوا نصف الأمر فقط، يعتقدون أنهم عرفوا كل شيء، ويندفعون بتهور للعمل، لكن، للأسف، حتى لو بدا لنا أننا نعرف المسألة تماماً، قد يكون ثمة نصف كامل غير معروف لنا. كلا، ليبعد الله عنك هذا العمى الفادح. فما الذي يُخيفك في القوقاز؟

أما إذا كنت ترغب أن تكون كالسابق حاكماً عاماً في مكان ما داخل روسيا – فإن الحكمة المسيحية نفسها ستظلّل عليك. إنّي أعلم جيداً أنّ من الصعب الآن الحكم داخل روسيا – أكثر صعوبة من أيّ وقت مضى، وربما أكثر صعوبة مما في القوقاز. فثمة الكثير من الاستغلال؛ إذ استشرى هذا الجشع الذي لا توجد وسيلة بشرية لإبادته. وأعلمُ أيضاً أنّ مساراً آخر غير قانوني من الإجراءات قد تشكل إلى جانب قوانين الدولة وتحول بالفعل إلى شبه قانوني، إلى درجة تظل معها القوانين من أجل المظاهر فقط؛ وسيصاب الرجل الحصيف بالدوار بمجرد أنْ يلقي نظرة ثاقبة عن كثب إلى الشيء الذي ينظر إليه الآخرون نظرة سطحية من دون أنْ يروا فيه أيّ شيء. لذا ينبغي عليك هنا أنْ تتصرف بحكمة. سيجبرك الحلم المسيحي هنا أيضاً على عدم الانغماس في استنتاجات العقل المتكبر، ويجعلك تنظر من حولك بتزوٍّ. وعندما تعرف ما هي التأثيرات العديدة الخارجية التي يتعرض لها كل فرد الآن وكيف يتعامل الجميع مع أداء واجبه، ستشعر أولاً بالفضول للتعرُّف على كل من يشغل المناصب الرئيسة، وللتعرُّف عليه من جميع جوانب حياته المنزلية والعائلية، وعلى أسلوبه في التفكير وميوله وعاداته. لا تستخدم الجواسيس من أجل ذلك. كلا، بل اسأله نفسه. سيخبرك بكل شيء وسيتحدث معك، لأنّ في وجهك ثمة شيئاً يوحي بالثقة للجميع؛ بمساعدة هذا، ستعرف ما لن يعرفه الصاخب الوقح أبداً، أو ما يسمى المُقرَّع. لا تضطهد أحداً بتهمة الظلم على نحو منفصل حتى تظهر أمامك بوضوح السلسلة بأكملها، التي يمثل الحلقة المطلوبة فيها الموظف الذي لاحظته. إنك تعلم أنّ الخطايا قد شملت الجميع الآن، إلى حدٍّ لا يمكن معه بأي حال من الأحوال أن يعرف المرء في البداية على من يقع اللوم أكثر من غيره. هناك مذنبون أبرياء وأبرياء مذنبون. لذلك، ينبغي عليك الآن أنْ تكون أكثر حذراً وتحرُّزاً من أي وقت مضى. ابدأ في النظر عن كثب إلى روح الشخص، واعلم أنها مفتاح كل شيء. ينبغي الآن معرفة الروح بالذات، وبدون ذلك لا يمكن فعل أيّ شيء. ولا يعرف الروح سوى ذلك الذي بدأ العمل على روحه، كما تفعل أنت ذلك الآن. إذا ما عرفت المحتال ليس بوصفه محتالاً فقط، بل وبوصفه إنساناً كذلك، وإذا ما أدركت كل قوته الروحية،

التي وهبت له من أجل الخير والتي تحولت إلى شرٍّ أو لم يستخدمها على الإطلاق، فستكون قادراً من خلال ذلك على أنْ تلومه بشدة لدرجة أنه لن يجد مكاناً يختبئ فيه من الخجل من نفسه. وستتخذ القضية على الفور منحًى مختلفاً إذا أظهرتَ للفرد بأيّ شيء هو مذنب بحق نفسه ذاتها، لا بحق الآخرين فقط. هنا ستهزه كلّه هزّاً عنيفاً لدرجة تظهر لديه الشجاعة فوراً ليكون شخصاً آخر، وعندها فقط ستشعر بمدى نُبل سلالتنا الروسية، حتى في المارقين. ستكون وظيفة الحاكم العام الحالية بالنسبة لك مختلفة تماماً عنها في السابق. خطؤك الرئيس في إدارتك السابقة والذي كان مفيداً للغاية، على الرغم من حقيقة أنك تستهجنه وتذمّه، يكمن، في رأيي، في كونك لم تحدّد لنفسك بشكل صحيح جوهر هذه الوظيفة. لقد توليت منصب الحاكم العام كرئيس دائم وحاكم مالك للمحافظة، والذي يمكن الشعور بتأثيره المفيد في المحافظة من خلال المكوث الطويل الأمد في مكان واحد فقط. لقد عرّف أحد معارفنا من رجال الدولة هذا المنصب على النحو التالي: «الحاكم العام هو وزير داخلية واقف على الطريق». هذا التعريف أكثر دقة وأكثر انسجاماً مع ما تطلبه الحكومة نفسها من هذه الوظيفة. إنّ هذا المنصب مؤقت أكثر منه دائم. الحاكم العام تبعثه الحكومة من أجل تسريع نبض الدولة داخل المحافظة، ومن أجل تعجيل حركة الإنتاج الحكومي في دوائر المحافظة، سواءً المترابطة مع بعضها البعض أو المستقلة التابعة لإدارة وزارات منفصلة، وإعطاء دفعة لكل شيء، ومن أجل أنْ يخفف من خلال صلاحياته الصعوبات التي تواجه العديد من الدوائر في علاقاتها مع الوزارات البعيدة من دون إدخال أي عناصر جديدة ومن دون تقديم أي شيء من عنده، ويجعل كل شيء يدور بسرعة أكبر ضمن القوانين والحدود المعيّنة والمعلومة. لقد أخذتْ على عاتقك هذه السلطة التي تتمثل بالإشراف من الأعلى على ما هو موجود بالفعل ومؤسّس وجعلتها بمثابة التزام شاق من التزامات الحاكم الذي يجب عليه شخصياً أنْ يراوغ في الاقتصاد ويتحمل جميع المصاريف الصغيرة؛ لقد استوليتْ على جزء مما يجب أن يكون من مهام المحافظ وليس من مهام الحاكم العام، وبهذا قللتْ من أهمية منصبك الأعلى. لقد حسبتْ منصبك باقياً مدى الحياة. فأردتْ أن تترك وراءك نصباً تذكارياً لإقامتك من خلال مؤسساتك الشخصية. إنه طموح رائع، ولكن لو كنت آنذاك على ما أنت عليه الآن، أيْ مشبعاً بالروح المسيحية أكثر، لاعتنيتْ بنصب تذكاري آخر، أي بتمهيد الطرق وتشييد الجسور وجميع أنواع المواصلات وترتيبها ببراعة كما رتبت أيّ عمل ضروري حقاً؛ ولكن تمهيد العديد من الطرق الداخلية، التي ما زالت حتى يومنا هذا تحجز الإنسان الروسي في سعيه من أجل التطوير الكامل لقوته والتي تمنعه من استخدام الطرق وجميع مظاهر التشكيلات الأخرى، التي نعتني بها بجدٍّ – هي قضية ملحة. عندما كان بوشكين يرى أنّ الاهتمام ليس بشأن الشيء الرئيس، بل بشأن ما ينبثق من الشيء الرئيس، كان

يعبر عنه عادة بالمثل: «إذا كان لديك ما يُفيد فستجد من يَرغب باقتنائه». فالجسور والطرق وجميع وسائل النقل ليست سوى وسائل يُرغَب باقتنائها. المهم أنْ توجَد المدن، أما تلك الوسائل فتأتي من تلقاء نفسها. في أوروبا، لم يهتموا بها كثيراً، ولكن بمجرد ظهور المدن، ظهرت الطرق من تلقاء نفسها: مهّدها الناس العاديون بأنفسهم من دون أيّ مساعدة من الحكومات، والآن هناك الكثير منها لدرجة أننا بدأنا نسأل بعضنا البعض بجدية: «ما الحاجة من سرعة المواصلات هذه؟ ما الذي اكتسبته البشرية من هذه السكك الحديدية وجميع أنواع الطرق، وما الذي اكتسبته في جميع أنواع تطورها، وما الفائدة من حقيقة أنْ بعض المدن قد افتقرت، ومدناً أخرى صارت أسواقاً مزدحمة وزاد عدد المتسكعين في جميع أنحاء العالم؟» كان يمكن أنْ تبدأ في روسيا كل هذه الأشياء السيئة من تلقاء نفسها منذ مدة طويلة، مع وسائل الاسترخاء التي لا توجد مثلها في أوروبا، لو اهتم الكثير منا أولاً بالشؤون الداخلية كما ينبغي. قال المخلص: «لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ»(60). كانت مآثرك فيما يخص الأخلاق أكثر أهمية بكثير. إنْ جميع مَن سمعتهم يتحدثون باحترام عن الأوامر التي صدرت منك؛ يقول الجميع إنك استأصلتَ الكثير من الأكاذيب، وإنك عيّنت الكثير من الموظفين النجباء والرائعين حقاً. لقد عرفتُ هذا بنفسي، بالرغم من أنك لم تخبرني عنه بسبب تواضعك. لكنك كنت ستفعل المزيد لو تذكرتَ حينها أنّ منصبك مؤقت وأنه لا ينبغي عليك الاهتمام بأن يكون كل شيء على ما يرام في عهدك فقط، بل كان عليك على وجه التحديد أنْ تهتم بأن يكون كل شيء على ما يرام بعدك. كان عليك أن تفكر باستمرار أنّ بعدك سيتسنّم هذا المنصب خلفٌ ضعيف وعديم الموهبة، والذي ليس لن يدعم الترتيب الذي أقمته فحسب، بل وسيفسده، ولهذا كان عليك منذ البداية أنْ تفكر في التصرف بحزم وتقوية ما فعلته بإحكام لدرجة أنّ مَن يأتي بعدك لا يمكن أن يتراجع عما قد وجُهتَه. كان عليك أن تجتث الشرّ من الجذور، لا أنْ تقطعه من الأغصان، وتعطي زخماً للحركة العامة لكل شيء، حتى تعمل الآلة بعدك بمفردها، بحيث لا تكون هناك حاجة للمشرف إلى الوقوف فوقها، وبذلك فقط كان بإمكانك أنْ تشيّد نصباً أبدياً يخلد مدة عملك حاكماً عاماً. إنّي الآن أعلم أنك ستتصرف بشكل مختلف تماماً، لذا لا تهمل هذا المنصب بأي شكل من الأشكال إذا ما عُرِضَ عليك مرة أخرى. لم يحدث من قبل أن كانت أهمية وحاجة إلى الحاكم العام كما هي اليوم. سأذكر لك عدداً من المآثر التي لا يمكن لأحد أن يفعلها الآن، باستثناء الحاكم العام.

أولاً: وضع كل وظيفة ضمن حدودها القانونية واطلاع كل موظف من موظفي المحافظة على مجال وظيفته بشكل كامل. هذا العمل ليس عبثاً. ففي الآونة الأخيرة، تجاوزت جميع وظائف المحافظة تقريباً بطريقة غير محسوسة نطاق وحدود صلاحياتها التي حددها القانون. بعضها انكمشت وضاقت للغاية، والبعض الآخر امتدت في العمل على حساب غيرها؛ وأُضعِفت

الوظائف المباشرة بسبب إدخال العديد من الوظائف غير المباشرة والمؤقتة. وصار المرء في الآونة الأخيرة يشعر بشكل خاص بصلاحيات وبانبساط اليد في الوظائف التي ينبغي فيها عرقلة العمل، وبغلّ اليد في الوظائف التي ينبغي فيها المساعدة على دفع العمل. وأصبح من الصعب الآن إعادة أيّ وظيفة إلى نطاقها القانوني لأنّ الموظفين أنفسهم أخطؤوا في فهمهم لها. فقد استلموها عن طريق الميراث من السلف بالشكل الذي أعطاها إياهم، فصاروا يتصوّرونها جميعاً بشكل أو بآخر بهذه الصورة، وليس بصورتها الأصلية، التي تكاد أن تخرج من أذهان الجميع. ولهذا السبب، أراد العديد من الرؤساء ذوي النوايا الحسنة وحتى الأذكياء إلغاء أو حتى تغيير تلك الوظائف التي كان ينبغي إعادتها ببساطة إلى مهامها فحسب. لا يقدر على تنفيذ هذا العمل إلا رئيس أعلى صاحب صلاحيات كاملة، إذا لم يتجاهل الخوض في جوهر أي وظيفة بنفسه. إنّ جميع وظائفنا في صورتها الأصلية رائعة وأُنشِئت مباشرة لتتلاءم مع بلادنا. لنتأمل خصّيصاً في جهاز المحافظة. فالشخص الأول هو المحافظ، الذي تتجسد سلطته في عدة أشكال.

إنه الرئيس والحاكم المفوض في كل ما يتعلق بإدارة الاقتصاد والشرطة في جميع أنحاء المحافظة، سواء إدارة المدن، وأقصد هنا كل ما يتعلق بالهيكل الداخلي للمدن ومحتوى نظامها، وإدارة الأرياف، التي تشمل كلّ ما يحدث في الأراضي الواقعة خارج المدن: جباية الضرائب، وتعيين أعمال السخرة، وشق الطرق، والبناء والتصليح بكافة أنواعه. في الحالة الأولى، يكون رئيس شرطة المحافظة ورؤساء البلديات في جميع المدن تحت تصرفه الكامل والمباشر؛ وفي الحالة الثانية – رؤساء شرطة الأقضية وممثلو محاكم الأرياف الذين يرتبطون به من خلال إدارة المحافظة، التي تشكّلت بروح الإدارة الجماعية التي فيها مستشارون، وليس في شكل دواوين خاصة فيها سكرتير، لذا فإنّ المسؤولية في أيّ إساءة استعمال كبيرة للصلاحيات من طرف المحافظ تقع حتماً على عاتق المستشارين والموظفين، لأنه محدّد في جميع صلاحياته.

إنه أكثر من مجرد موظف وشاهد على إجراءات الأعمال في الدوائر الحكومية العامة الأخرى المستقلة عنه تماماً والتي تقع تحت إدارة وزاراتها المعنية؛ إذ يجب أنْ يكون حاضراً إذا ما أجرت هذه الدوائر الحكومية أيّ معاملات والتزامات، سواء فيما يتعلق بإيجار أو شراء أراضي الدولة أو البحيرات أو بشكل عام فيما يتعلق بجميع عمليات البيع والشراء وتنفيذ الشروط عليها. ولا يمكن إبرام أي عقود ومعاملات حكومية من دون حضوره الشخصي. لذا، فإنّ الدوائر الحكومية غير التابعة لإدارته إطلاقاً فيما يتعلق بمعاملاتها الداخلية لن تقع من خلال حضوره في أيّ مسار لاستغلال الوظيفة.

إنّ جهاز العدالة كله، بطريقة ما مستقل عنه: فجميع المحاكم في الأقضية، ومرجعها الأعلى – لجنة الرقابة، التابعة بشكل كامل إلى الوزارة المعنية، مستقلة عن المحافظ، ولكن في جميع مسارات الظلم تكون في كل خطوة من خطواتها مقيّدة من طرف المحافظ، الذي خلال جولاته في جميع أنحاء المحافظة، التي تحدث مرتين على الأقل في السنة، له الحق أنْ يطل على المحكمة ويطلب بكل ثقة قضيتين أو ثلاث قضايا من تلك التي جرى البت فيها، ويأخذها معه كي يتحقق منها عنده في المكتب مع سكرتيره، وبهذا الشكل يثير فزعهم كلهم... باختصار، مع إنه لا يمتلك أيّ سلطة على الدوائر الحكومية المرتبطة برؤساء آخرين، ولكن لديه الحق في وقف سوء استخدام السلطة في أيّ دائرة، أينما كانت.

ويمكن أن يكون للمحافظ تأثير على طبقة النبلاء من الناحية الأخلاقية فقط. فقد ترتّبت ممارسة اتصالاته الرسمية مع النبلاء من خلال ممثلهم الخاص، قيّم (شيخ) النبلاء في المحافظة، وبالتالي من خلاله وحده يتوافق معهم جميعاً؛ هنا تظهر بوضوح حكمة المشرع، لأنه بخلاف ذلك لن تكون ثمة إمكانية له للتواصل معهم والتوافق مع الجميع، مع مراعاة الاختلاف في التنشئة والأخلاق وطرق التفكير وتنوع الطباع التي لا تُعدّ ولا تُحصى، والتي ليس لها مثيل عند أيّ طبقة من طبقات النبلاء الأوروبيين، والتي انحصرت في نبلاء بلادنا فقط. إنّ رتبة قيّم النبلاء التي تكاد تكون مساوية لرتبة المحافظ، تعطيه الحق في المكانة الأولى في المحافظة بعد المحافظ، وهذا الأمر بالذات يشير إلى الحاجة إلى أن يكونا صديقين، وبخلاف ذلك يتعرض كلاهما للحرج في علاقاتهما مع علية القوم وللمضايقة في المجال الوظيفي. فمثلاً، وظائف رئيس الشرطة وأعضاء المحكمة، الذين ينتخبهم النبلاء، تابعة بشكل كامل إلى المحافظ، وهذا يشير إلى ضرورة أنْ يسندا بعضهما البعض. فمن خلال التهديد باسم المحافظ، يمكن لقيّم النبلاء أن يفعل الكثير عندما لا تكفي سلطته؛ مثلما يمكن للمحافظ، من خلال قيّم النبلاء، أن يؤثر بشكل أكثر فعالية وقوة على النبلاء.

يمكن أن تحدث الأخطاء في كل مكان، ويمكن أن تتسلّل الأكاذيب إلى كل مكان؛ والمحافظ نفسه قد يكون له خطايا. وهذا الأمر محتمل الوقوع: لذا هناك شخص منعزل، مستقل عن الجميع، يلزم نفسه بالابتعاد عن الجميع، وحتى عن المحافظ نفسه. هذا الشخص هو المدعي العام الذي يمثل عين القانون والذي من دونه لا يمكن لورقة واحدة أنْ تخرج من المحافظة. ولا يمكن لقضية واحدة في جميع الدوائر الحكومية في المحافظة أنْ تتخطاه وتمر. لا يُتخذ قرار بأيّ قضية إذا لم يحدد كلمته على جميع صفحاتها: ويقرأها. إنه لا يخضع لأحد في المحافظة كلها. ولا يقدم تقريراً عن عمله لأي شخص باستثناء وزير العدل الذي يكون على اتصال مباشر معه فقط، ويمكنه دائماً تقديم اعتراض على كل ما يحدث في المحافظة.

باختصار، كل شيء مكتمل، والحكمة التشريعية تُسمع في كل مكان، سواء في قرارات السلطات نفسها أو في اتصالها مع بعضها البعض. أنا لا أتحدث حتى عن تلك المؤسسات التي انتشر فيها بعد النظر الحكومي إلى أبعد حدٍ، سأكتفي بذكر محكمة الضمير(61) فقط، التي لا أعرف لها مثيلاً في دول أخرى. إنها حسب ما أرى، قمة المروءة والحكمة والمعرفة الروحية. هذه المحكمة مختصة بكل تلك الحالات التي تكون فيها لمسة القانون قاسية وثقيلة؛ وبجميع القضايا المتعلقة بالقاصرين (الأحداث) والمرضى العقليين؛ وبكل القضايا التي لا يمكن أن يبتّ بها إلا ضمير الإنسان، والتي يمكن أن يكون فيها أكثر القوانين عدلاً – غير عادل؛ وبكل ما يجب إنهاءه ودياً وسلمياً بالمعنى المسيحي النبيل، من دون مماطلة وتسويف في المراجع العليا. يا لحصافة مَن جعل اختيار قاضي محكمة الضمير يعتمد على النبلاء، الذين عادة ما يختارون لهذا المنصب الشخص الذي يراه الجميع رجلاً ودوداً وقنوعاً. وكم هو جميل كذلك أنه لا يحصل مقابل ذلك على أيّ راتب ولا مكافآت، أي ليس هنا ثمة طعم دنيوي للإنسان. ذات مرة أردت حقاً أن أشغل هذه الوظيفة. فما أكثر القضايا الخلافية المعقدة التي يمكن حلها. سيتجاوز المتقاضون مصالحهم الخاصة، ويحيلون القضية بأنفسهم إلى محكمة الضمير، بمجرد أنْ يشيع بين الناس أنّ القاضي يحكم حقاً وفقاً لضميره وقد اشتهر بحكمة حكمه الإلهي. فمَن منا، يا ترى، لا يريد أن يتصالح؟

باختصار، كلما نظرتَ إلى الجهاز الإداري في المحافظات بتمعّن، كلما تندهش أكثر من حكمة المؤسسين: تشعر بأن الله نفسه قد بناه بشكل غير مرئي بأيدي القياصرة. كل شيء مكتمل، وكافٍ، كل شيء مرتب بالضبط من أجل التقدّم في أعمال الخير، ومساعدة بعضنا البعض، والحيلولة دون سوء استخدام السلطة. وإنّي حتى لا أستطيع أنْ أجد سبباً يستدعي وجود موظف إضافي؛ فليس ثمة حاجة إلى أيّ شخص هنا في وظيفة جديدة، وإنّ كل بدعة مُستحدَثة، هي إدخال غير ضروري. وفي غضون ذلك، كان ثمة حكام محافظات، كما تعرف بنفسك، أضافوا إلى هذا كله الكثير من الموظفين المختلفين في مهام خاصة، والعديد من اللجان المؤقتة ولجان التحقيق، وفكّكوا وجزّأوا نشاط كل وظيفة وشوّشوا على الموظفين حتى فقدوا المفاهيم الأخيرة حول الحدود الدقيقة لمجال عملهم. حسنٌ أنك لم تفعل هذا، لأنك حتى في ذلك الحين فهمتَ هذا الأمر أفضل من غيرك. إنّك تعلم جيداً أنّ تعيين موظف جديد من أجل تقييد الأول في سرقته يعني جعل اثنين من اللصوص بدلاً من واحد. وبشكل عام، نظام التقييد هو أتفه نظام. لا يجوز تقييد الإنسان بإنسان آخر؛ فبعد عام، ستكون ثمة حاجة لتقييد ذلك الذي عُيّن من أجل التقييد وبعد ذلك لن تكون نهاية للتقييد. إنّ هذا النظام الفارغ والتافه، مثله

مثل جميع الأنظمة السلبية الأخرى، يمكن أن يتشكل فقط في الدول الاستعمارية(62)، والتي تكونت من مختلف أنواع أوباش الناس الذين ليس لديهم نقاء وطني وروح شعبية، الذين لا يعرفون نكران الذات أو النبل، ولا يهتمون إلا بالمكاسب الشخصية النفعية. من الضروري إظهار الثقة بالإنسان النبيل، وبدون ذلك لن يكون هناك أي نبل على الإطلاق. من يعلم أنه يُنظر إليه بارتياب، ويُعَدّ محتالاً ويوضَع عليه مَن يراقبه من جميع الجهات، فذلك تُشَلّ يده قسراً. يجب أن تُفَكّ أيدي الجميع، لا أنْ تُقَيَّد؛ يجب التشديد على أن يكون كل إنسان حارساً على نفسه، لا على أن يمسكه الآخرون؛ وعلى أنْ يكون أكثر صرامة تجاه نفسه عدة مرات من صرامة القانون نفسه، وأنْ يرى بنفسه بأيّ شيء هو دنيء أمام وظيفته؛ باختصار – حتى يتعرف على أهمية وظيفته السامية. ولا يمكن لأحد أنْ يفعل ذلك سوى الحاكم العام وحده، إذا لم يتجاهل فهم كل وظيفة في جوهرها الحقيقي، وأنْ يخدم ذهنياً لبعض الوقت في مكان الموظف الذي أراد إفهامه المعنى الكامل لوظيفته. نتيجة لذلك، اجعل جميع علاقاتك مع الموظفين شخصية، من دون أيّ سكرتيريين ومراسلات ورقية ميتة، وبهذا اجعل مكتبك الخاص صغيراً جداً ولا يشبه على الإطلاق تلك المكاتب الفظيعة الضخمة التي يمتلكها الرؤساء الآخرون. تلك المكاتب الضخمة، كما تعلم بنفسك، تسبب الكثير من الضرر لأنها تسلب العمل من جميع الموظفين، وفجأة تشكّل مرجعية جديدة خاصة من نوعها، وبالتالي، تُنشئ صعوبات جديدة، وتسمح لا إرادياً بتكوين شخصية مخولة جديدة ذات صلاحيات، أحياناً غير مرئية لأحد على الإطلاق، في شكل سكرتير بسيط، ولكن ستمر القضايا كلها من خلال يديه؛ وسيكون لدى السكرتير عشيقة ما، بسببها تُثار المؤامرات والمشاجرات، ومعها شيطان الاضطراب نفسه، الذي يظهر في أيّ وقت؛ وسينتهي الأمر، بالإضافة إلى إحداث اضطرابات وصعوبات جديدة، إلى التهام مبالغ لا تُحصى من أموال الدولة. ليجنبك الله إنشاء مكتب خاص. وتحدّث مع الجميع بصراحة كما تتحدث مع نفسك. كيف يمكن للمرء أن يهمل محادثة مع شخص ما، خاصة إذا ما كان الحديث عزيزاً عليه شخصياً، ويدفع إلى أداء مهامه وواجباته وقريب من روحه؟ كيف يمكن أنْ تستبدل بمثل هذا الحديث إشاعات جريدة فارغة وحديث ميت عن كل أنواع الأكاذيب المستمدّة من المجلات الأوروبية الكاذبة؟ يمكن للمرء أن يتحدث عن واجب الإنسان بطريقة يشعر معها المتحدثان كلاهما كأنما يتحدثان مع الملائكة في حضور الله نفسه. تحدث هكذا مع مرؤوسيك، أيْ تحدّث معه حديثاً مفيداً ومُغَذٍّ لروحه! لا تنس أنْ تتحدث باللغة الروسية – لا أعني اللغة التي تُتداول الآن في الحياة اليومية، ولا لغة الكتب، ولا اللغة التي تشكلت من خلال جميع سوء استعمالنا لها، بل تلك اللغة الروسية الحقيقية التي تُستعمَل بشكل غير مرئي في جميع أنحاء الأرض الروسية، على الرغم من اغترابنا في أرضنا، والتي لا تمس قضية حياتنا بعد، ولكن مع ذلك، يشعر الجميع أنها

اللغة الروسية الحقيقية – في هذه اللغة يُطلق على الرئيس اسم الأب. كن معهم كالأب مع أبنائه، والأب لا يستعمل مع أبنائه مراسلات ورقية بل يتحدث مباشرة مع كل واحد منهم. تحدّث بهذا الشكل وعرّف كل واحد بحقيقة وظيفته وستقوم بمأثرة حقيقية.

وهاك مأثرة أخرى، لا يمكن لأحد أن ينجزها باستثناء الحاكم العام، وهي في الوقت الحاضر أمر لا بدّ منه، وليس مجرد أمر ضروري فحسب، أي: إطلاع النبلاء على حقيقة رتبتهم الفعلية. هذه الطبقة جميلة في جوهرها الروسي الحقيقي، على الرغم من القشرة الأجنبية المتزايدة مؤقتاً. لكن النبلاء ما زالوا لا يشعرون بها. فالكثيرون منهم بالكاد يخمنونها، والبعض الآخر يجهل هذا الأمر تماماً، ولا يزال آخرون يحسبون نبلاء الدول الأجنبية مَثلهم الأعلى، ولا يزال قسم آخر منهم لا يسألون أنفسهم حتى هذا السؤال: هل طبقة النبلاء ضرورية للناس في بلادنا؟ إذا ما كان من بينهم ثمة مَن لديهم فكرة مشرقة حول هذا الموضوع، فإن هذه الأفكار لم تنتشر بعد بين الجماهير، والجماهير لا تسمعها. في الآونة الأخيرة، من بين أمور أخرى، نشأ مزاج معيّن من عدم الثقة تجاه الحكومة حتى لدى طبقة النبلاء أنفسهم. فخلال الاضطرابات الأوروبية الأخيرة وجميع أنواع الفِتَن، حاول بعض المُغرِضين بشكل خاص بث إشاعة بين النبلاء في بلادنا مفادها أنّ الحكومة تسعى إلى إضعاف شأن النبلاء والعمل على امتهانهم. وكتب الهاربون والمهاجرون في الخارج وأشباههم من الحاقدين في روسيا مقالات وملؤوا أعمدة الصحف الأجنبية بها بنية زرع العداء بين النبلاء والحكومة: من ناحية، نؤهوا لعاهل روسيا على حزب من بعض البويار (الإقطاعيين الكبار) الخياليين الذين يتحدّون السلطة نفسها، ومن ناحية أخرى، نوّهوا للنبلاء أنّ العاهل لا يوقّرهم ولا يحب هذه الفئة على الإطلاق. أي إنهم أرادوا أن يخلطوا الأمور ويبثوا نوعاً من الفوضى والاضطراب في روسيا حتى يمكنهم من خلالها أن يؤدّوا دوراً ما بأنفسهم. وكانوا يفترضون أنّ التوجس والشك المتبادلين أمر فظيع ويمكن أن يعمل مع مرور الزمن على التسبب بقطع أقدس الروابط. ولكن، الحمد لله، فقد ولّت تلك الأيام التي يمكن فيها لبعض الأوغاد أن يثيروا الفتنة في الدولة بأكملها(63). ظل المشروع مشروعاً خيالياً، ومع ذلك، اندلعت شرارات من سوء التفاهم وعدم الثقة المتبادلة، وأنا أعرف العديد من النبلاء الذين هم على يقين جاد من أنّ العاهل لا يحب طبقتهم، وحتى أنهم يغتمّون بسبب هذا. لذا، ينبغي عليك أنْ تعالج هذه القضية معهم وتشرح لهم الحقيقة كاملة، من دون إخفاء أي شيء. قل لهم إنّ العاهل يحب هذه الطبقة أكثر من أيّ طبقة أخرى، لكنه يحبها بمعناها الروسي الحقيقي، بهذا الشكل الجميل الذي يجب أن تكون فيه وفق روح بلادنا نفسها. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. ألا يحب صبغة شعبه؟ والنبلاء هم صبغة شعبنا، وليس طبقة وافدة من الأغراب. لكن يترتب على ذلك أن يبيّن النبلاء أهمية رتبتهم ويحددوها، لأنها بالشكل الذي هي عليه الآن،

في ظلّ هذا الافتقار إلى الوحدة في روح الجماعة، وهذا التنوع في التفكير والتنشئة والحياة والعادات، وفي ظل هذه الصورة المشوشة للمفاهيم عن أنفسهم، لا يمكنهم إعطاء أي شخص فكرة حقيقية وكاملة عن النبلاء في بلادنا. ولهذا السبب لم يعد بمقدور أيّ حكيم الآن أنْ يعرف كيف يتعامل معهم. ينبغي على النبلاء أنفسهم أن يؤكّدوا أهميتهم الحقيقية والكاملة. وهنا يمكنك أنْ تساعدهم جميعاً مساعدة حقيقية، لأنك بصفتك نبيلاً روسياً وتفهم المعنى السامي لطبقة النبلاء في بلادنا، ستكون أفضل مَن يستطيع شرح ذلك. لا تحتاج إلى كلمات كثيرة لهذا، لأن مبدأ كل ما تحكي لهم عنه موجود في صدرهم. إنّ طبقة النبلاء لدينا تمثل ظاهرة غير عادية بالفعل. فقد تشكّلت في بلدنا بطريقة مختلفة تماماً عنها في البلدان الأخرى. لم تبدأ بمجيء قسري، كأتباع جاؤوا مع قوات المتنافسين الأبديين على السلطة العليا والظالمين الأبديين للطبقة الدنيا؛ لقد بدأت هذه الطبقة لدينا من خلال الخدمة الشخصية للقيصر والشعب والبلاد كلها – الخدمة المبنية على أساس الجدارة الأخلاقية، وليس على القوة. النبلاء في بلادنا ليس لديهم شعور بالتكبر والفخر بأي مزايا لطبقتهم، كما هو الحال في البلدان الأخرى؛ ليس لديهم غطرسة النبلاء الألمان؛ لا أحد يتباهى في بلدنا بسلالته أو بقدم عِرقه، على الرغم من أنّ النبلاء لدينا كرماء المَحتِد، – ولا يتفاخر من بينهم سوى بعض المولعين بأسلوب حياة الإنكليز والساعين إلى محاكاتهم الذين أصيبوا بهذا المرض لمدة من الوقت، أثناء سفرهم عبر إنكلترا؛ ربما، في بعض الأحيان فقط يتباهى شخص ما بسلفه، الذي خدم حقاً عاهله وبلاده خدمة مخلصة؛ وإذا ما تفاخر النبيل بسلف سيئ، فإن إخوانه النبلاء سيسخرون منه على الفور. كلهم يسمحون لأنفسهم بالتباهي بشيء واحد فقط – هو الشعور بنبلهم الأخلاقي، الذي قذفه الله في صدورهم. وإذا كان الأمر يتعلق بإظهار هذا النُبل الداخلي من خلال عمل ما، فلن يتخلف أحد عندنا عن الآخر، حتى لو كان هو نفسه الأسوأ على الإطلاق وعاش طوال عمره بين الوحل والسخام. طبقة النبلاء لدينا، إذا جاز التعبير، كالإناء الذي يحوي هذا النُبل الأخلاقي، والذي يجب أن ينتشر عبر وجه الأرض الروسية بأكملها من أجل نقل المفهوم إلى جميع الفئات الأخرى، ولهذا يطلق على هذه الطبقة السامية اسم صبغة الشعب. فإذا ما قلتُ لهم هذا الشيء الذي أقوله الآن والذي هو حقيقة ناصعة، فافتح أمامهم المجال الذي يتعين عليهم الآن جميعاً أنْ ينقلوا من خلاله أسمائهم إلى الأجيال القادمة ويخلّدوها؛ وإذا ما أريتهم بوضوح أنّ الأرض الروسية بأكملها تطلب المساعدة ولا يمكن تقديم المساعدة لها إلا من خلال مآثر النُبل، وإظهار مآثر النُبل لأولئك الذين اكتسبوا النُبل منذ الولادة، فسترى أنّ قلوبهم تخفق إليك وتقرع قلبك، مثلما تُقرَع الكؤوس أثناء الوليمة. لا تخفِ عنهم شيئاً، اشرح لهم الحقيقة كاملة. لماذا تجعلهم يعرفون الشيء نفسه من الصحف الأجنبية الكاذبة وتترك المستهترين يعبثون بأفكارهم؟ اكشف

لهم الحقيقة ناصعة كاملة. قل لهم إنّ روسيا، في الواقع، تعيسة، وإنّ تعاستها بسبب السرقة والكذب، اللذين لم يستشريا بمثل هذه الوقاحة من قَبل؛ وإن قلب العاهل يتألم ألماً لا يعرفه أحد منهم ولم يسمع بمثله ولا يمكن أن يقدّر مداه. وكيف لا يكون كذلك وهو يرى هذه الزوبعة من التشابكات المتزايدة التي بدأت تحجب الجميع عن بعضهم البعض وكادت تحرم كل واحد منهم من مجال عمل الخير الحقيقي لبلاده؛ ويرى الظلمة الجاثمة على كل شيء وانحراف الجميع عن روح بلادهم؛ ويرى، أخيراً، هؤلاء المحتالين المخادعين، باعة العدل واللصوص، الذين انقضّوا، مثل الغربان، من جميع الجهات لينقروا أجسادنا وهي حية ويجنوا في المياه العكرة أرباحهم الدنيئة. سترى كيف يختلج النبلاء لدينا عندما تحكي لهم ذلك، وبعده تبيّن لهم أنه يتعين عليهم الآن جميعاً أنْ يقدّموا خدمة نبيلة وراقية حقاً للقيصر، أي: أنْ يقفوا وقفة شهامة مثلما فعلوا ذات مرة عندما اصطفّوا ضد العدو، وكما يقفون الآن بشهامة في المواقع والوظائف غير المغرية، التي يستهجنها الناس الوضيعون. ولن تكون ثمة إشارة انسحاب لأولئك الذين يرغبون في الانضمام إلى الخدمة وشغل المواقع الضئيلة الشأن. وبعد أن يخدموا، لن يطلبوا لأنفسهم أيّ جزاء أو امتيازات، ولا حتى أفضليات ومزايا، وسيكفيهم أنهم أظهروا ميزتهم الداخلية السامية. باختصار، أظهر لهم سمو رتبتهم، وسترى مدى طبيعتهم النبيلة. يمكنك أيضاً أن تشير لهم إلى العمل العظيم الثاني الذي يمكنهم فعله من خلال تعليم الفلاحين الموكلين إليهم بطريقة تجعلهم نموذجاً لهذه الطبقة بالنسبة لأوروبا بأكملها، لأن الكثيرين في أوروبا الآن يفكرون بجدية في طريقة الحياة الأبوية التقليدية القديمة، التي اختفت عناصرها في كل مكان، باستثناء روسيا، وبدؤوا يتحدثون علناً عن مزايا حياتنا الفلاحية، بعد أن عانوا من عجز جميع المؤسسات والإدارات الحالية، من أجل تحسينها. لذلك، يجب استمالة النبلاء لكي ينظروا نظرة فاحصة إلى علاقة الإقطاعي مع الفلاحين وفق الطريقة الروسية الأصلية، وليس تلك العلاقات الزائفة والكاذبة التي تشكلت أثناء إهمالهم المخزي لضياعهم التي سلّموها في أيدي المستأجرين والمشرفين؛ ولكي يعتنوا بضياعهم حقّ الاعتناء، كما يعتنون بذويهم وأقاربهم، وليس كغرباء، وينظرون إلى الفلاحين كما ينظر الآباء إلى أطفالهم. من خلال هذا فقط يمكنهم الارتقاء بطبقة الفلاحين إلى الحالة التي يجب أن تكون فيها. فالفلاحون في بلادنا لا يُسئمون، كما لو كان عن قصد، أحراراً أو عبيداً، بل «خريستياني» المُشتقة من اسم المسيح نفسه. كل هذا يمكن أنْ يفسره الحاكم العام للنبلاء إذا ما فكّر في الأمر مسبقاً وأدرك هو شخصياً الأهمية الكاملة للنبلاء في بلادنا. وهذه ستكون بالنسبة لك المأثرة الثانية.

وإليك المأثرة الثالثة، التي لا يستطيع أحد فعلها، باستثناء الحاكم العام. تعاني جميع الدول الأوروبية الآن من التعقيد غير العادي لجميع القوانين واللوائح. ففي كل مكان، يمكن ملاحظة

ظاهرة واحدة بارزة للعيان، وهي أنّ القوانين المدنية بالذات قد خرجت عن الحدود المرسومة لها واقتحمت مجالات ليست من اختصاصها. فمن ناحية، تدخّلت في مجال كان محكوماً بالأعراف والعادات الشعبية مدة طويلة؛ ومن ناحية أخرى، اقتحمت مجالاً ينبغي أنْ يبقى إلى الأبد تحت إدارة الكنيسة. لم يحدث هذا بالقوة: حدث فيض القوانين المدنية من تلقاء نفسه، إذ صادف في كل مكان مناطق فارغة لم تُشوَّر. لقد قوّضت الموضة الأعراف، وفتّت انحراف رجال الدين عن الحياة المباشرة باسم المسيح جميع العلاقات الخاصة لكل فرد في حياته الشخصية. فأخذت القوانين المدنية تحت رعايتها كلا هذين المجالين، مثلما يؤخذ الأيتام الذين يُتخلّى عنهم، ولهذا السبب تعقّدت للغاية. ومع ذلك، فهي في حدّ ذاتها ليست فضفاضة على الإطلاق، فإذا ما أُعيد ما يجب أن ينتمي قانوناً إلى الأعراف الشعبية وما يجب أن يدخل في الحيازة الأبدية للكنيسة، عندئذ يمكن أن تُجمّع في سجل واحد فحسب يشمل الانحرافات الكبرى عن النظام الاجتماعي والعلاقات الحكومية البحتة فقط. يرى كل فرد الآن أنّ الكثير من الأفعال والإساءات وجميع أنواع الافتراء قد حدثت على وجه التحديد لأن الفلاسفة والمشرعين الأوروبيين بدؤوا في تحديد جميع حالات الانحراف المحتملة مسبقاً بأدق تفاصيلها، وبالتالي فتحوا للجميع، حتى للشرفاء والخيّرين الطريق إلى الدعاوى القضائية الظالمة التي لا نهاية لها، والتي كانوا يحسبونها سابقاً أكثر الأعمال عيباً، ومع هذا يخوضون بها الآن بجرأة بعد أنْ رأوا في بعض بنود القرارات فرصة وأملاً في الحصول على ممتلكات فقدوها ذات مرة، أو ببساطة مجرد فرصة للطعن في حيازة شخص آخر. وقد صار أحدهم يتكبد المصاعب، مثل بطل في هجوم، ولا ينظر إلى خصمه على الإطلاق، حتى لو فقد بسبب هذا كلّ ما يملك، وحتى لو تاه في العالم مع أسرته كلها. وصار الإنسان الشهم يرتكب الآن من دون خجل أمام الجميع فعلاً قاسياً وحتى يفتخر به، في حين أنه كان سيخجل من مجرد التفكير في ما إذا وضعهما خادم الكنيسة كلاهما وجهاً لوجه أمام المسيح، وليس أمام المكاسب الشخصية الدنيئة، وإذا ما حدث هذا، وهو ما يجب أن يكون، سنرى أنّ الكنيسة (وليس القانون المدني) ستصالح الإنسان مع الإنسان في جميع الأمور الشائكة والعرضية والغامضة، باختصار – في جميع تلك القضايا التي يوجد فيها تهديد بالمماطلة في الدوائر الحكومية. ولكن السؤال هو: كيف نفعل ذلك؟ ماذا نفعل حتى يعطى للقانون المدني ما هو من اختصاص القانون المدني فقط؛ وللأعراف ما يجب أن يبقى في سلطة الأعراف؛ وأنْ يؤكّد للكنيسة ما يجب أنْ يكون في حوزة الكنيسة إلى الأبد؟ باختصار، كيف يُعاد كل شيء إلى مكانه؟ في أوروبا يستحيل فعله: ستُسفك الدماء فيها بسبب ذلك، وستنهكها صراعات عبثية ولن تتمكن من فعل شيء. أما في روسيا فثمة إمكانية لذلك؛ ففي روسيا يمكن أن يحدث بشكل غير محسوس – ليس عن طريق بعض البِدَع

والانقلابات والإصلاحات، ولا حتى من خلال الاجتماعات، ولا من خلال اللجان، ولا بالنقاشات ولا عن الثرثرة والكلام في المجلات؛ ففي روسيا، يمكن لأي حاكم عام أنْ يبدأ بتفعيله في المقاطعة التي عُهِدَت إليه إدارتها، وبكل بساطة: ولا يفعَله بشيء سوى بسلوكه الحياتي. بفضل سلوك حياته الأبوي وطريقته البسيطة في التعامل مع الجميع، يمكنه طرد الموضة بسلوكياتها الفارغة وتقوية العادات الروسية الحسنة في طبيعتها والتي يمكن الاستفادة منها في المعيشة اليومية الحالية. ويمكن أن يكون لها تأثير قوي على بساطة علاقات سكان المدن فيما بينهم، والإقطاعيين فيما بينهم على حدٍّ سواء؛ وسيؤدي إنهاء هذا التعقيد في العلاقات بين الناس، كما هو الحال اليوم، بالتأكيد إلى تقليل الخلافات والاستياء التي نشأت، مثل الزوابع، بين سكان المدن. ومثلما يكون للحاكم العام تأثير على وضع العادات، بإمكانه أن يؤثر كذلك على التأسيس القانوني للكنيسة في الحياة الحالية للإنسان الروسي: أولاً، من خلال مثال حياته الشخصية، وثانياً، من خلال التدابير نفسها، لا تلك القسرية أو التعسفية، بل الأقوى بعدة مرات من كل التدابير القسرية. يوماً ما سأتحدث معك عن هذا بعدما تتولى هذا المنصب فعلياً، لكن قبل ذلك الوقت سأقول لك هذا فقط: إذا كانت العادة البسيطة أقوى من أيّ قانون مكتوب، فيا ترى ما هي العادة، إذا ما تمعّنت فيها بدقة؟ في بعض الأحيان ليس لها أيّ أهمية في زماننا هذا، ولا أحد يعرف لماذا أُسّست، ولا من أين أتت؛ لا تُعرَف حتى المرجعية التي وافقت عليها؛ في بعض الأحيان يعود أصلها إلى زمن الوثنية، وتتعارض مع المسيحية وجميع عناصر الحياة الجديدة. فماذا لو كانت العادة متأصلة إلى درجة يصعب محوها على مدى سنوات طويلة؟ وماذا لو أُدخِلَت عادة تقوم على العقل، ويعترف بها الجميع بالإجماع ومقدسة من فوق من قبل المسيح نفسه وكنيسته؟ مثل هذه العادة ستستمر إلى أبد الآبدين، ولن تطغى عليها أي قوة، مهما أتت تقلبات على المستوى العالمي. بيد أنّ هذا الموضوع كبير؛ ويحتاج إلى مَن يتحدث فيه بحصافة، وأنا أحمق في هذا المجال. لاحقاً، عندما يساعدني الله ويرشدني، ربما سأقول شيئاً... سيكون لديك الكثير من العمل. استعد لنفسك وتولَّ بحزم منصب الحاكم العام، إذا ما عُرِض عليك. في هذه المرة سوف تؤدي مهامك كما ينبغي، ووفقاً لما تتطلب الحكومة نفسها، أيّ – اندفع بقوة تُنعِش وتُنشِّط المقاطعة بأكملها، وارتقِ بالجميع وشدّ على أيديهم وهينهم، وأعطِ قوة دفع لكل شيء، وبعدها انتقل إلى محافظة أخرى، من أجل فعل الشيء نفسه هناك. سترى بنفسك أنّ هذا المنصب يجب أن يكون بالتأكيد مؤقتاً، وإلا فلن يكون له معنى، لأن الجهاز الإداري الداخلي للمحافظة كافٍ وكامل، ولا داعي لحاكم آخر، باستثناء المحافظ المدني. انطلق في مسعاك بحفظ الله ولا تخشَ شيئاً! ولكن، لو اضطررت إلى شغل منصب آخر، فاتبع القواعد نفسها: لا تنشَ في أيّ مكان أنّك تتواجد فيه لمدة مؤقّتة. رتب الأشياء بشكل يجعلها لا تسير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على ما يرام في عهدك فحسب، بل وبعدك أيضاً؛ حتى لا يتمكن خليفتك من إزاحة أيّ شيء، بل يخطو من دون إرادته ضمن الحدود التي خططتها، ويلتزم بالتوجه القانوني الذي رسمته. سيعلمك المسيح كيف تقوي عملك بحزم وإلى الأبد. كن أباً حقيقياً لجميع المسؤولين التابعين لك وساعد كل واحد منهم على أداء وظيفته بأمانة وصدق. ومدّ يد الأخوّة للجميع ليتحرروا من عيوبهم ومثالبهم. ليكن لديك تأثير على الجميع، ولكن هذا التأثير من أجل أن يكون لكل شخص تأثير على نفسه. واحرص كذلك على ألا يعتمد أحد عليك أكثر من اللازم، كما يعتمد على عكازه الشخصي، ومثلما تعتمد السيدات الكاثوليك على الكهّان المفرّغين، ولا يجرؤن من دون أمر منهم على العبور إلى الغرفة الأخرى من أجل انتظار الاعتراف الكنسي؛ بل ليتذكر الفرد أنّ المربية تُعطى له لمدة محدودة، وليس إلى الأبد، وأنه بمجرد أن يتركه المرشد، عليه أن يعتني بنفسه بعناية أكثر من أي وقت مضى، ويتذكر في كل دقيقة أنّ ليس ثمة الآن من يعتني به، وأنّ يحوي في ذاكرته، مثل شيء مقدس، كل كلمة قيلت له. واحرص كذلك على ألّا يكون بكاء عند فراقك، إذا ما حدث لك أنْ تترك منصبك، فاجعل الجميع يتطلعون إلى الأمام بنشاط وانتعاش أكثر، واحتفظ ليوم الفراق بكل ما وددت قوله في تعليمات للجميع: في هذا اليوم ستكون كل كلماتك مقدسة بالنسبة لهم، وكل ما لم يستسيغوه أو لم ينفذوه من قبل، سيقبلونه الآن وسينفذونه بعدك. أفضل لحظة بالنسبة لي هي وقت الفراق مع أصدقائي؛ كل واحد من أصدقائي، الذي يفترق عني الآن، يفترق بمرح وتُشرق روحه. سوف يؤكد لك ذلك كل الذين فارقوني مؤخراً. وحتى أني متأكد من أنه عندما أموت، سيودعني بمرح كل من أحبني: لن يبكي أيّ منهم وستكون روحه أكثر إشراقاً بعد موتي، مما كانت عليه خلال حياتي. وأقول لك أيضاً كلمة عن الحب والمودة العامة للذات، والتي ينشدها الكثيرون بشدة. إنّ استعطاف الحب للذات أمر غير مشروع ولا ينبغي للإنسان أنْ ينشغل به. احرص على أنْ تحب الآخرين، لا أنْ يحبك الآخرون. مَن يطلب ثمناً مقابل حبه هو حقير وبعيد عن أن يكون مسيحياً. آه، كم أنا ممتن لحقيقة أنّ الله قد غرس في نفسي منذ الطفولة شعوراً غير مفهوم لي بالهرب من أي تدفقات مفرطة، بما فيها اندفاعات الأقارب والأصدقاء سواءً السارة أو المحزنة. الصحيح أنّ الحب الكامل لا ينبغي أن يخص أي شخص على وجه الأرض. يجب أن يوزّع على الرؤساء، وكل رئيس، بمجرد أن يلاحظ أنه يسعى إليه ينبغي أن يحوله في الوقت نفسه إلى الرئيس الأعلى المعين عليه، إلى أن يصل بهذه الطريقة إلى مصدره الشرعي، وسيحوله القيصر المحبوب من الجميع بمهابة إلى الله نفسه.

1845

الموضوع التاسع والعشرون

نصيب أيّهم على الأرض أسمى

(من رسالة إلى أو...وي)

إنّي لا أستطيع أن أقول لك نصيب مَن على الأرض الأسمى، وقسمة مَن الأفضل. قبل ذلك، عندما كنت أكثر غباءً، كنت أفضّل رتبةً على أخرى، لكنني الآن أرى أنّ الجميع يَحسدون على مصيرهم بنفس القدر. سيحصل الجميع على جزاء متساوٍ – سواءً مَن أوكِلَت إليه موهبة وزاد عليها موهبة أخرى، أو مَن أعطي خمس مواهب وزاد عليها خمس مواهب أخرى. وحتى أنّي أعتقد، إنّ قسمة الأول أفضل، على وجه التحديد لأنه لم يكتسب شهرة بين الناس ولم يتذوق طعم المجد الدنيوي الساحر، مثل الأخير. عجيبة هي رحمة الله التي حددت جزاءً متساوياً لكل من أدى واجبه بصدق، سواء كان ملكاً أو أفقر متسول. كلهم هناك سيتساوون، لأن الجميع سيدخلون في غبطة ربهم وسيقيمون عند الله متساوين. بالطبع، المسيح نفسه قال في مكان آخر: «فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ»؛ ولكن بمجرد أنْ أفكّر بهذه المساكن، وأفكّر بالكيفية التي تكون فيها المنازل عند الله، تنهمر دموعي ولا أستطيع أنْ أمسك نفسي عن البكاء لأني أعلم أنني لا أستطيع أنْ أقرر أبداً أيها أختار لنفسي، لو كنت فعلاً أستحق دخول ملكوت الله وأسأل: «أيّ منزل تريد؟» فإنّي أعرف ما سأقوله: «آخر منزل، يا رب، المهم أنْ يكون منزلك!» يبدو أنّ المرء لا يرغب في شيء أكثر من خدمة المختارين الذين استحقوا التأمل في مجد الله بكل جلاله. ليتني أجثو فحسب عند أقدامهم وأقبّل أقدامهم المقدسة!.

1845

الموضوع الثلاثون

كلمة نصح

لن أردّ على رسالتك الآن؛ الرد سيكون فيما بعد. إنّي أرى وأسمع كل شيء: آلامك كبيرة. أنْ تتحفل بمثل هذه الروح الرقيقة هذه الاتهامات الوقحة؛ وأنْ تعيش بمثل هذه المشاعر السامية وسط هؤلاء الناس الوقحين والحُزق، مثل سكان البلدة المبتذلة التي استوطنتها، الذين يمكن بلمسة واحدة غليظة غير محسوسة منهم أنْ يحطموا، حتى بدون علمهم، أفضل جواهر القلب، ويدقّوا بمخلب دبٍّ على أنحف أوتار الروح، التي وهِبت لتنشِد أصواتاً سماوية، لكي يشوّشوا عليها ويقطعوها، وأنْ ترى، بالإضافة إلى هذا كله، الرجاسات التي تحدث كل يوم وتتحمل الازدراء من المحتقرين! إنّي أعرف أنّ هذا كله صعب. وإنّ معاناتك الجسدية ليست أقل ألماً: أمراضك العصبية وحزنك ونوبات الألم الفظيعة التي تشعر بها الآن – هذا كله صعب، صعب جداً، وليس بوسعي أنْ أقول لك أيّ شيء آخر، سوى: صعب! لكن إليك بعض العزاء. هذا الذي تحسّه ليس سوى البداية؛ ستتعرّض لإهانات أكثر: ستواجه صراعاً أقوى مع المرتشين والأوغاد من جميع الأنواع ومع الناس الوقحين الذين لا يوجد شيء مقدس بالنسبة لهم، والذين لا يكتفون فحسب بتنفيذ هذا العمل الحقير الذي كتبتُ لي عنه، أيْ، أنْ ينتحلوا توقيع شخص آخر، لكي يتجاسروا على التحريض على مثل تلك الجريمة الفظيعة ضد روح بريئة، ويروا بأعينهم العقوبة التي لحقت بالمُفترى عليه، ولا يرفّ لهم جفن. إنهم سيرتكبون أكثر من ذلك الفعل فظاعة بعدة مرات، والذي يمكن لقصة واحدة منه أن تحرم الإنسان الرحيم من النوم إلى الأبد. (آه، ليت هؤلاء الناس لم يولَدوا على الإطلاق: كل حشود القوى السماوية ستختلج من رعب عقاب الآخرة الذي ينتظرهم، والذي لا يستطيع أحد أن ينقذهم منه). وسوف تواجه هزائم جديدة لا حصر لها، غير متوقعة على الإطلاق. يمكن أن يحدث أي شيء في مجالك الأعزل وفي وظيفتك غير الملحوظة. ستكون نوباتك العصبية وأمراضك أشد أيضاً، وسيكون غمّك أكثر ألماً وستكون أحزانك أكثر محقاً. ولكن تذكّر: إننا لم نُدعَ إلى هذا العالم من أجل الولائم والأعياد. لقد دُعينا إلى هنا من أجل المعركة؛ وسنحتفل بالنصر هناك. لذلك، يجب ألا ننسى للحظة أننا ذهبنا إلى المعركة، وليس بوسعنا أنْ نختار المكان الذي فيه مخاطر أقل: يجب أنْ يندفع كل واحد منّا، مثل محارب شهم، إلى المكان الذي فيه الوطيس أشد حماوة. فالقائد السماوي ينظر إلينا جميعاً من فوق، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من أعمالنا. لا تحِد عن ساحة الوغى، وبعد أن تنطلق إلى المعركة، لا تبحث عن عدوّ ضعيف، بل ابحث عن العدوّ القوي. فعندما تخوض معركة مع القليل من الحزن والقليل من النكبات، لن تحصل على الكثير من المجد. المجد ليس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عظيماً بالنسبة للروسي عندما يقاتل ألمانياً مسالماً وهو يعلم مسبقاً أنه سوف يهزمه؛ كلا، بل مع الشركسي، الذي يرتجف الجميع منه، ويحسبونه لا يُقهر. أنْ تقاتل الشركسي وتهزمه – هذا هو المجد الذي تستحق الفخر به! سر إلى الأمام، يا محاربي الجميل! بحفظ الله، أيها الرفيق الصالح! بحفظ الله، يا صديقي الرائع!

1846

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الواحد والثلاثون

ما هو جوهر الشعر الروسي

وبأيّ شيء تكمن ميزته؟

على الرغم من سمات التقليد الخارجية، يمتلك شعرنا الكثير جداً من الميزات الخاصة. كان نبعه الأصلي ينبض في صدر الشعب قبل أنْ تنبس شفاه الآخرين باسمه. تتغلغل تدفقاته في أغانينا، التي فيها تعلّقٌ ضئيلٌ بالحياة وأشيائها، ولكن فيها الكثير من التعلّق بالبهجة اللامحدودة، وبالرغبة في الاندفاع بعيداً إلى مكان ما مع الأصوات. تتغلغل تياراته في أمثالنا، التي يمكن للمرء أن يرى فيها الامتلاء غير العادي للعقلية الشعبية، القادرة على صنع كل شيء بأداتها المتمثلة بالسخرية والازدراء والوضوح ودقة الاعتبارات التصويرية، من أجل تكوين كلمة حيوية تخترق طبيعة الإنسان الروسي من طرف إلى آخر، متهكمةً على كل ما هو حيّ فيه. وأخيراً، تتغلغل تياراته في كلمات رعاة الكنيسة ذاتها – وهو كلام بسيط وليس بليغاً، ولكنه ملحوظ في الرغبة في الارتقاء إلى ذروة ضبط المشاعر المقدس، الذي قُدّرَ للمسيحي فيه الارتقاء نحو توجيه الإنسان ليس إلى رغبات القلب، بل إلى أعلى درجات الرصانة والذكاء الروحي. هذا كله تكهّن لشعرنا بنوع من التطور الأصيل والفريد وغير المعروف للشعوب الأخرى. ولكن ليس من هذه المنابع الثلاثة، الموجودة فينا، بدأ شعرنا بحروفه العذبة الذي يسعدنا الآن؛ مثلما، لم يأتِ بناء نظامنا المدني الحالي من المبادئ التي كانت موجودة في أرضنا من قبل. لقد حدث بناء نظامنا المدني أيضاً ليس من خلال مسار الحوادث التدريجي الصحيح، وليس من خلال الإدخال البطيء والحكيم للعادات الأوروبية، الذي كان غير ممكن لأن التنوير الأوروبي قد نضج كثيراً، وكان تدفقه كبيراً ولا بدّ أنْ يندفع عاجلاً أم آجلاً من جميع الجهات إلى روسيا، والذي كان سيتسبب لاحقاً بالكثير من الفوضى في كل شيء لو أنه حدث من دون وجود زعيم مثل بطرس(64). لقد حدث بناؤنا المدني من الصدمة، من تلك الصدمة البطولية للدولة بأكملها، التي أحدثها القيصر المصلح، عندما أوحت له إرادة الله فكرة إدخال شعبه الفتي إلى دائرة الدول الأوروبية وفجأة يُطلِعه على كل ما اكتسبته أوروبا لنفسها خلال سنوات طويلة من الصراعات الدموية والمعاناة. كان الشعب الروسي بحاجة إلى منعطف حاد، وكان التنوير الأوروبي عبارة عن حجر الصوان الذي كان ينبغي أن تُضرَب به جماهيرنا كلها التي أخذتها الغفوة. لا يكتسب حجر القدح النار من الصوان، وإذا لم تضرب به، لن تنبعث النار من الصوان. وفجأة قدحت النار من الشعب. كانت هذه النار بهجة، بهجة بسبب اليقظة، بهجة

كانت في البداية من دون تعليل: لم يشعر أحد بعد أنّ الشعب استيقظ كي ينظر نظرة أعمق إلى نفسه بمساعدة النور الأوروبي، وليس كي يقلّد أوروبا؛ شعر الجميع للتو أنهم استيقظوا. كان هذا التحول الحاد للغاية في الدولة بأكملها أمراً جديراً بالبهجة، وكيف لا يكون كذلك وقد قام به شخص واحد – وعلاوة على ذلك، هو القيصر نفسه، الذي تخلّى بسخاء لمدة عن رتبته القيصرية، وقرر أن يجرب كل حرفة بنفسه، وأنْ يقف والفأس في يده أولاً في كل شيء، حتى لا يحدث أيّ اضطراب بعد أدنى تغيير في أشكال الدولة. إنّ الانقلاب الذي في العادة، إذا ما نُفّذ من خلال صراعات الجماعات الداخلية، يسفك الدماء على امتداد سنوات طويلة في الدولة المضطربة، قد نُفّذ، على مرأى من أوروبا كلها، بترتيب، كمناورة رائعة لقوات مدربة تدريباً جيداً. فاكتست روسيا فجأة ثوبَ عظمةِ الدولة، وبدأت تتكلم بصوت الرعد وأومضت ببرق العلوم الأوروبية. فابتهج الجميع في الدولة الفتية، وأطلقوا صرخة الدهشة، تلك الصرخة التي يُطلقها المتوحش عند رؤية الكنوز الرائعة المحمولة إليه بوفرة. وقد انعكست هذه البهجة في شعرنا، أو بالأحرى هي التي خلقته. ولهذا السبب اتخذ شعر القصيدة الأولى التي ظهرت لدينا في الصحافة تعبيراً احتفالياً، وسعت جاهدة كي تعبّر في الوقت نفسه عن الإعجاب بالنور الذي جُلِب إلىَ روسيا، والدهشة من المجال الكبير الذي أمامها، والامتنان للقياصرة الذين تسببوا فيه. ومن ذلك الوقت فصاعداً، أصبح السعي إلى النورِ العنصرَ الأهم لدينا، والحاسة السادسة للإنسان الروسي، وهو الذي حرّك شعرنا الحالي، حاملاً المبدأ الجديد المنير، الذي لم يَرَ في أيّ واحد من تلك المصادر الثلاثة التي ذكرناها في البداية.

مَن لومونوسوف(65) إذا ما نظرنا إليه نظرة دقيقة؟ إنه شاب متحمس اجتذبه نور العلم والميدان الذي ينتظره. وقد صار شاعراً بالصدفة: فرحة انتصارنا الجديد جعلته يدوّن على عَجَل القصيدة الأولى. فاستعار بلا تروٍّ من الجيران الألمان الحجم والشكل اللذين كانا لديهم في ذلك الوقت، من دون أنْ يفكر فيما إذا كانا يتناسبان مع الخطاب الروسي. لا توجد آثار للإبداع في قصائده التي نظّمها على نحو متكلّف، لكن البهجة تُسمَع في كل مكان فيها، أينما لامس شيئاً قريباً من روحه المحبة للعلم... تطرق إلى شفق القطب الشمالي الذي كان موضوع بحثه العلمي، فكانت ثمرة هذه اللمسة قصيدة «تأمل مسائي في جلال الله» التي كانت كلها مهيبة من البداية إلى النهاية، لا يستطيع أحد أن يكتبها إلا لومونوسوف. تلك الأسباب نفسها أدت إلى ظهور رسالته المعروفة لشوفالوف(66) «حول فوائد الزجاج»(67). أيّ لمسة لروسيا الحبيبة على قلبه، والتي ينظر إليها من زاوية مستقبلها المشرق، تملأه بقوة إعجازية خارقة. تتدفق من بين المقاطع الباردة فجأة هذه المقاطع الرائعة التي يشعر مَن يسمعها بنشوة تنسيه أين هو، تماماً مثل كلماته هذه:

نبي الله داود

يضجّ بالأوتار المقدسة،

ويدوّي إشعياء منبهراً

بالله من خلال شفتيه الممتلئتين.

إنه يلقي نظرة فاحصة على الأرض الروسية بأكملها من الحدّ إلى الحدّ من ارتفاع مشرق، منبهرّ بطبيعتها اللانهائية والعذراء من دون أنْ يشبع من التطلع إليها. في الوصف، يمكن للمرء أن يستشعر نظرة عالم الطبيعة أكثر منها نظرة شاعر، لكن قوة البهجة الصادقة حولت عالم الطبيعة إلى شاعر. الأمر الأكثر إثارة للدهشة أنه، برغم تضمين خطابه الشعري في مقاطع ضيقة من اليامب(68) الألماني، لم يقيّد لسانه على الإطلاق: لسانه يتحرك في المقاطع الضيقة بشكل مهيب وحرّ مثل نهر يتدفق بالكامل في ضفاف غير مقيدة. إنه أكثر حرية وأفضل في الشعر منه في النثر، وليس من قبيل الصدفة أن يُدعى لومونوسوف أباً لخطابنا الشعري. الشيء المدهش هو أنّ البادئ أصبح سيد اللغة ومشرعها. يقف لومونوسوف أمام شعرائنا كالمقدمة في بداية الكتاب. شعره – فجر بازغ. الشعر لديه، مثل البرق الوامض، لا يضيء كل شيء، بل يضيء بعض المقاطع فقط. تبدو روسيا نفسها لديه في خطوط عريضة جغرافية عامة فحسب. ويبدو كأنه لا يهتم إلا برسم صورة وصفية واحدة لدولة ضخمة، ورسم حدودها بالنقاط والخطوط، وترك الآخرين يرسمونها؛ وهو نفسه، كأنه رسم تخطيطي أولي يتكهن بما ينتظرنا.

ما أنْ خرجت القصائد من يد لومونوسوف حتى أصبحت عادة. وصارت المهرجانات والانتصارات والاحتفالات بأيام القديسين سمِيّ القياصرة وحتى زينة الأنوار والألعاب النارية موضوعاً للقصائد. لقد عبّر ناظموها عن حركة خفيفة رديئة بدلاً من البهجة. لا يمكن أن يستثنى منهم سوى بيتروف(69)، الذي ليس غريباً على القوة وعلى نار الشعر: لقد كان شاعراً حقاً، على الرغم من شعره القاسي والجاف. أما أشعار الناظمين الآخرين كلهم فكانت تشبه أسلوب قصائد لومونوسوف الباردة ذات الأسلوب المتكلف وأظهرت، بدلاً من لغة لومونوسوف الرخيمة، فرقعة وفوضى الكلمات التي تخدش المسامع. لكن حجر القدح قد ضرب على الصوان؛ فاندلع الشعر: وقبل أنْ يرفع لومونوسوف يده عن القيثارة صدحت أولى أغاني ديرجافين(70).

في عهد يكاتيرينا(71)، التي يمكن أن يطلق على عهدها المعرض الرائع للأعمال الروسية الأولى، عندما بدأت المواهب الروسية في إظهار نفسها في جميع المجالات، حين ارتقى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنرالات في المعارك، ورجال الدولة في المؤسسات المحلية، والدبلوماسيون في المفاوضات، والأدباء والعلماء في الأكاديميات، – في ذلك الزمن بالذات ظهر الشاعر ديرجافين، بنفس المظهر الفخم الخلاب، مثل جميع الناس في زمن يكاتيرينا، الذين أظهروا مؤهلاتهم في ظلّ نوع من الحرية المسعورة، مع الكثير من الأشياء غير المكتملة وغير المفصّلة تماماً، كما يحدث مع تلك الأعمال التي تُعرَض على عجل إلى حدٍّ ما. ستختفي فجأة فكرة تشابه لومونوسوف مع ديرجافين، والتي تتبادر إلى الذهن عند النظرة الأولى لكليهما، بمجرد إلقاء نظرة فاحصة على ديرجافين. إنّ ديرجافين يختلف عن لومونوسوف بكل شيء، حتى في التنشئة ذاتها. ومثلما أنّ لومونوسوف كرس نفسه بالكامل للعلوم، معتبراً الشعر مجرد ترفيه له ومسألة استرخاء، فقد كرس ديرجافين نفسه بالكامل لشعره، معتبراً أنّ التعليم متعدد الجوانب للعلوم غير ضروري وفائض عن الحاجة. ومع هذا تُسمع في شعره نفس العظمة الاستبدادية الفخمة لروسيا؛ ولكن لا تُرى فيه الخطوط الجغرافية للدولة وحدها فقط: بل يظهر في شعره الناس والحياة. ولا تشغله العلوم المجردة، بل علم الحياة. فقصائده موجهة إلى الناس من جميع الطبقات والفئات، ويمكن للمرء أن يسمع فيها الرغبة في تحديد قانون أفعال الإنسان الصحيحة في كل شيء، حتى في ملذاته. لقد برز لديه الإبداع حقاً. ولديه شيء عملاق ومرتفع أكثر مما لدى لومونوسوف. إنّ العقل ليحتار في معرفة من أين أتى هذا المدى المتسم بالغلو إلى خطابه. هل هذا من بقايا بطولاتنا الروسية الرائعة، التي تحوم على شكل نبوءات غامضة فوق أرضنا إلى زماننا هذا، مكونة شيئاً سامياً ينتظرنا، أم أنه استوحى هذا من أصله التتري البعيد، ومن السهوب التي لا تزال يتسكع فيها رفات رجال الأورطات(72) المساكين الذين يلهبون مخيلته بالقصص عن أبطال أسطوريين يبلغ ارتفاعهم عدة فيرستات(73)، ويعيشون لألف عام في الدنيا، – ومهما كان الأمر، تبقى هذه السمة في شعر ديرجافين مذهلة. أحياناً الله وحده يعرف كيف ينتقي ديرجافين الكلمات والعبارات من بعيد ليجعلها أقرب إلى موضوعه. كل شيء يبدو على نحو جامح وهائل؛ ولكن حيثما ساعدته قوة الإلهام، فإن كل هذا الحجم الهائل يعمل على إحياء الموضوع بقوة غير طبيعية، حتى يبدو كأنه ينظر بألف عين. يستحق الأمر أنْ نمرّ بسرعة على قصيدته «الشلال»، التي يبدو فيها كما لو أنّ ملحمة كاملة قد اندمجت في قصيدة واحدة جامحة. في «الشلال» يقف أمامه الشعراء الآخرون كالأقزام. فالطبيعة فيها، تبدو أعلى من الطبيعة التي نراها، والناس أقوى من الناس الذين نعرفهم، وحياتنا العادية، أمام الحياة المهيبة التي صُوِّرَت هناك، تشبه عشّ نملٍ يتأرجح في مكان ما بعيداً. يمكن للمرء أن يقول عن ديرجافين إنه مغنّي العظمة. كل شيء عنده عظيم ومهيب: صورة يكاتيرينا مهيبة، وروسيا مهيبة، تنظر إلى نفسها في بحارها الثمانية؛ والقادة لديه صقور. باختصار – كل شيء

لديه عظيم مهيب. ومع ذلك، من الملاحظ أنّ الموضوع الدائم لأفكاره، والذي شغله أكثر من أي شيء آخر، كان رسم صورة الرجل القوي، الذي حنكته الحياة، المستعد للقتال ليس في وقت واحد محدّد، بل في جميع الأزمان؛ ويصوّره بالشكل الذي ينبغي أنْ يبدو فيه، حسب رأيه، منذ البدايات القوية لسلالتنا الروسية، بعد أن نشأ على صخرة الكنيسة الروسية التي لا تتصدّع. في كثير من الأحيان، بعد أنْ يترك جانباً الشخص الذي نُظِمَت له القصيدة، يضع ديرجافين في مكانه ذلك الرجل الصادق والصلب الذي في مخيّلته. ثم يعبّر عن الحقائق العميقة بصوت أعلى بكثير من المعتاد: يعود المعنى المقدس النبيل إلى ما اعتدنا أن نسميه الأماكن المشتركة، وكأنه نابع من شفاه الكنيسة نفسها، وتسمع صوته الأبدي. وبالمقارنة مع الشعراء الآخرين، يبدو كل شيء لديه كأنه عملاق: صوَره الشعرية، التي لا تمتلك نهائية مرنة كاملة، تبدو وكأنها ضائعة في نوع من الخطوط العريضة الروحية وبالتالي تكتسب المزيد من العظمة. على سبيل المثال: يصور الشاعر «بحر قزوين العجوز» في وقت كان غاضباً من العاصفة:

إنه يقف متحدياً أمواجه بعناد:

تارة يقفز إلى السماء، ثم يسعى جاهداً إلى الجحيم،

يضرب السفن برمح ثلاثي الشُعب؛

شَعره الأشيب يرفرف كالعمود

وصوته يرعد في الجبال.

هنا، على ما يبدو، أرادت صورة بحر قزوين العجوز أن تتكون بشكل ملحوظ، لكنها تاهت في خطوط روحية عريضة غير مرئية: تسمع الأذن قعقعة البحر الهادر وحده، ومع شعر العجوز الأشيب يرتفع شعر رأس القارئ نفسه، المندهش من عظمة الصورة القاسية. كل شيء لديه كبير. فالمقطع لديه كبير بشكل ليس له مثيل عند أيّ واحد من شعرائنا. بعد فتحه بسكين تشريح، سترى أنّ هذا يأتي من مزيج غير عادي من أعلى الكلمات مع أقلها وأبسطها، وهو ما لم يجرؤ أحد على فعله باستثناء ديرجافين. من يجرؤ، سواه، على أنْ يعبّر كما عبّر هو في مقطع واحد عن رَجُلِه ذلك العظيم، في اللحظة التي نفّذ فيها كل ما هو مطلوب على الأرض:

ينتظر الموت كما يُنتظَر الضيف،

وهو يبرم طرَفي شاربه، وغارقاً في أفكاره.

مَن، باستثناء ديرجافين، يجرؤ على الجمع بين قضية مثل انتظار الموت وفعلٍ ضئيل مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

برم الشارب؟ ولكن من خلال هذا كم يبدو الرجل نفسه واضحاً، وأيّ شعور عميق بالكآبة يبعث في الروح! لكن هنا ينبغي القول إنّ هذه الخاصية مثلها مثل جميع خصائص شعر ديرجافين العملاقة الأخرى، التي تمنحه ميزة على شعرائنا الآخرين، تتحول فجأة عنده إلى خيبة وقُبح، بمجرد أن يغادره إلهامه. وعندئذ يبدو كل شيء في حالة من الفوضى: الخطاب واللغة والمقطع – كل شيء يَصرف مثل صريف عربة لم تُدهَن عجلاتها، وتبدو القصيدة مثل جثة تركتها الروح. لقد انعكست آثار تعليمه غير المكتمل، بالمعنى العقلي والأخلاقي، بشكل ملحوظ في إبداعاته. فالرجل، الذي كان يعظ الآخرين عن كيفية توجيه أنفسهم، لم يعرف كيف يوجه نفسه، ولم يمتلك زمام نفسه تماماً، فكان عليه أن يصل بقوة الإلهام الشديدة إلى نفسه من أجل أنْ يتحدث عن المشاعر التي يجب أن تنطلق بحرية من الشاعر. ولو مُنح هذا الرجل تربية كاملة – لما كان ثمة شاعر أسمى من ديرجافين؛ الآن يبقى مثل تلّ صخريّ ضخم لم ينبت عليه الزرع، لا يمكن لمن يقف أمامه إلا أن يُذهل، ولكن لا أحد يمكث أمامه مدة طويلة، بل يسرع إلى أماكن أخرى، أكثر جاذبية.

استمر ديرجافين يضرب على أوتار قيثارته، حتى تغيّر كل شيء من حوله: اختفى عصر يكاتيرينا والقادة الصقور وفخامة الوجهاء والحياة النبيلة مثل الحلم. وحان عصر ألكسندر(74)، العصر الأنيق والمُرضي والمُلمّع. فقد تهندم كل شيء، وشعر الجميع كأنّ الأبواب شرّعت على مصاريعها، ثم بدؤوا في التنافس مع بعضهم البعض لاكتساب أعلى درجات الاتساق الخارجي وتناغم الأفعال. وأصبح الفرنسيون أمثلة يُقتدى بهم في كل شيء، ومثل غنادرة(75) باريس، استحوذ الفرنسيون على مجتمعنا مدة طويلة، واستمال الشعراء الفرنسيون الحاذقون شعراءنا لبرهة من الزمن. غير أننا استناداً لغريزتنا الشعرية الصادقة يجب أن نقول إنّ لافونتين(76) وحده الذي صار مثالاً يُقتدى به، لأنه بالتحديد كان أقرب إلى الطبيعة: بدأ ديمتريف(77) وخمنيتسر(78) وبوغدانوفيتش(79)في إنتاج أعمال مشابهة لأعماله في بساطة الإبداع ومعالجة المواضيع نفسها. واكتسبت اللغة الروسية فجأة حرية وسهولة في الانتقال من موضوع إلى آخر، وهو أمر غير مألوف لديرجافين. وبدلاً من القصيدة الغنائية، بدؤوا بتجربة جميع أنواع الشعر وأشكاله. وأظهر ديمتريف الكثير من الموهبة والذوق والبساطة واللياقة في كل الأشياء التي قتلها التزويق اللفظي والحذلقة الذي أحدثه مقلدون غير موهبين لديرجافين ولومونوسوف. بيد أنّ الحقبة السطحية لم تستطع أن تعطي محتوى ثرياً لشعرنا: فقد أصبح الموضوع التعليمي العام وحده موضوعاً له، وأصبح الشعر نفسه يشبه رجلاً ذكياً ومهذباً من الطبقة العليا جالساً في غرفة الضيوف ويتحدث ليس من أجل البوح بمكنونات

روحه أو حضّ الآخرين نحو قضية مهمة، بل لمجرد الحديث والتباهي بالقدرة على التحدث حول جميع الموضوعات... صمتت آخر أصوات ديرجافين، حين سكتت آخر أصوات أرغن الكنيسة، ووجد شعرنا نفسه فجأة وهو يغادر الكنيسة في حفلة راقصة. وحده كابنيست(80) كانت تُشَمّ منه رائحة الإحساس الروحي الحق وبعض السحر العاطفي الخاص، الذي لم يكن مألوفاً حتى الآن. هكذا يصور في قصيدة منزله الريفي في قرية «أبوخوفك»:

منزلي الذي آوي إليه، تحت قشة،

إنه بحجمي، ليس منخفضاً ولا مرتفعاً؛

للصداقة فيه ركنٌ؛

أنساني الكسلُ أنْ أثبت قفلاً،

في بابه المألوفِ للمتسول.

لكن شعرنا لم يتحمل البقاء طويلاً على هذه القمة التعليمية السطحية. فقد استيقظت حساسيته بقوة من ضربة بطرس بالصوان الأوروبي. وفجأة لاحظ أنه لن يأخذ من الفرنسيين، باستثناء البراعة، أيّ شيء في تعليمه، فتحول نحو الألمان. وفي ذلك الوقت حدثت ظاهرة غريبة في الأدب الألماني. فقد أصبحت الخيالات الغامضة، والأساطير الفبهَمَة، والحوادث العجائبية المُلغِزة، وأشباح العالم غير المرئي الموحِشة، والأحلام والمخاوف التي تصاحب طفولة الإنسان موضوعاً للشعراء الألمان. إذ يمكن للمرء أن يسمي مثل هذا الشعر مرح التلميذ، لو لم يسمع فيه لعثمة الرُضّع التي تعلن بها روح الإنسان عن نفسها، مطالبةً بغذاء لها. وقد توقف شعرنا الحساس بفضول طفولي أمام هذه الظاهرة. وذكّرته فجأة بشيء مشابه لبداياته السلافية. لكن مع كل ذلك، لم نكن لنواجه الألمان لو لم ينبغ بيننا شاعر أظهر لنا كلّ هذا العالم الجديد الاستثنائي من خلال الزجاج الصافي لطبيعته الشخصية، المتاحة لنا أكثر من الطبيعة الألمانية. هذا الشاعر هو جوكوفسكي، الذي يمثل أصالتنا الرائعة! والذي أودِع في روحه بإرادة سامية عجيبة، منذ أيام الطفولة، سعياً لا يمكن فهمه نحو ما هو غير مرئي وغامض. فقد رنّ في روحه جرس سماوي ينادي من بعيد، تماماً كما رنّ في روح فاديم بطل البالادا(81) التي ألّفها. وبسبب هذا النداء، هرع إلى كل شيء غامض لا يمكن تفسيره أينما صادفه، وبدأ يقلّده بأصوات قريبة من روحنا. فاستعار كل شيء من هذا النوع من الغرباء، لاسيما من الألمان، فكانت أعماله كلها ترجمات تقريباً. ولكن سعيه الداخلي هذا ترك على الترجمات انطباعاً كبيراً، جعلها تتوهج وتتحرك بحيوية منه لدرجة أنّ الألمان أنفسهم، الذين تعلموا اللغة الروسية، يقرّون بأن النصوص

الأصلية أمام ترجماته تبدو وكأنها استنساخ، وتبدو ترجماته هي الأصل الحقيقي. فلا تعرف ماذا تسميه – أمترجم أم شاعر أصيل. يفقد المترجم شخصيته، لكنّ جوكوفسكي أظهرها أكثر من شعرائنا كلهم. فعندما تستعرض فهرس محتويات قصائده، ترى: أحدها مأخوذة من شيلر(82)، والأخرى من أوهلاند(83)، والثالثة من والتر سكوت(84)، والرابعة من بايرون(85)، وتجد كل شيء بمثابة صورة منقولة بأقصى درجات الأمانة، كلمة بكلمة، وتجده محافظاً على شخصية كل شاعر ولا يشعرك بوجود المترجم؛ لكن عندما تقرأ عدة قصائد تسأل نفسك فجأة: قصيدة مَن قرأت؟ – لن يظهر أمام عينيك شيلر ولا أوهلاند ولا والتر سكوت، بل شاعر بعيد عنهم جميعاً، لا يستحق أن يكون عند أقدامهم، بل أن يجلس بجانبهم، نداً لند. كيف اجتاحت شخصيته شخصيات جميع الشعراء – يبقى هذا لغزاً، لكنّ هذه حقيقة يراها الجميع. لا يوجد روسي لا يكوّن لنفسه من أعمال جوكوفسكي صورة حقيقية لروحه الشخصية. يجب أن نقول أيضاً إنّ في أيّ من الشعراء الذين ترجم أعمالهم، لا يمكن الإحساس بالسعي الشديد للانطلاق نحو السماء، بعيداً عن كل ما هو مرئي، ولا يُرى في أيّ شاعر منهم هذا الإقرار الراسخ بالقوى غير المرئية التي تحرس الإنسان في كل مكان. لذلك عندما تقرأ له تشعر في كل خطوة، كما لو كان هو نفسه، معبّراً بأشعار ديرجافين:

أوكلّت رعايتك،

لقوى غير مرئية وخالدة،

وأمرت جحافل الملائكة كلها

أنْ تُبقيك سالماً.

لقد أحدثَ من خلال الترجمات تأثيراً يشبه تأثير شاعر أصيل ألمعي. وعندما نقل هذا المسعى الجديد، الذي لم يكن مألوفاً حتى الآن في شعرنا، في مجال ما هو خفيّ وغير مرئي، فصَلَه عن المادية ليس في الأفكار وصورة التعبير عنها فحسب، بل وفي الشعر نفسه أيضاً، الذي أصبح سهلاً وغير مادي، مثل الرؤية. ومن خلال الترجمات أرسى البداية لكل ما هو أصلي، فأدخل أشكالاً وأحجاماً جديدة، بدأ فيما بعد يستعملها جميع شعرائنا الآخرين. وقد منعه كسل عقله من أن يصبح في الأساس شاعراً مبتدعاً (أقصد الكسل عن الخلق، وليس نقصاً في الإبداع). فقد أظهر علامات الإبداع في نفسه منذ بداية شروعه في هذا المجال: إذ بثّت قصيدتاه «سفيتلانا» و«ليودميلا» لأول مرة أصواتَ طبيعتنا السلافية الدافئة، الأقرب إلى روحنا من تلك الأصوات التي صدحت لدى الشعراء الآخرين. والدليل على ذلك، إنّ تلكما القصيدَتين تركتا انطباعاً قوياً

على الجميع في وقت كانت فيه ذائقتنا الشعرية لا تزال ضعيفة التطور. فنشأ بفضلهما الجنس الرثائي في شعرنا. وهناك أيضاً سبب أولي نشأ منه كسل العقل: يتمثل بخاصية **التقييم**، التي، بعد أن استقرت في عقله بحزم، جعلته يتوقف بحب عند كل عمل يكتمل لديه. ومن هنا جاء حسّه النقدي الخفي الذي أذهل بوشكين. لقد غضب بوشكين منه بشدة لأنه لم يكتب أعمالاً نقدية. فوفقاً لرأيه، لا يمكن لأحد، سوى جوكوفسكي، أن يحلّل أيّ عمل فني ويحدّد طبيعته. تنعكس هذه القدرة على التفكيك والتقييم في أوصافه التصويرية للطبيعة، التي تمثل جميع أعماله الأصلية الشخصية (غير المُترجَمة). فعندما كان يأخذ صورةً أسرَته، لا يتركها حتى يستنفد كل شيء، بعد أن يحلل، كما لو كان بسكينِ تشريحٍ، أدقّ تفاصيلها وأكثرها صعوبة على الإدراك. إنّ الذي استطاع أنْ يكتب قصيدة «تقرير عن الشمس»، التي ضمّت جميع تغييرات أشعة الشمس وسحرَ الصور التي تكوّنها في أوقات النهار المختلفة، وأنْ يصوّر بتلك التفاصيل الفنية نفسها في قصيدة «تقرير عن القمر» سحرَ شعاع القمر بسلسلة كاملة من الصور الليلية التي يكوّنها، – لا بدّ، بالطبع، أنْ يمتلك في حدّ ذاته خاصية **التقييم** إلى حدٍّ كبير. إنّ قصيدة «سلافيانكا» التي احتوت على مناظر بافلوفسك(86) هي لوحة دقيقة. فالتأمّل الرفيع، الذي ينتقل عبر جميع صورها، يملؤها بهذا النور الدافئ والودّي الذي يجلب الهدوء غير العادي للقارئ. فتعمّ السكينة نبضاته كلها، فيغلق شفتيه من وقْعِ سحرها.

في الآونة الأخيرة، بدأت تُلاحَظ لدى جوكوفسكي نقطة تحول في الاتجاه الشعري. عندما بدأ يتضح أمامه ذلك المدى المضيء خفيةً، الذي رآه قبل الآن في البعد الشعري الغامض، اختفى لديه الشغفُ بأشباح القصص الألمانية وتذوّقُ خيالاتها. وأفسحَ التأملُ العميقُ الطريقَ للسمو الروحي. فكانت ثمرة هذا الفعل «أوندينا»(87)، وهو عمل من إبداع جوكوفسكي بالكامل. فالراوي الألماني للأسطورة نثراً لا يمكن أن يكون نموذجاً له. إنّ الخالق الكامل لسحر هذا الإبداع الشعري هو جوكوفسكي. منذ ذلك الوقت، اكتسب لغةً شفافة، يظهر الشيء نفسه من خلالها بشكل أوضح مما هو عليه لدى كاتبه الأصلي، الذي أخذه منه. واختفت حتى تلك اللامحدودية الخفيفة السابقة في شعره: أصبح شعره أقوى وأكثر ثباتاً؛ وتهيّأ كل شيء فيه من أجل أنْ يتوجّه نحو نقل العمل الشعري الأكثر كمالاً، الذي أنتجه بنفس الطريقة التي أُنتِجَ فيها بالأصل. وبعد أنْ تشبّع بروح العصور القديمة وبهذه النظرة المستنيرة السامية إلى الحياة، لا بدّ أنْ يُظهِر الطريقة الأبوية الأصلية للعالم القديم بنور أصيل قريب من البشرية جمعاء. يُعَدّ هذا النتاج – مأثرة، أعلى بكثير منذ أيّ عمل من إبداعات جوكوفسكي، وهو ما يمنحه أهمية عالمية. إنّ جوكوفسكي مقارنة بشعرائنا الآخرين مثل الصائغ مقارنة بالحرفيين الآخرين، أي إنه الحرفي الذي يشتغل على آخر زينة للعمل. وليس من شأنه أنْ يستخرج الماس في الجبال – عمله هو

ترتيب هذا الماس بطريقة تجعله يتلألأ بكل تألقه ويبدي حسنه بشكل كامل للجميع. لا يمكن أن يظهر مثل هذا الشاعر إلا من بين الشعب الروسي، الذي وهِبَ قابلية سرعة التأثر بقوة، ربما، من أجل أن يضع في إطار أفضل كلّ ما لا تقدره الشعوب الأخرى ولا تنقيه وتهمله.

وفي الوقت الذي كان فيه جوكوفسكي لا يزال في المرحلة الأولى من تطوره الشعري، ويرفع شعرنا عن الأرض والمادية وينقله إلى عالم الرؤى غير المجسدة، بدأ شاعر آخر، هو باتوشكوف(88)، كما لو كان عن قصد لصدّه، يلصق الشعر بالأرض والجسد، مُظهِراً كل الجمال الساحر للجوهر الملموس. ومثلما تاهَ جوكوفسكي تماماً في المثال الأعلى غير الواضح بعد بالنسبة له شخصياً، غرق باتوشكوف في الأبهة الفاخرة للمرئي الذي سمعه بوضوح وشغَفَ به بقوة. بدا وكأنه يحاول جاهداً أن يحوّل كل ما هو جميل في جميع الصور، حتى في الصور غير المرئية، إلى نعيم ملموس من المتعة. فقد سمع، حسب تعبيره الشخصي، «شبق القصائد والأفكار». فبدا الأمر كما لو أنّ قوة التوازن الداخلية التي تكمن في أعماق شعرنا، والتي تمنعه من التطرف في أي غواية، هي التي أوجدت هذا الشاعر على وجه التحديد. ففي الوقت الذي بدأ فيه جوكوفسكي يجلب أصوات منشدي أوروبا الشماليين، تغنّى باتوشكوف بأصوات الشعر العطرية الجنوبية، بعد أن تعرف على أريوستو(89) وتاسّو(90) وبترواركا(91) وبارني(92) والأصداء الرقيقة لليونان القديمة؛ حتى بدا الشعر نفسه، الذي بدأ يكتسب لامحدودية خفيفة، سيمتلئ بهذا الانتفاخ المنحوت تقريباً الذي يمكن رؤيته عند القدماء، وهذا النعيم الصارخ الذي يُسمع لدى شعراء جنوب أوروبا الجديدة.

جلب الشاعران غير المتجانسين فجأة مبدأين مختلفين إلى شعرنا؛ وعلى الفور تشكّل من المبدأين مبدأ ثالث: فقد ظهر بوشكين. إنه يقف في المنتصف. ليس لديه مثالية الأول المجردة، ولا ثراء ترف الآخر الشهواني الزائد. كل شيء متوازن ومضغوط ومركّز، كما لدى الإنسان الروسي الذي لا يتكلم كثيراً عند نقل الإحساس، بل يحتفظ به في نفسه ويجمعه لمدة طويلة. لذا يمتلك الإحساس من جرّاء هذا الحمل الطويل الأمد قوة انفجار إذا ما اندفع نحو الخارج. وسأقدّم مثالاً على ذلك. لقد أذهل بوشكينُ مشهدُ كازبيك، وهو أحد أعلى جبال القوقاز، فقد رأى على قمته ديراً بدا له وكأنه سفينة تحلق في السماء. لو كتب عنه شاعر آخر لانسابت لديه بضع صفحات من الشعر العاطفي. ولكن هذا كله جرى لدى بوشكين في عشرة أسطر، وينهي القصيدة بهذا النداء المفاجئ:

الشاطئ بعيدٌ، ومنشوذا!

ليتني أقول للوادي «سامحني»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم أتسلق إلى قمة الجبل!

ليتني أختبئ هناك، في الزنزانة المتعالية

وراء السحب، في جوار الله!

بالضبط هذا الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوله أي إنسان روسي، في حين أنّ الفرنسي والإنكليزي والألماني كان سيسهب في شرح الأحاسيس بالتفصيل. ولن يشحّ أيّ واحد من شعرائنا بالكلمات والتعبيرات مثل بوشكين، ولن يحترس بحذر حتى لا يقول شيئاً مُسرفاً ولا داعي له، خشيةً من فرط حلاوة الأمرين كليهما.

فما هو موضوع شعره؟ كل شيء أصبح موضوعاً لشعره، وفي الوقت نفسه لا شيء على وجه الخصوص. تخرس الفكرة أمام كثرة مواضيعه التي لا تُحصى. فما الذي لم يندهش منه وما الذي لم يتوقف عنده؟ من القوقاز المتسامي في العلو وبلاد الشركس الخلابة إلى القرية الشمالية الفقيرة حيث البالالايكا(93) ورقصة الترييباك بالقرب من الحانة – في كل مكان وإلى كل مكان: في حفلة رقص عصرية، في كوخ، في السهوب، في عربة متنقلة، – كل شيء يصبح موضوعاً له. لقد تجاوب مع كل ما هو في داخل الإنسان، بدءاً من ملامحه الطويلة والضخمة إلى أدنى تنهد من ضعفه وأصغر علامة تافهة أحرجته، بالطريقة نفسها التي تجاوب بها مع كل ما موجود في الطبيعة المرئية والخارجية. كل شيء يصبح عنده صورة منفصلة؛ كلها مواضيع له؛ ينتزع من كل شيء، سواءً كان صغيراً أم كبيراً، شرارةً كهربائية واحدة من تلك النار الشعرية الموجودة في كل خلق من مخلوقات الله، – ينتزع منها جانبها السامي، المألوف للشاعر فقط، من دون أنْ يجعل منه أي تطبيق على الحياة التي ينشدها الإنسان، ومن دون أنْ يكشف لأحد عن سبب انبعاث هذه الشرارة، ومن دون أنْ يسند إليها سلّماً كي يرتقي عليه مَن ضمّ عن سماع الشعر. لم يكن يهتم بأحد. كان يهتم فحسب بأن يقول بحسّ الموهبة الشعرية وحده: «انظروا كم هو رائع خلق الله!» – وبدون إضافة أي شيء آخر، ينتقل إلى موضوع آخر كي يقول أيضاً: «انظروا كم هي رائعة خليقة الله!» من هذه الكتابة يُصوَّر كظاهرة مذهلة بتناقضها مع تلك الانطباعات التي تولدها في القراء. إنها في أعين الأشخاص الأذكياء للغاية، ولكن لا يملكون حسّاً شعرياً، تمثّل مقاطع سهلة، فورية، مُبهَمَة؛ وفي عيون الأشخاص الموهوبين بالذوق الشعري، هي قصائد كاملة، مدروسة، متكاملة، تحتوي على كل ما يحتاجون إليه.

انهالت على بوشكين جميع الأسئلة التي لم تُطرَح مِن قَبل على أيّ واحد من شعرائنا، والتي يمكن من خلالها رؤية روح زمن اليقظة. علامَ ظهر شعره، ومن أجل أيّ شيء؟ ما هو الاتجاه

الجديد الذي أعطاه بوشكين للعالم العقلي؟ ما هذا الشيء الضروري لعصره الذي قاله بوشكين؟ وهل تأثيره كان منقذاً لعصره أم مدمّراً؟ هل أثر في الآخرين، وإنْ من خلال طبعه الشخصي على الأقل، ومن خلال ضلاله العبقري، مثل بايرون، وحتى مثل العديد من شعراء الطبقة الثانية والدنيا؟ لماذا وهِبَ للعالم وماذا أثبت للعالم بشخصه؟ لقد وهِبَ بوشكين للعالم ليثبت بشخصه ماهية الشاعر نفسه، ولا شيء أكثر من ذلك، – مَن الشاعر، الذي لا يُؤخَذ تحت تأثير زمانٍ أو ظروف، ولا تحت شرط طبعه الشخصي الذاتي أيضاً، بوصفه إنساناً، ولكن يؤخذ مستقلاً عن كل شيء؛ لذلك إذا أراد أبرز عالم تشريح للروح أن يفكك ويشرح لنفسه ما حقيقة الشاعر، هذا المخلوق الحساس، الذي يتجاوب مع كل ما في العالم، ووحده ليس لديه مَن يتجاوب معه، سيجد ضالته بعدما يراها في بوشكين. لقد قُيِّضَ لبوشكين وحده فقط أنْ يكشف من خلال نفسه عن هذا الكائن المستقل، عن هذا الصدى الرنان الذي يتجاوب مع كل صوت يصدر في الهواء. عند التفكير بأيّ شاعر، تظهر شخصيته بالذات بشكل أو بآخر. مَن ذا الذي، عندما يفكر في شيلر، لا تَمثُل أمامه فجأة هذه الروح المشرقة الطفولية، التي تحلم بأفضل المُثُل العليا وأكثرها كمالاً، والتي خلقت منها عالماً لها وشعرت بالرضا لكونها استطاعت أنْ تعيش في هذا العالم الشعري؟ مَن، من قرّاء بايرون، لا يقف أمامه بايرون نفسه، هذا الرجل الفخور، الذي تنعّم بكل عطايا السماء والذي لم يستطع أن يغفر لها عيبه الجسدي الضئيل، الذي انتقلت منه الهمهمة إلى شعره؟ وحتى غوته(94) نفسه، الذي هو بروتوس(95) الشعراء، والذي سعى جاهداً لاحتضان كل شيء سواءً في عالم الطبيعة أو عالم العلوم، قد أفصحَ من خلال هذا التطلع العلمي الزائف عن شخصيته، المليئة بشيء من الوقار الألماني والطموح الألماني النظري لمسايرة جميع الأوقات والعصور. وقد احتفظ جميع شعرائنا الروس: ديرجافين وجوكوفسكي وباتوشكوف بهويتهم. بوشكين وحده لا يملكها. ما الذي يمكن للمرء أنْ يستخلصه من كتابات بوشكين عن شخصيته؟ اذهب وجِد شخصيته بوصفه إنساناً! بدلاً عنها، ستظهر أمامك الصورة الرائعة نفسها، التي تتجاوب مع كل شيء ولكن لا تجد استجابة مع نفسها فقط. جميع أعماله – ترسانة كاملة من أدوات الشاعر. اذهب إلى هناك، اختر أحداً منها، حسب ما تطاله يدك واخرج معه للقتال؛ ولكن الشاعر نفسه لم يخرج مع الكتاب للقتال. لماذا لم يخرج؟ هذا سؤال آخر. بوشكين نفسه يجيب عليه بهذه الأبيات:

لم نولد من أجل قلق الحياة اليومية،

ولا من أجل المنفعة الشخصية،

ولا من أجل المعارك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد ولدنا من أجل الإلهام،

ومن أجل الكلمات الحلوة والصلوات.

أحسّ بوشكين بأهمية أفضل من أولئك الذين طرحوا عليه الأسئلة وأجاب عليها بحب. فحتى في تلك الأوقات التي كان يندفع فيها هو نفسه نحو حمّى المشاعر، كان الشّعر بالنسبة إليه مقدساً، مثل حرَمِ المعبد. لم يَدخل إلى هناك غير مهندم وغير مرتب؛ لم يحمل إلى هناك أيّ شيء طائش ومتهور من حياته الشخصية؛ ولم يجلب إلى هناك الواقع الأشعث عارياً. ومع ذلك، فإنّ كل شيء هناك يمثل تاريخه الشخصي. بيد أنّ ذلك كله غير مرئي لأي شخص. فلا يشمّ القارئ إلا العبق وحده؛ ولكن ثمة أشياء احترقت في صدر الشاعر فأطلقت هذا العطر الذي لا يستطيع أحد أنْ يشمه. فيا له كيف كان يتشنّف بها في نفسه! وكيف تحمّلها! لم يُتقِن أيّ شاعر إيطالي سونيتاته(96) كما صقل بوشكين أعماله هذه الخفيفة التي تبدو فورية. يا لها من دقة في كل كلمة! يا لمغزى كل تعبير! يا لثراء كل شيء واكتماله وانغلاقه! جميعها تبدو مثل اللآلئ؛ فيصعب على المرء أنْ يحدّد أياً منها الأفضل. إنها مثل أسنان الحسناء المتلألئة، التي يشبّهها الملك سليمان بالأغنام الصغيرة التي خرجت لتوها من الغسل(97)، عندما تكون كلها متشابهة وجميلة.

كيف أمكنه أن يتحدث عن أي شيء يحتاجه المجتمع المعاصر في لحظته الحالية، عندما انتابته الرغبة فيها ليتجاوب مع كل ما هو موجود في العالم، وعندما ناداه فيها كل كائن على حدّ سواء؟ لقد أراد أنْ يصوّر في «أونيغين»(98) الإنسان المعاصر وأنْ يحل مشكلة معاصرة – لكنه لم يستطع. وبعد أن أزاح أبطاله عن مكانهم، وقف هو نفسه في مكانهم، فاندهش، نيابة عنهم، مما يندهش الشاعر منه. فخرجت الملحمة الشعرية كمجموعة من الأحاسيس المتناثرة، والمرثيات الرقيقة، والقصائد القصيرة المؤثرة، والصورة الرعوية، وعند قراءتها تظهر بدلاً عن كل شيء الصورة الرائعة نفسها للشاعر الذي يتجاوب مع كل شيء. إنّ أكثر أعماله كمالاً: «بوريس غودونوف» و«بولتافا» – تمثلان الاستجابة المخلصة نفسها للماضي. لم يكن يريد أن يقول أي شيء لزمانه من خلالهما. لم يقصد أي منفعة لمواطنيه باختيار هذين الموضوعين؛ وليس من الواضح أيضاً ما إذا كان لديه تعاطف خاص مع أيّ من الأبطال الذين أزاحهم هنا، وما إذا كان بسبب هذا سيحسم هاتين الملحمتين الشعريّتين اللتين عالجهما بمهارة وبفنّ. لقد اندهش الشاعر فحسب من استثنائية الحادثتين التاريخيتين وأراد أن يذهل الآخرين، مثله.

ولّدت قراءة الشعراء من جميع الأمم والأعمار في بوشكين تلك الاستجابة نفسها. فالبطل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإسباني دون خوان، هذا الموضوع الذي لا ينضب للقصائد الدرامية التي لا حصر لها، أعطاه فجأة فكرة أنْ يركّز العمل كله في صورة درامية شخصية صغيرة، وأنْ يقدم فيها بمعرفة أكبر بالروح غوايةَ المفسد التي لا تقبل الجدل، وضعفَ المرأة بشكل أكثر سطوعاً، وإسبانيا نفسها محسوسة بشكل أكبر. قاد «فاوست» غوته فجأة إلى هاجس تكثيف فكرة الشاعر الألماني الرئيسة في صفحتين أو ثلاث صفحات، – فيندهش المرء من مدى سهولة فهمها ومدى تركيزها في بؤرة واحدة قوية، على الرغم من كل التشتت غير المحدود عند غوته. وألهمته تيرتسات (موشحات)(99) دانتي(100) القاسية بفكرة تصوير طفولته الشعرية في «تسارسكوي سيلو» (القرية القيصرية)، في التيرتسات نفسها وبروح دانتي نفسه، وأنْ يجسد العلم في صورة امرأة صارمة تجمع الأطفال إلى المدرسة، وهو من ضمنهم – على هيئة تلميذ خرج من الفصل إلى الحديقة من أجل أنْ يقف أمام التماثيل القديمة التي تمسك القيثارات والفراجيز في أيديها، والتي تحدثت إليه بكلام العلم، الذي يُرى من خلاله، كيف أيقظ هذا الإحساس المرهف فيه القابلية على التجاوب مع كل شيء.

فما أخلص استجابته، ومدى حساسية سمعه! تجعل المرء يحس بالرائحة وبلون الأرض وبالزمن وبالناس. في إسبانيا، هو إسباني، ومع اليوناني هو يوناني، وفي القوقاز هو جبلي حرّ بالمعنى الكامل للكلمة؛ مع الإنسان السالف – يتنفس الزمن القديم السالف؛ وعندما ينظر إلى الفلاح في الكوخ – هو روسي كله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه: لقد انعكست فيه جميع سمات طبيعتنا، وفي بعض الأحيان يبرز كل شيء بكلمة واحدة، بنعت واحد يُعثر عليه على نحو مرهف ويُنتقى بصواب.

نمت هذه المَلَكة فيه تدريجياً، فكان عليه فيما بعد أنْ يتجاوب مع الحياة الروسية بأكملها، تماماً كما كان يتجاوب مع كل سمة منفصلة من سماتها. كانت فكرة الرواية التي تحكي قصة بسيطة غير فنية مباشرة من الحياة الروسية تشغله في الآونة الأخيرة بلا هوادة. فترك الشعر لمجرد ألّا ينجرف إلى أي شيء جانبي وليكون أبسط في التوصيف، فبسّط النثر نفسه لدرجة لا يعثر فيها المرء على أيّ فضيلة في قصصه الأولى. فكان بوشكين سعيداً بذلك وكتب «ابنة الآمر» (ابنة الضابط)، وهو أفضل عمل روسي من النوع السردي بشكل حاسم. بالمقارنة مع «ابنة الآمر»، تبدو جميع رواياتنا وقصصنا عبارة عن عصيدة مفرطة الحلاوة. لقد ارتفع النقاء وعدم التكلف فيها إلى مرتبة عالية لدرجة أنّ الواقع نفسه يبدو أمامها مصطنعاً وكاريكاتورياً. فلأول مرة ظهرت شخصيات روسية حقيقية: آمر القلعة البسيط، زوجة النقيب (الآمر)، الملازم؛ والقلعة نفسها بمدفعها الوحيد، وارتباك الزمان وبهاء الناس العاديين البسيط. وبدا كل شيء،

ليس الحقيقة وحدها، أفضل من الواقع. وهذا ما حدث بالفعل: كانت تلك دعوة من الشاعر، كي يأخذنا من أنفسنا ويعيدنا إلى أنفسنا بأحسن وأنقى صورة. فكل شيء في بوشكين كشف لنا أنه ولد من أجل هذا فاندفع نحوه. وقد ترك في الوقت نفسه تقريباً مع «ابنة الآمر» عينات رفيعة من الروايات: «مخطوطة قرية جوروخينا» و«عراب القيصر» ومسودة بقلم الرصاص لرواية كبيرة، هي «دوبروفسكي». لقد جمع في الآونة الأخيرة الكثير من حيثيات الحياة الروسية وتحدث عن كل شيء بدقة وذكاء لدرجة تجعل المرء يود أنْ يسجل كل كلمة من كلماته: كانت تلك الأعمال النثرية تعادل أفضل قصائده؛ ولكن الأهم من ذلك هو ما نشأ داخل روحه وتأهب ليضيء أمامه الحياة أكثر. فتجد صدى ذلك في قصيدته، التي نُشرت بعد وفاته، والتي صوّر فيها بأصوات شبه مروعة الهروب من مدينة محكوم عليها بالفناء، وجزءاً من حالته الروحية. لقد أعدّ هذا الرجل لروسيا الكثير من الأشياء الجيدة... لكن، بعد أن أصبح رجلاً، وأخذ القوة من كل مكان للتعامل مع الأشياء الكبيرة، لم يفكر في كيفية التعامل مع الأشياء الصغيرة والتافهة. وفجأة حمله الموت المباغت بعيداً عنا – فشعر جميع مَن في الدولة فجأة أنهم فقدوا رجلاً عظيماً.

كان تأثير بوشكين، بوصفه شاعراً، ضئيلاً على المجتمع. فقد نظر إليه المجتمع في بداية مسيرته الشعرية فقط، عندما كانت قصائده الشبابية الأولى تشبه إبداعات بايرون؛ ولكن بعدما فاق وأصبح أخيراً ليس بايرون، بل بوشكين، ابتعد المجتمع عنه. بيد أنّ تأثيره كان قوياً على الشعراء. لم يفعل كرامزين في النثر مثلما فعله بوشكين في الشعر. كوّن مقلدو كرامزين منه صوراً كاريكاتورية مثيرة للشفقة فخرجت المقاطع والأفكار تافهة. أما بخصوص بوشكين، فكان بالنسبة لجميع الشعراء المعاصرين له مثل نار شعرية أُلقيت من السماء، فاشتعل منها الشعراء الألمعيون، مثل الشموع. وتشكلت من حوله فجأة كوكبة كاملة منهم: ديلفيغ(101)، الشاعر المُترَف، الذي كان ينعم بكل صوت من إبداعاته الشعرية الشبيهة بالإغريقية، والذي لم يطرح نتاجه الشعري دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً، مثل متذوق النبيذ، الذي يحتسيه قطرة بعد قطرة كي يستمتع بالنظر إلى لون الخمر وبشمّ رائحته؛ وكوزلوف(102)، الشاعر المتناغم، الذي صدح بأصوات موسيقية حميمية لم يُسمع مثلها حتى الآن؛ وباراتينسكي(103)، الشاعر الصارم والكئيب، الذي سعى في وقت مبكر بأفكاره الأصيلة نحو العالم الداخلي وبدأ يصقلها، قبل أنْ تنضج فيه؛ فبدا للناس كئيباً وغير متطور فصار بالنسبة للجميع غريباً فلم يقترب منه أحد... لقد حفّز بوشكين هؤلاء الشعراء كلهم؛ أما الآخرون، فقد خلقهم خلقاً بمعنى الكلمة. وأعني بهم هنا شعراءنا الذين يُدعَون شعراء الأنطولوجيات، الذين أنتجوا القليل من الشعر؛ ولكن إذا ما اختار

المرء من بين هذه الزهور العطرة القليلة، فسيصدر كتاباً رائعاً، يمكن لأفضل شاعر أن يضع اسمه عليه. ومن بينهم نذكر الثنائي تومانسكي وإيفان كريلوف وتوتشيف وبليتنيف وغيرهم، الذين لم يكونوا ليظهروا نيرانهم الشعرية وحركاتهم العطرة لو لم تكن مشتعلة من نار شعر بوشكين. وحتى الشعراء السابقون بدؤوا بإعادة بناء تناغم إبداعاتهم الشعرية. كما فعل المترجم الشهير إلياد غينيديتش، وفيودر غلينكا صاحب ديوان «المزامير»، والشاعر الفارس دافيدوف، وأخيراً جوكوفسكي نفسه، الذي هو مربّي بوشكين ومعلّمه في فن الشعر، بدأ فيما بعد يتعلم من تلميذه. وحتى أولئك الذين لم يولدوا شعراء أصبحوا بفضله شعراء، مع إنهم أُعِدّ لهم مجال ليس أقل نبلاً، إذا ما حكمنا من خلال القوى الروحية التي أظهروها حتى في تجاربهم الشعرية: مثل فينيفيتينوف، الذي اختطفه الموت منا مبكراً، وخومياكوف، الذي لا يزال يعيش والحمد لله من أجل مستقبل مشرق، طالما أنه لم يكتشفه بعد. وحتى أنّ قوة تأثير بوشكين المثيرة قد أضرت بالكثيرين، وخاصة باراتينسكي، وشاعر آخر، سأتحدث عنه في أدناه، – لقد أضرّت بهم حقيقة أنهم بدؤوا في نقل حركات الروح غير الناضجة، في حين أنّ الروح نفسها لم تكتسب بعدُ الشعر السهل والقريب من الآخرين، وأضرت بهم عندما تعيّن عليهم أن يكملوا إعدادهم الداخلي أولاً وأن يلزموا الصمت حتى ذلك الحين. لقد أغوى الجميع هذا الإتقان الفني غير العادي للإبداعات الشعرية، الذي أظهره بوشكين. فتناسى الجميع المجتمع، وكل روابط الإنسان الحديثة به، وجميع مطالب الأرض التي نشأوا عليها، وتخيلوا أنفسهم يعيشون في بلاد شعرية قديمة، مكررين أبيات بوشكين:

لم نولد من أجل قلق الحياة اليومية،

ولا من أجل المنفعة الشخصية،

ولا من أجل المعارك،

لقد ولدنا من أجل الإلهام،

ومن أجل الكلمات الحلوة والصلوات

من بين شعراء عصر بوشكين، تميز يازيكوف(104) أكثر من غيره. مع ظهور قصائده الأولى، أصغى الجميع إلى إبداعاته الشعرية الجديدة، المفعمة بالصخب والعربدة والجرأة في كل التعبير ونور ابتهاج الشباب، وذات اللغة القوية والمتكاملة الطيعة بيد صاحبها بشكل لم يظهر لدى في أي شاعر آخر. لم يوهب عبثاً اسم يازيكوف(105). إنه يجيد التعامل مع اللغة مثلما يجيد العربي التعامل مع حصانه البري، ومع هذا، يتفاخر بسطوته. أينما يمسك الجملة، سواء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرأس أو من الذيل، فإنه سيخرجها بطريقة خلابة، ويختتمها ويغلقها بطريقة تشعرك بالدهشة. فكل ما يعبر عن قوة الشباب، غير الخائرة، بل الشديدة، الزاخرة بالمستقبل، أصبح فجأة موضوعاً لقصائده. فتنتشر نضارة الشباب من كل ما يلمسه. هكذا يصف استحمامه في النهر:

فلتغرب الحُجُب! ولتمدّ أمام الجبين

أيدينا الجريئة، وتقفز!

فينطلق رذاذ الماء

مثل المطر البهي.

يا لها من موجة قوية!

يا لها من نضارة وبرودة!

كم هي شهوانية، كم هي رقيقة

حورية الماء التي احتضنتني!

وإليك كيف يصف لعبة قذف المسامير التي يسميها لعبة روسية محض. يقف الشبان في دائرة:

مسمار ثقيل، يُدَقُّ بثباتٍ كالركيزة

في الحلقة – فتُخشخِش الحلقة.

فلا نشعر كيف يمر مسرعاً

المساءُ الربيعي الخالي من الهموم.

كل ما يثير الشجاعة في الشاب – البحر والأمواج والعواصف والأعياد وكؤوس الخمر، والتعاون الودي في العمل، والإيمان الصلب بالمستقبل، والاستعداد للدفاع عن الوطن، – كل هذا يعبّر عنه بقوة غير طبيعية. عندما ظهرت قصائده في كتاب منفصل، قال بوشكين بانزعاج: «لماذا أسماها «قصائد يازيكوف»؟ كان ينبغي أنْ يسمّيها ببساطة: «الثمالة»! فالإنسان بقواه العادية لن يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ الأمر يتطلب هنا قوى معربدة». وإني أتذكر بوضوح سعادة بوشكين عندما قرأ قصيدة يازيكوف إلى دافيدوف، المنشورة في مجلة. لأول مرة رأيت آنذاك دموعاً على وجه بوشكين (لم يبكِ بوشكين أبداً؛ قال عن نفسه في رسالته إلى أوفيدي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إني سلافي شديد، لم أذرف الدموع، لكنني أفهمها»). وأتذكر تلك المقاطع التي جعلته يبكي: المقطع الأول الذي يخاطب فيه الشاعر روسيا التي قيل عنها أنها ضعيفة وعاجزة، بما يلي:

اسمعي! جلجلَ صوت البوق!

يا روسيا! بنداء متعجرف لكِ!

تذكري كيف قابلتِ

كل غزوات الأعداء!

استدعي أبطالكِ

من البلدان البعيدة،

من السهوب، من السهول الفسيحة،

من الأنهار العظيمة، من الجبال الشامخات،

من بحارك الثمانية!

ثم المقطع، الذي يصف التضحية غير المسبوقة بمثيل، – من خلال إحراق العاصمة(106) بكل ما فيها من مقدسات للبلاد كلها:

يندفع اللهب في السماء،

فتهدر نار موسكو الشرسة.

أيتها القديسة ذات الرأس الذهبي، هل تحتضرين؟

يا روسيا، تقدمي إلى الأمام!

يا له من دمار أشد من العاصفة!

يا لها من مجابهة جريئة!

هذا مذبح الخلاص،

هذا لهيب التطهير،

هذه نار العنقاء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَن منا لا يذرف الدموع بعد سماع هذه المقاطع؟ أشعاره أشبه بنشوة سُكْر شديد. لكن في نشوة السُكْر ثمة قوة عليا، ترفعه نحو الأعلى. ولديه حفلات الطُلاب ليس من أجل تمضية الوقت في العربدة والسكْر، بل بسبب الفرح من تمتعهم بالقوة وبوجود المستقبل المفتوح أمامهم، ولأنهم طلاب سوف يندفعون:

إلى الخدمة النبيلة

من أجل مجد الشرف والخير.

المشكلة الوحيدة هي أن السكْر تجاوز الحدّ المعقول وأنّ الشاعر نفسه عربد بإفراط من الفرح بمستقبله، مثل الكثيرين منا في روسيا، ولكن لم يبق من الأمر سوى الشؤرة العاطفية القوية.

تطلّعت العيون كلها صوب يازيكوف. كان الجميع يتوقعون شيئاً غير عادي من الشاعر الجديد، الذي انطلق من قصائده مثل هذا التباهي البطولي لإنجاز عمل جبار. لكنّ الأمر المنشود لم يتحقق. فقد نشر عدداً قليلاً من القصائد، التي كررت الشيء نفسه بشكل أضعف؛ ثم عانى الشاعر من مرض خطير أثّر على روحه. وفي قصائده الأخيرة لم يعد ثمة أي شيء يثير الروح الروسية. فكانت قصائده مليئة بالملل وهي تصف الضجر في المدن الألمانية والملاحظات الخاملة على الرحلات، وقائمة المعاناة اليومية الرتيبة. هذا كله كان ميتاً بالنسبة للروح الروسية. لم يُلاحظ حتى صقل استثنائي لقصائده اللاحقة. وصارت لغته القوية إلى جانب الأفكار الهزيلة والمحتوى الضعيف، مثل درع بطل على جسد قزم ضعيف. حتى قيل إنّ يازيكوف ليس لديه أيّ أفكار على الإطلاق، بل لديه أبيات شعر فارغة فقط، وأنه حتى لم يكن شاعراً. فتعالت الهمهمات ضده. ثم دوّت أصداء هذه الهمهمات بسخرية في المجلات، ولكن في أساسها كانت الحقيقة. إنّ يازيكوف، عندما تحدث عن الشاعر، لم يقل على حدّ تعبير بوشكين:

لم نولد من أجل قلق الحياة اليومية،

ولا من أجل المنفعة الشخصية،

ولا من أجل المعارك،

لقد ولدنا من أجل الإلهام،

ومن أجل الكلمات الحلوة والصلوات.

بل عنده الأمر بالعكس، فهذا ما يقوله الشاعر:

عندما يكون كل شيء فيك متأهباً لإنجاز المأثرة،

التي تُرى فيها هبة السماء على الأرض،

ونور الفكرة العظيمة وحرارتها

والكلمة التي تنفث النار

عندئذ انطلق إلى العالم، إنه سيدرك أنك شاعر.

لنفترض أنه يتحدث هنا عن الشاعر المثالي؛ لكنه أخذ مثله الأعلى من طبيعته الخاصة. لو لم يكن لديه تلك مبادئ، لما كان ليتخيل مثل هذا الشاعر. كلا، لم تكن قوته هي التي تركته، وليس افتقار الموهبة والأفكار بسبب الفراغ في محتوى قصائده الأخيرة، كما هتف النقاد بثقة، ولا حتى المرض (لا يعمل المرض إلا على تعجيل الأمر، إذا ما تغلغل الإنسان في معناه) – كلا، تغلّب عليه شيء آخر: لقد خمد نور الحب في روحه – لذا أخذ ضوء الشعر يشحب بالتدريج. أنْ تحب ما هو ضروري ومنشود لروحك بالقوة التي أحببت فيها عريدة شبابك من قبل، – وفجأة تسمو أفكارك بمستوى الشِّعر، عندئذ ستصدح منك كلمة تنفث النار: سوف تصور لنا نفس ابتذال حياتك السقيمة، لكنك ستصورها بطريقة تجعل المرء يرتجف من قوتك الحديدية التي استيقظت فيك وستشكر الله على المرض الذي جعلك توصل لذلك المر هذا الشعور. لم يضطر يازيكوف إلى معالجة شعره وإثرائه على خطى بوشكين؛ إنه لم يولد من أجل المرثيات والقصائد الأنطولوجية، بل من أجل المديح والترنيمات، وقد أحسّ الجميع بهذا. فكان عليه أنْ يقتبس ناراً لسراجه من ديرجافين أكثر مما يقتبسها من بوشكين. فشعره لا يدخل الروح إلا عندما يتوهج كل شيء في النور الوجداني؛ ولا يكون الشيء عنده حياً إلا عندما يتحرك أو يصدر صوتاً أو يضيء، وليس عندما يكون في حالة سكون... إنّ مصائر الشعراء غير متشابهة. بعضهم يُقدَّر له أنْ يكون مرآة صادقة وصدى للحياة – ولهذا السبب يُمنَح موهبة الوصف المتعددة الجوانب. والآخر قُيِّض له أنْ يكون هو القوة الطليعية التي تحرِّض المجتمع في جميع حركاته النبيلة والعليا – ولهذا أُعطي موهبة الوجدان. لا تصل الموهبة إلى طريقها المنشود إذا لم توجّه الأنظار إليها. ولكن العناية الإلهية تهتم بالإنسان بشكل أفضل. فمن خلال المحنة والشرّ والمرض، تقوده بالقوة إلى ما لم يكن ليصل إليه بنفسه. وحتى في إبداع يازيكوف الشعري، ثمة رغبة ملحوظة للانعطاف نحو طريقه الشرعي. لقد سمعنا منه مؤخراً قصيدة «الزلزال»، والتي هي، حسب رأي جوكوفسكي، أفضل قصائدنا.

من بين شعراء عصر بوشكين تفرّد الأمير فيازيمسكي. ومع أنه بدأ الكتابة قبل أنْ يبدأ

بوشكين بوقت مبكر، ولكن لأنّ تطوره الكامل حدث في عصر بوشكين، فسنتحدث عنه هنا. الأمير فيازيمسكي هو نقيض الشاعر يازيكوف: فبقدر افتقار يازيكوف للأفكار، نجد وفرتها لدى فيازيمسكي. لقد استعمل البيت الشعري كأول أداة يصادفها: من دون صقل خارجي له، ومن دون تركيز وإثراء للفكرة لكي يعرضها للقارئ كجوهرة: إنه ليس فناناً ولا يهتم بهذا كله. قصائده كلها ارتجالية، على الرغم من أنّ المرء يحتاج في مثل هذا الارتجال إلى الكثير من المواهب المتنوعة وإلى رأس متأهّب جداً. لقد تجمّعت فيه وفرة غير عادية من جميع الصفات: الذكاء والظرافة والبصيرة وقوة الملاحظة والقابلية على الاستنتاج والحساسية المرهّفة والمرح وحتى الحزن؛ وكل قصيدة من قصائده عبارة عن أوراق لعب متنوعة جمعها معاً. إنه ليس شاعراً بالفطرة: فالقدر، بعد أن جاد عليه بجميع المواهب، منحه، بالإضافة إلى ذلك، موهبة الشعر، من أجل أن يصنع منه شيئاً متكاملاً. يكشف كتابه «سيرة فونفيزين(107)» بشكل أوضح عن وفرة من مختلف المواهب التي كان يتمتع بها. فتجده في الوقت نفسه سياسياً وفيلسوفاً ومقيّماً وناقداً ماهراً ورجل دولة إيجابياً وحتى قائداً متمرساً في الجانب العملي من الحياة – باختصار، كل تلك الصفات التي يجب أن يمتلكها المؤرخ العميق بالمعنى الأسمى. ولو كُتِبَ، بمثل هذا القلم الذي سُطِّرَت به سيرة فونفيزين، تاريخُ حقبة حكم يكاتيرينا كلها التي بدت لنا ولا تزال حتى الآن تقريباً خيالية بسبب غزارة العصر غير العادية والتصادم الاستثنائي للشخصيات والطباع غير العادية، عندها يمكننا القول بشكل شبه مؤكد أنّ أوروبا لم تكن لتُقدّم لنا عملاً يرقى إلى مستوى هذا العمل التاريخي. لكن عدم وجود عمل عظيم ومتكامل هو علة الأمير فيازيمسكي، وهذا ما نحسّه حتى في قصائده نفسها. إذ يُلاحظ فيها غياب التنسيق الداخلي المتناغم في الجزئيات، ويُشعَر بالتنافر: فالكلمة لا تقترن مع الكلمة، ولا البيت مع البيت، وتجد بجانب البيت القوي والثابت بيتاً آخر لا يشبهه بشيء، ومثل هذا غير موجود لدى أيّ شاعر؛ فمرةً يُضغَط فجأة بشيء منتزعٍ من قلبه حيّاً، ثم على الفور يبتعد عن نفسه بصوت غريب تقريباً عن قلبه وخارجٍ تماماً عن الموضوع؛ فيجعل المرء يشعر بالتشتت في الذات، وبافتقار الحياة لقواها؛ ويشعر في قعر كل ما يتصوره شيئاً مسحوقاً وكئيباً. إنّ مصير مَن يتمتع بقدرات متنوعة ويجد نفسه بدون قضية من شأنها أنْ تشغل كل واحدة من قدراته أصعب من مصير الآخر الذي يفتقر لذلك كله. فلا ينقذنا سوى ذلك العمل الذي يجعل الإنسان يتوجه بشكل كامل إلى ذاته وينطوي على نفسه. وبه فقط كما يقول الشاعر:

الروح تستقيم، وتقوى الإرادة،

ونصيبنا يتحدد بشكل أفضل.(108)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الوقت الذي كان فيه شعرنا يتخذ له مساراً خاصاً بسرعة كبيرة، مربياً الشعراء من جميع العصور والأمم، وصادحاً بأصوات جميع البلدان الشعرية، ومجزياً جميع النغمات والأوتار، بقي شاعر واحد منعزلاً. فقد اختار لنفسه درباً ضيقاً وغير ملحوظ، وسار عليه من دون ضجة تقريباً، حتى تفوق على الآخرين، مثل شجرة بلوط متينة أفرطت في النمو حتى ملأت البستان الذي كان يخفيها تماماً في البداية. هذا الشاعر هو كريلوف(109). لقد اختار لنفسه جنس الحكاية الخرافية(110) التي أهملها الجميع لأنهم عدّوها شيئاً قديماً، وغير صالح للاستخدام ويكاد يكون لعبة للأطفال – وفي هذه الحكايات بالذات عرف كيف يصبح شاعراً شعبياً. هذا هو التفكير الروسي السليم، والذهنية القريبة من ذهنية الأمثال الشعبية، والعقل الذي يتمتع به الإنسان الروسي، عقل الاستنتاجات، وما يسمى بالذهنية الاسترجاعية الذي يتفاعل مع الشيء بعد فوات الأوان. إنّ المثل الشعبي ليس رأياً مطروحاً مسبقاً ولا اقتراحاً لأمر ما، بل هو إجمالي ملخّص للقضية، وغرش، وترشب من حوادث انتهت وتخمّرت، واستخراجٌ نهائي لقوة القضية من جميع الجهات وليس من جهة واحدة. وهذا يُعبّر عنه كذلك في القول المأثور: «الكلمة الواحدة ليست مثلاً». نتيجة لهذه الذهنية الاسترجاعية، أو عقلية الاستنتاجات النهائية، التي يتمتع بها الإنسان الروسي في الغالب قبل الآخرين، صارت أمثالنا أهم من أمثال جميع الشعوب الأخرى. وإلى جانب اكتمال الأفكار، في صورة التعبير ذاتها، انعكست العديد من الخصائص الشعبية فيها؛ إنها تحتوي على كل شيء: التهكم، السخرية، اللوم – باختصار، كل ما هو مثير للقلق والإزعاج: إنها مثل آرغوس(111) ذا المائة عين، ينظر منها إلى الإنسان. جميع الناس العظماء، من بوشكين إلى سوفوروف(112) وبطرس الأكبر. كانوا يبجّلون أمثالنا. لقد عبّروا عن احترامهم لها من خلال العديد من الأقوال المأثورة: «المثل لا يُقال عبثاً»، أو «المثل لن ينكسر أبداً». ومن المعروف أنك إذا تمكنت من إنهاء خطاب بمثلٍ مرتّب بذكاء، فسوف تستطيع بذلك أنْ تشرحه فجأة للناس، بغض النظر عن مدى كونه في حدّ ذاته أعلى من مفهومهم.

هذا هو منشأ حكايات كريلوف. إنّ حكاياته ليست موجّهة بأي حال من الأحوال إلى الأطفال. سوف يكون مخطئاً خطأً فظيعاً مَن يدعو كريلوف كاتبَ حكايات بالمعنى الذي كان فيه كتّاب الحكايات من أمثال لافونتين وديمتريف وخمنيتسر وأخيراً إزمايلوف(113). إنّ حكاياته – ثروة شعبية وتشكل كتاب حكمة الشعب نفسه. الحيوانات لديه تفكر وتتصرف على الطريقة الروسية: ففي سلوكها الغريب فيما بينها، يمكن للمرء أن يشعر بالسلوكيات والطقوس التي تجري داخل روسيا. وبالإضافة إلى تشابه الحيوانات الدقيق، الذي يتمتع به بقوة لدرجة أنّ ليس الثعلب والدب والذئب فقط بل وحتى القِدر نفسه يتحول كما لو كان حياً، فقد أظهرت

شخصياته أيضاً الطبيعة الروسية في حدّ ذاتها. وحتى الحمار الفقيز في شخصيته لدرجة أنّ القارئ بمجرد أن يراه يحرّك أذنيه بعض الحكايات حتى يصرخ أمامه: «هذا هو حمار كريلوف!» – حتى الحمار، على الرغم من انتمائه لمناخ أراضٍ أخرى بدا لديه كإنسان روسي. فبعد أنْ كان يسرق مما في مزارع الآخرين على مدى عدة سنين، توهج فجأة بحب الرّفعة وسعى لأن يُقلّد وساماً، وشمخ بأنفه عندما علّق صاحبه (مالكه) جرساً حول رقبته، من دون أن يفكر في أنه عند أيّ سرقة أو تصرف دنيء له سيراه الجميع الآن وسيتلقى الضرب على جنبيه من كل صوب. باختصار – تجد روسيا في كل مقطع من حكاياته، وكل شيء لديه يفوح برائحة روسيا. وعلاوة على ذلك، فإنّ كل حكاية من حكاياته لها أصل تاريخي. وعلى الرغم من تأنيه ولا مبالاته، على ما يبدو، تجاه الحوادث المعاصرة، إلا أنّ الشاعر تابع كل حادثة داخل الدولة: وأفصح عن رأيه بخصوص كل شيء فكان يُشعر في صوته بالوسطية العقلانية التي توفّق بين الآراء، وهذا ما تتمتع به العقلية الروسية بشدة، عندما تصل إلى حدّ الكمال. إنه يُعرّف كل شيء بالكلمة الثابتة والموزونة بدقة، وبهذا يُبرز حقيقة الأمر وجوهره الصحيح. فعندما بدأ البعض من ذوي الميول العسكرية المفرطة يؤكدون على أنّ كل شيء في الدول يجب أن يقوم على القوة العسكرية فقط وأنّ الخلاص لا يكون إلا من خلال القوة العسكرية وحدها، وعندما بدأ الموظفون المدنيون، بدورهم، في التهكم على كل ما هو عسكري، لمجرد أن البعض حوّل الشأن العسكري إلى مجرد مظاهر فارغة تقتصر على الرُّتب وشارات، كتبَ كريلوف قصيدة «المَدافع والأشرِعة» الشهيرة التي تكشف الخلاف بينهما، والتي وضع فيها كلا الجانبين في حدودهما القانونية بهذه الرباعية الرائعة:

كل دولة قوية،

عندما تُرتّب أجزاؤها بحكمة:

بالسلاح – تردع الأعداء،

والأشرعة – فيها سلطات مدنية.

يا له من تعريف دقيق! لا يمكنك الدفاع عن نفسك بدون مدافع، ولا يمكنك أنْ تُبحِر بدون أشرعة. وعندما رسخ لدى بعض الموظفين الحَسنِيّ النية ولكن قصيريّ النظر رأيٌ غريبٌ، مفاده أنه يجب الحذر من الأشخاص الأذكياء والنشيطين وتجاوزهم في المناصب لأنّ بعضهم كان ذات يوم شقياً وانخرط في عمل متهور، كتب كريلوف حكاية «الشفرتان» الرائعة، وقد وبّخ فيها الموظفين الكبار:

إنهم يخافون من ذوي العقول النيرة

ويُفضّلون تشغيل الحمقى معهم.

يمكن للمرء بشكل خاص أن يشعر كيف أنه يقف دائماً إلى جانب العقل، وكيف يطلب ألا يُهمَل الإنسان الذكي، بل أن يُتعامَل معه. وقد انعكس هذا في حكاية «جوقة المغنين»، التي اختتمها بعبارة: «إنّي أرى، أيها الإخوة، أنّ حقّاً يضرّ خير من باطل يسرّ! يمكنكم أنْ تسكروا ولكن رتّبوا أمركم!» إنه لم يقل هذا لأنه أراد أن يمدح السكر، ولكن لأن روحه كانت تتألم عندما يرى البعض، يوظّفون بدلاً من الناس الماهرين في عملهم أناساً، الله يعلم حالهم، وفوق هذا يتفاخرون أيضاً، قائلين على الرغم من أنهم لا يجيدون العمل لكنّ سلوكهم ممتاز. كان يعلم أنّ كل شيء يمكن القيام به مع الإنسان الذكي وليس من الصعب تحويله إلى السلوك الجيد إذا ما استطعت التحدث معه بذكاء، لكن من الصعب أن تجعل الأحمق ذكياً، بغض النظر عن طريقة حديثك معه. ويُقال في الأمثال لدينا: «في وجودك مع اللص – خطر، ومع الأحمق – ضجر». ولكنه يوجّه أيضاً ملاحظات قوية إلى الماهر، ويوبخه بشدة في حكاية «البزكة الراكدة» لترك قدراته تغفو، ووبخه بشدة في أسطورة «الكاتب واللص» لاتجاههما الفاسد والشرير. بشكل عام، كان مهتماً بالقضايا المهمة. وفي كتابه دروس لكل الناس، ولجميع المراتب في الدولة، ابتداءً من الرأس، الذي يخاطبه بقوله:

هل يريد الحاكم أنْ يكبت الشعوب؟

فليمسك اللجام، ليس بعنف، بل بيد قوية،

وحتى آخر كادح، يعمل في الرتب الدنيا من الدولة التي يشير إليه كريلوف نحو مصير عالٍ في شكل نحلة، لا تسعى لتمييز عملها:

ولكن ما أشرف مَن توارى في الحضيض،

لا يُغرى بالمجد ولا بالاعتبارات،

مقابل أعماله كلها، ومقابل هدوئه الضائع كله،

وينتعش بمجرد التفكير،

بأنه يعمل من أجل الصالح العام.

ستبقى هذه الكلمات دليلاً أبدياً على مدى نُبل روح كريلوف. لم يعرف أيّ واحد من الشعراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنْ يجعل فكرته منطقيةً ويعبّر عن نفسه بهذه الطريقة التي يفهمها الجميع مثلما فعل كريلوف. لقد امتزج فيه الشاعر والحكيم في وقت واحد. كل شيء فيه يمتاز بالروعة، من تصوير الطبيعة الآسرة والقاسية وحتى القذارة، إلى نقل أدنى ظلال الحديث التي تُظهِر الصفات الروحية كأنها حيّة. فقد تكلم عن كل شيء بدقة متناهية، ووضعه في المكان المناسب فاستوعبه الجميع بقوة، الأمر الذي جعل من الصعب تحديد طبيعة كتابة كريلوف. ولا يمكن للمرء أنْ يمسك ماهية أسلوبه. يبدو الشيء، كما لو لم يكن له غلاف لفظي، ويظهر عينياً من تلقاء نفسه. ولا يمكنك أنْ تستوعب شعره أيضاً. ولا تحديد خصائصه بأي شكل من الأشكال: هل هذا الذي دوّى صوته؟ هل هو سهل؟ هل هو صعب؟ إنه يصدح هناك حيث يصدح الشيء؛ يتحرك حيث يتحرك الشيء؛ يشتد حيث تشتد الفكرة؛ وفجأة يصبح سهلاً، ويفسح المجال لثرثرة خفيفة من أحمق. كلامه مستكين للفكرة وخاضع لها ويتسامى بخفة، تارة يظهر فجأة في قصيدة طويلة بست تفعيلات، وتارة يظهر بقصيدة سريعة ذات تفعيلة واحدة؛ ويكشف بعدد محدود من المقاطع عن روحانية لا توصف بشكل ملموس. ولا بدّ لنا هنا أنْ نذكر الخاتمة المهيبة لحكاية «البرميل الفارغ والبرميل الملآن»:

الإنسان العظيم لا يصخب إلا في العمل،

ويفكر بدون ضوضاء.

فالبرميل الفارغ أكثر ضجيجاً من البرميل الملآن.

هنا، من موضع الكلمات بالذات، يشعر القارئ بعظمة الإنسان المنطوي على نفسه.

يمكننا الانتقال فجأة من كريلوف إلى الجانب الآخر من شعرنا – إلى الشعر الساخر. لدينا جميعاً الكثير من السخرية. يمكن أنْ يجدها المرء في أمثالنا وأغانينا، والأكثر إثارة للدهشة أنها توجد في الغالب في الحالات التي تعاني الروح فيها ولا تميل على الإطلاق إلى البهجة. لم نكتشف بَعدُ عمق هذه السخرية الأصلية، لأننا، بسبب نشأتنا وفق التربية الأوروبية، ابتعدنا حتى هنا عن جذورنا الأصيلة. ومع ذلك، استمر الميل إلى السخرية، وإن لم يكن بذلك الشكل. فمن الصعب أنْ تجد شخصاً روسياً لا تجتمع فيه القدرة على التبجيل الحقيقي لشيء ما إلى جانب سمة الضحك الحقيقي منه. وإنّ شعراءنا جميعاً لديهم هذه الملَكة في أنفسهم. فقد نثرها ديرجافين كالملح الخشن في أكثر من نصف قصائده. وهي موجودة عند بوشكين وكريلوف والأمير فيازيمسكي؛ وتُحَسّ بها حتى عند أولئك الشعراء الذين يتمتعون بمزاج رقيق وحزين في شخصيتهم: من أمثال كابنيست وجوكوفسكي وكارامزين والأمير دولغوروكي، – إنها شيء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قريب منا جميعاً. بطبيعة الحال، كان يجب أنْ ينشأ لدينا كتّاب ساخرون. وبالفعل، في الوقت الذي قام فيه لومونوسوف بضبط أوتار قيثارة إبداعه الشعري على نغمة وجدانية غنائية عالية، عثر الأمير كانتمير(114) على مادة للسخرية وجَلَدَ بها غباء المجتمع الذي كان في بداية نشوئه تقريباً. وفي عصور مختلفة، ظهر لدينا الكثير من السخرية، والشعر الهجائي، والمحاكاة التهكمية لأشهر الأعمال الفنية، وجميع أنواع الهجاء الساخر اللاذع والخبيث التي تكمن في كل مقطع من مقاطعها قوة عظيمة، والتي من المحتمل أن تبقى دائماً في المخطوطات ولا تُنشَر. ولا بدّ لنا أن نتذكر هنا المحاكاة الساخرة لدى الأمير غورتشاكوف، وسخرية فويكوف من الأدباء – «دار المجانين» ومحاكاة ميخائيل ديمتريف الساخرة البارعة، التي دمج فيها عصارة أعمال يوفيناليوس(115) مع بعض الطبيعة السلافية الخاصة. لكن السخرية سرعان ما اكتسبت مجالاً أوسع وتحولت إلى الدراما. فقد نشأ المسرح في بلادنا، كما هو الحال في أي بلاد أخرى، في البداية من خلال التقليد؛ ثم بدأت الميزات الأصلية تشق طريقها فيه. وقد تجلت في الأعمال التراجيدية القوة الأخلاقية وجهل الإنسان تحت ظروف العصر والقرن المحددين؛ وفي الأعمال الكوميدية ظهرت السخرية الخفيفة من جوانب المجتمع المضحكة، من دون النظر إلى روح الإنسان. ويمكننا أن نتذكر باحترام أسماء أوزيروف وكينياجين وكابانيست والأمير شاخوفسكي وخميلنيتسكي وزاغوسكين وألكسندر بيساريوف؛ ولكن كل أعمال أولئك تصبح باهتة لو قورنت بعملين مذهلين هما: كوميديا فونفيزين «القاصر» وكوميديا غريبويدوف «ذو العقل يشقى»، اللتان وصفهما الأمير فيازيمسكي بظرافة كمأسائيين معاصرتين. إنهما لا تحتويان على مجرد استهزاء خفيف بالجوانب السخيفة في المجتمع كما في النتاجات السابقة، بل فيهما جراح وأمراض مجتمعنا، وسوء السريرة الشديد، التي تتكشف بشكل مذهل من قوة السخرية القاسية. تناول كل من العملين عصراً مختلفاً. أصاب أحدهما الأمراض من الجهل، والآخر التنوير غير المفهوم.

تهاجم كوميديا فونفيزين وحشية الإنسان القاسية الناتجة عن الركود الطويل المستحكم والقاسي في زوايا روسيا النائية ومناطقها المنسية. وكشفت هذه القشرة الجَسأة بشكل رهيب التي لا يكاد المرء يتعرف فيها على الإنسان الروسي. مَن يستطيع أن يتعرف على أي شيء روسي في هذا المخلوق الشرير، المليء بالاستبداد، مثل بروستاكوفا(116)، التي عذّبت الفلاحين وزوجها والجميع ما عدا ابنها؟ ومع ذلك تشعر أنه لا يمكن أن يتشكل مثل هذا المخلوق في أيّ أرض أخرى، لا في فرنسا ولا في إنكلترا. هذا الحب المجنون لبنات أفكارها هو حبنا الروسي القوي، والذي غبّرَ عنه في الإنسان الفاقد لكرامته بمثل هذا الشكل المشوّه،

وبمثل هذا المزيج الرائع مع الاستبداد، فكلما أحبّت ابنها، زاد كرهها لكل ما عداه. ثم شخصية سكوتينين(117)- وهو صنف آخر من التحجر. طبيعته الخرقاء، التي لم تكتسب أي عواطف قوية وعنيفة، تحولت إلى نوع من الحب الهادئ والفني بطريقة ما نحو الماشية بدلاً من الإنسان: أصبحت الخنازير بالنسبة له مثل قاعة عرض اللوحات الفنية بالنسبة لهاوي الفن. ثم زوج بروستاكوفا(118)- مخلوق تعيس ومسحوق، قد تلاشت فيه بسبب زوجته حتى تلك القوى الضعيفة التي بقيت فيه صامدة - إنه بلادة كاملة تماماً! أخيراً، ميتروفان(119) نفسه، الذي، مع إنه لا يحمل أيّ شرّ في طبيعته، وليس لديه رغبة في إلحاق الأذى بأي شخص، يصبح من دون أنْ يشعر وبسبب المُداراة والتدليل، طاغيةً ظالماً للجميع، خاصة مع أولئك الذين يحبونه، أي أمه ومربيته، لدرجة أنّ إهانتهن تمثل له متعة. باختصار، تبدو هذه الشخصيات ليست روسية؛ وحتى أنّ من الصعب التعرّف على السمات الروسية فيها، ربما باستثناء يريميييفنا(120) وحدها والجندي المتقاعد. وتحسّ برعبٍ من أنه لن يعد بعد الآن أيّ تأثير عليهم للكنيسة، أو لعادات الماضي، التي بقي منها فيهم الابتذال وحده ولا مكان هنا إلا للقانون الصارم فقط. يبدو كل شيء في هذه الكوميديا وكأنه رسم كاريكاتوري متوحش لما هو روسي. ومع ذلك، لا يوجد شيء كاريكاتوري فيه: فكل شيء في المسرحية مأخوذ من الطبيعة حيّاً ومختبَراً بمعرفة الروح. هذه هي مُثُل القساوة الرهيبة جداً، التي لا يمكن أن يصل إلى مستواها سوى الإنسان الذي ترتّى على الأرض الروسية فقط، ولا شخص غيره.

تناولت كوميديا غريبويدوف(121) «ذو العقل يشقى»(122) زمناً آخر في المجتمع - فقد كشفت عن أمراض التنوير المفهوم على نحو سيّئ، وعن تبني تفاهات الطبقة العليا الغبية بدلاً من الشيء المهم، - باختصار، تناولت الجانب الدون كيشوتي من تكويننا الأوروبي، والخليط غير المتجانس من العادات التي جعلت الروس ليسوا روساً ولا أجانب. إنّ شخصية فاموسوف مفهومة بعمق مثل شخصية بروستاكوفا. إنه تماماً مثل بروستاكوفا التي تتفاخر بجهلها، يتباهى بشبه التنوير، سواء الخاص به أو الخاص بالطبقة التي ينتمي إليها بأكملها: إنه يتباهى بأنّ فتيات الطبقة العليا في موسكو يُغنّين بأعلى النغمات، ولا يقُلْن كلمة واحدة من دون تكشيرة، وأنّ بابه مفتوح للجميع، للمدعوين ولغير المدعوين، خاصة للأجانب؛ وأنّ مكتبه مليء بالأقارب الذين لا يفعلون شيئاً. إنه رجل رزين مقبول، زير نساء، يعظ الناس، ويجيد تناول الطعام بطريقة لا تُطهى في غضون ثلاثة أيام. وحتى أنه حرّ التفكير، إذا ما اجتمع مع كبار السن من أمثاله، ولكنه في الوقت نفسه مستعد لمنع شباب العاصمة ذوي الأفكار الحرة من الكلام، مع إنه يعيب باسمهم كل من خالف العادات المقبولة لدى الطبقة العليا من مجتمعهم.

إنه، من حيث الجوهر، واحد من تلك الشخصيات التي عفا عليها الزمن والتي لم يبق فيها شيء على الإطلاق، comme il faut(123)، والذين من خلال وجودهم في العاصمة ومن خلال الخدمة يضرون بالمجتمع مثلما يضره الآخرون من دون الخدمة ومن خلال الإقامة الخشنة في الريف. إنهم ضارون، أولاً، من خلال أملاكهم، بعد أن سلّموها في أيدي السماسرة والوكلاء، وطالبوهم بالمال فقط من أجل حفلاتهم الراقصة والولائم، والمدعوين وغير المدعوين، لقد دمروا الروابط القانونية الحقيقية التي ربطت الإقطاعيين مع الفلاحين؛ وثانياً، هم ضارون، في المجال الوظيفي – لحقيقة أنهم، عندما منحوا الوظائف لأقاربهم وحدهم فقط الذين لا يفعلون شيئاً، حرموا الدولة من العاملين الحقيقيين وثبطوا عزيمة أيّ شخص شريف من الحصول على وظيفة؛ وأخيراً، هم ضارون، ثالثاً، لروح الحكومة من خلال حياتهم الغامضة، – ولأنهم تحت ستار العمل الدؤوب من أجل القيصر ومن أجل النوايا الحسنة يطالبون الشباب بأخلاقيات زائفة وفي الوقت نفسه هم أنفسهم فاسدون، فأغضبوا الشباب، وأثاروا فيهم عدم احترام الشيخوخة والفضل والميل نحو التفكير الحرّ الحقيقي، لاسيما أولئك ذوي العقول الضعيفة والمستعدين للتطرف بأقصى حدوده. ولا يقل تميزاً النموذج الآخر: زاغوريتسكي الوغد اللئيم، الموبّخ في كل مكان، والذي مع ذلك يُستقبل أينما ذهب، والكاذب الغشاش، ولكن في الوقت نفسه القادر على إرضاء أيّ شخص مهما علا شأنه أو قوته من خلال تقديم ما يطمع به بشدة، والمستعد، إذا لزم الأمر، أنْ يصبح وطنياً ومُدافعاً متحمساً من أجل الأخلاق، وأن يشعل النيران ويحرق جميع الكتب فيها، مهما كان عددها في العالم، بما في ذلك كُتّاب الحكايات أنفسهم بسبب سخريتهم الأبدية من الأشود والنسور وبهذا بيّن أنه لا يخاف من أي شيء، ولا حتى من أبشع الإساءات، إلا أنه يخاف من السخرية، مثلما يخاف الشيطان من الصليب. والنموذج الثالث ليس أقل إثارة: إنه ريبيتيلوف الليبرالي الغبي، فارس التفاهة في كل الذي يجوب التجمعات الليلية، مبتهجاً، بما يجد، عندما يتمكن من حشر نفسه ببعض الجماعات التي تصخب من حوله بما لا يفهمه، والذي لا يعرف حتى كيف يتحدث، لكنه يستمع إلى الهراء بكل مشاعره، واثقاً من أنه وصل أخيراً إلى الطريق الحقيقي وأنّ هناك حقاً قضية عامة، على الرغم من عدم نضوجها، لكنها سوف تنضج تماماً، إذا ما علا الضجيج حولها كثيراً، وإذا ما اجتمع الناس في الليل وتجادلوا فيما بينهم حولها بقوة أكبر. لا يقل تميزاً عنهم النموذج الرابع: سكالوزوب المحارب الغبي، الذي فهم الخدمة فقط في القدرة على التمييز بين الاختلافات التنظيمية، ولكن مع ذلك كله احتفظ بنظرته الفلسفية الليبرالية الخاصة تجاه الرُّتَب، والذي اعترف بصراحة أنه يعدّها قنوات ضرورية لكي يصبح جنرالاً، وبعدها لا يبالي بشيء؛ ولا تهمه كل المخاوف الأخرى، أما ظروف الزمان والحياة فهي بالنسبة له ليست علماً محيّراً: إنه مقتنع بصدق، أنه يمكن تهدئة العالم بأسره من خلال عريف

من فوجه مفؤه مثل فولتير. لا يقل أهمية أيضاً نموذج المرأة العجوز خليستوفا، التي هي مزيج بائس من الابتذال على مدى قرنين من الزمان، والتي احتفظت من الزمن السالف بالابتذال وحده، مع ادعاءات باحترام الجيل الجديد، والتي تطالب أولئك الذين تحتقرهم أنْ يحترموها، والمستعدة لأن تسبّ بصوت عالٍ كلّ من هبّ ودبّ لمجرد أنه جلس في الاتجاه الخاطئ تجاهها أو استدار أمامها، والتي ليس لديها أيّ حب أو احترام لأي شيء، ولكنها شفيعة المتملقين والتافهين والناس الذين من أمثال مولتشالين، – باختصار، إنها عجوز سيئة بالمعنى الكامل للكلمة. ومولتشالين نفسه أيضاً نموذج من نوع خاص. هذه الشخصية الصامتة الوضيعة صُوِّرَت ببراعة، وهي تتسلل بهدوء إلى الناس، ولكنّه وفقاً لقول تشاتسكي، يعدُّ نفسه ليكون زاغوريتسي المستقبل. مثل هذا الحشد من مسوخ المجتمع، كل واحد منهم رسم كاريكاتيراً لرأي ما وقاعدة وفكرة، بعد أن شوّه معناها الشرعي وفقاً لهواه، وكان من المفترض أنْ يُقابَل بتطرف آخر، والذي كُشِفَ عنه بوضوح في شخصية تشاتسكي. ففي حالة من الغضب والسخط الفجّ ضدهم جميعاً، يتحول تشاتسكي أيضاً إلى التطرف، من دون أن يلاحظ أنه من خلال هذا الشيء بالذات ومن خلال هذه اللغة غير المتماسكة، يصبح هو نفسه غير محتمَل وحتى سخيف. إنّ جميع شخصيات كوميديا غريبويدوف هم أبناء شبه التنوير، تماماً مثل أبطال فونفيزين، – أبناء شبه التنوير، مسوخ روسية، شخصيات مؤقتة وعابرة تشكلت في تربة متخمرة جديدة. لا يوجد نموذج روسي مستقيم في أيٍّ منها؛ ولا تشعر في أيّ واحد منهم مواطناً روسياً. يظل الفشاهد في حيرة من أمره بشأن ما يجب أن يكون عليه الإنسان الروسي. وحتى تلك الشخصية التي تبدو نموذجية، أيّ تشاتسكي نفسه، لا يُبدي سوى الرغبة في أن يصبح شيئاً مهماً، ويعبّر فقط عن سخطه تجاه ما هو حقير ومثير للاشمئزاز في المجتمع، لكنه لا يمثل نموذجاً للمجتمع.

كلا النتاجين الكوميديين يلبيان شروط المسرح بشكل سيّئ؛ فمن هذه الناحية، أيّ مسرحية فرنسية ضئيلة أفضل منهما كلتيهما. إنّ محتوى الحبكة فيهما غير متماسك بإحكام والعقدة غير محلولة ببراعة. ويبدو أنّ الكاتبَين نفسيهما لم يهتما بهذا كثيراً، ورَأيا من خلاله مضموناً مختلفاً أعلى، وفكّرا به في ظهور شخصياتهما على خشبة المسرح وانصرافها. وقيست درجة الحاجة إلى الشخصيات والأدوار الثانوية أيضاً ليس وفقاً لبطل المسرحية، بل وفقاً لمدى للقدرة على إكمال وتوضيح فكرة المؤلف نفسه من خلال وجودها على خشبة المسرح، ومقدار ما يمكنهم إضافته إلى عمومية السخرية كلها. وبخلاف ذلك – أيّ، إذا استوفيا هذه الشروط الضرورية لأي خلق درامي وجعلا كل شخصية من الشخصيات يمكن فهمها واستيعابها بشكل مناسب، ويمكن لها أنْ تراوغ أمام المشاهد في العمل المباشر، وليس في الحوار، – ستكون المسرحيتان عملين رفيعي المستوى من نتاجاتنا الفذة. والآن يمكن تسميتهما كوميديا اجتماعية حقيقية، وهذا

التعبير، بقدر ما يبدو لي، لم تتبناه الكوميديا بعد عند أيّ من الشعوب الأخرى. مع أنّ هناك آثاراً للكوميديا الاجتماعية عند الإغريق القدماء. ولكن أريستوفان (أرسطفان) (124) كان يسترشد بتصرف شخصي بحت، ويهاجم الإساءات الشخصية لأفراد معيّنين، ولم يكن دائماً يضع الحقيقة في الاعتبار: والدليل على ذلك، أنه تجرأ حتى على السخرية من سقراط. وإنّ كاتبينا الكوميديّين تحرّكا بسبب اجتماعي، وليس بسبب شخصي، ووقفا ليس ضد أفراد معيّنين، بل ضد العديد من الانتهاكات، ضد انحراف المجتمع بأسره عن الطريق المستقيم. لقد جعلا المجتمع كما لو كان جسدهما؛ فاشتعلت بنار السخط الغنائي الوجداني القوةُ القاسية لسخريتهما. وهذا الفعل يمثل استمراراً للمعركة نفسها التي تدور بين النور والظلام، التي أدخلها بطرس إلى روسيا، والتي جعلت كلّ روسي نبيل محارباً من أجل النور، بشكل لا إرادي... كلتا المسرحيتين الكوميديتين ليستا عملَين فنيّين بأي حال من الأحوال ولا تنتميان إلى خيال الكاتب. لقد انتظرتا الكثير من تراكمات القمامة والمشاحنات داخل أرضنا حتى ظهرتا من تلقاء نفسيهما تقريباً على شكل تنقية هائلة. ولهذا السبب، لم يظهر على أثرهما شيء مثلهما في أدبنا، ومن المحتمل، لن يظهر بعدهما لمدة طويلة.

مع وفاة بوشكين، توقفت حركة شعرنا نحو الأمام. غير أنّ هذا لا يعني أنّ روحه قد انطفأت؛ بل على العكس من ذلك بدأ يتراكم من بعيد بالخفاء، مثل العاصفة الرعدية؛ فالجفاف الشديد والجو الخانق ينذر باقتراب العاصفة. وقد ظهر الآن بعض الناس الذين لا يخلون من المواهب. ولكن لا يزال كل شيء متأثراً بشدة بأصوات بوشكين المتناغمة؛ ولا أحد يستطيع بعدُ الخروج من هذه الدائرة المسحورة المحدّدة وأنْ يظهر قوته. وحتى أنّ لا أحد يشعر بعدُ أنّ وقتاً مختلفاً قد حان مِن حوله، وتشكلت عناصر حياة جديدة وأسئلة لم تُطرَح مِن قبل؛ وبالتالي ليس لدى أيّ منهم جوهرة بعد. لا ينبغي حتى ذكر أسمائهم، باستثناء ليرمنتوف(125) وحده، الذي تجاوز الآخرين كثيراً وغادر هذا العالم قبلهم. إنّ فيه ثمة أمارات أولية على الموهبة؛ وكان بإمكانه أنْ يفعل الكثير في مجاله لو التفتْ إليه نجم السعد. فبعد أن سقط من البداية في دائرة ذلك المجتمع، الذي يمكن أن يسمى بحق مؤقتاً وانتقالياً، والذي، مثل نبتة مسكينة، اقتُلِعت من تربتها الأصلية، وحُكم عليها أنْ تندفع بصورة موجِشة في السهوب، مدركةً بنفسها أنها لن تنمو في أيّ تربة أخرى ونصيبها – أنْ تذبل وتسقط، – منذ وقت مبكر بدأ يعبر بلا مبالاة تمزق نياط القلب تجاه كل شيء، والذي لم يُسمع بمثله لدى أيّ واحد من شعرائنا بعد. فاللقاءات الكئيبة والفراق الخالي من الحزن والهموم علاقات الحب الغريبة التي لا معنى لها والتي ولا يُعرَف لماذا عُقِدَت ولا يُعرف لماذا قُطِعَت، أصبحت موضوع قصائده وأعطت جوكوفسكي الفرصة أنْ يُعرِّف جوهر هذا الشعر بشكل صحيح تماماً بعبارة الشعر الخالي «من الفتنة». وقد أصبح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الشعر الخالي «من الفتنة» بمساعدة موهبة ليرمنتوف موضة لمدة من الوقت، مثلما صار كلمة «فتنة» ذات مرة موضة، عندما انتشرت من يد شيلر الخفيفة في جميع أنحاء العالم، ومثلما بعد ذلك، خرجت من يد بايرون الثقيلة كلمة «خيبة الأمل» ودخلت الاستعمال، والتي اشتُقت ربما من الفتنة المفرطة، وأصبحت موضة لمدة من الوقت، وهكذا أخيراً جاء دور «خيبة الأمل» من بنات أفكار خيبة أمل بايرون نفسه. وكان وجودها، بالطبع، أقصر من كل التوصيفات الأخرى، لأنْ في عبارة «من دون فتنة» لا يوجد طعم لأي شخص على الإطلاق. وبعد أن أدرك الشاعر تسلّط شيطان مُغوٍ عليه حاول أكثر من مرة أنْ يرسم صورته، كما لو كان يرغب في التخلص منه بالشعر. لم تحدد ملامح هذه الصورة بشكل قاطع، وحتى لم تكتسب تلك القوة الإغوائية على الشخص الذي أراد أن يمنحها إياه. ويبدو واضحاً أنْ صورة الشيطان لم تنشأ من قوته الخاصة، بل من تعب الإنسان وكسله عن القتال مع الشيطان. ففي قصيدة لليرمنتوف غير مكتملة، بعنوان «حكاية للأطفال»، تكتسب هذه الصورة مزيداً من التعريف والمعنى. ربما، بنهاية هذه القصة، التي هي أفضل قصائده، سيتخلص من الروح نفسها ومعها، من حالته الكئيبة (علامات هذا تتألق بالفعل في قصيدتي «الملاك» و«صلاة» وبعض القصائد الأخرى)، لو بقي في داخله شخصياً المزيد من الاحترام والحب لموهبته. لكن لم يسبق لأحد أن لعب مثل ليرمنتوف بموهبته بهذا الشكل التافه وحاول جاهداً أن يُظهر لنفسه نوعاً من الازدراء المتبجح. لا يُلاحظ لديه حب لبنات خياله. ولم تتوضّح فيه قصيدة واحدة، ولم يكن يعتز بقصائده ويرعاها رعاية الأب لأبنائه، ولم تستقر ولم تتركّز في نفسه ذاتها؛ والبيت الشعري نفسه لم يكتسب لديه بعد شخصيته الراسخة ويشبه على نحو ضعيف البيت الشعري تارة لدى جوكوفسكي، وتارة لدى بوشكين؛ لديه في جميع القصائد إسراف في الكلمات وإطناب. وفي أعماله النثرية ثمة فضائل أكثر. لم يسبق لأحد في بلادنا أن كتب مثل هذا النثر الصحيح الجميل والرائع. هنا يمكنك أن ترى المزيد من التعمق في واقع الحياة – فقد تأهب للبروز رسامٌ عظيم مستقبلي للحياة الروسية... لكن الموت المباغِت أبعده عنا فجأة. يمكن للمرء أن يشعر بشيء رهيب في مصير شعرائنا. فبمجرد أن يغفل أحدهم عن مجاله الرئيس وهدفه، ويندفع إلى مجال آخر أو يغرق في دوامة العلاقات الدنيوية التي لا ينبغي أن يكون فيها، والتي لا يوجد مكان للشاعر فيها، حتى يخطفه الموت المباغِت والعنيف فجأة من بيننا. فالشعراء الثلاثة البارزون: بوشكين، غريبويدوف، ليرمنتوف، اختطفهم الموت العنيف واحداً تلو الآخر، أمام الجميع، في غضون عقد واحد، في زمن الرجولة الأكثر ازدهاراً، وفي ظل التطور الكامل لقوتهم – وهذا لم يدهش أحداً: وحتى معشر الطائشين لم يختلج.

ولكن حان الوقت، مع ذلك، لنقول في الختام ما هو شعرنا بشكل عام، ولماذا كان، وماذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخدم وماذا فعل لأرضنا الروسية بأكملها. وهل كان له تأثير على روح المجتمع المعاصر، بعد أنْ رأى كل فرد وعظم من شأنه، بما يتوافق مع مكانته، وبعد أنْ رفع مفاهيم الجميع بشكل عام، بما يتوافق مع روح الأرض والقوى الأساسية للشعب، التي ينبغي للدولة أنْ تتحرك من خلالها؟ أم أنه كان مجرد صورة صادقة لمجتمعنا_ صورة كاملة ومفصلة، مرآة تعكس حياتنا كلها بوضوح؟ لم يكن شعرنا، لا هذا ولا ذاك. فقد كان غير معروف تقريباً لمجتمعنا وخفياً عنه. لأنْ المجتمع ترنى آنذاك تربية مختلفة – تحت تأثير المربين الفرنسيين والألمان والإنكليز، وتحت تأثير المنحدرين من جميع البلدان، ومن جميع الفئات الممكنة، على اختلاف صور تفكيرهم وأعرافهم وتوجهاتهم. مجتمعنا، – الذي لم يحدث لأيّ شعب من قبل مثل ما حدث له، – فقد نشأ على الجهل بأرضه في وسط أرضه. وحتى اللغة كانت منسية، ولهذا انقطعت الطرق والمسارات التي تحدد لشعرنا اتجاهه. فكان عليه إذا ما أراد أن يشق طريقه إلى المجتمع أنْ يسلك من خلال بعض الطرق الفرعية وغير القانونية: فقد اقتصر على القصائد الخفيفة المرحة التي تُلقى في الصالونات؛ وعلى نتاجات الشاعر الضعيفة وغير الناضجة في شبابه، التي تلبي بعض الأفكار الأجنبية الحرة التي جلبها المربون الأجانب إلى المجتمع. ومن خلال ذلك يعلم المجتمع بوجود شاعر بينه. باختصار، شعرنا لم يعلّم المجتمع ولم يعبر عنه. وكأنه أحس أنْ مصيره لم يكن من أجل المجتمع الحديث، فاندفع طوال الوقت فوق المجتمع؛ وإذا ما نزل إليه، فربما فقط من أجل أنْ يسوطه بسوط السخرية، لا أنْ يمنح حياته نموذجاً للأجيال القادمة. الأمر غريب: كنا، نحن، طوال الوقت موضوعاً لشعرنا، لكننا لم نجد أنفسنا فيه. فعندما يعرض علينا الشاعر أفضل جوانبنا، يبدو لنا الأمر مبالغاً فيه، ونكون على استعداد تقريباً لعدم تصديق ما يخبرنا به ديرجافين عنا. وعندما يكشف الكاتب عن جوانبنا الدونية، فإننا لا نصدق مرة أخرى، ويبدو لنا ذلك صورة كاريكاتورية. هناك، بالتأكيد، في الأمرين كليهما، إذا جاز التعبير، نوع من القوة المبالغ فيها، على الرغم من عدم وجود مبالغة في الواقع. إنْ سبب الأمر الأول يكمن في أنْ شعراءنا الوجدانيين، بسبب امتلاكهم القدرة على أنْ يروا في الحبة ثمرتها الرائعة المستقبلية التي لا تحس بها تقريباً العيون العادية، قد أظهروا كل خصائصنا بشكل واضح ونقي. وسبب الأمر الثاني يكمن في أنْ كتّابنا الساخرين رأوا بشكل أوضح كل الأشياء السيئة والحقيرة للإنسان الروسي الواقعي، لأنهم يحملون في أرواحهم المثل الأعلى للإنسان الروسي الأفضل، على الرغم من أنْ ذلك لا يزال غير واضح. فأعطتهم قوة السخط النبيلة القدرة على كشف الشيء نفسه بشكل أكثر وضوحاً مما يمكن لأي شخص عادي رؤيته. ولهذا السبب تطورت فينا في الآونة الأخيرة قابلية التهكّم أقوى من كل صفاتنا الأخرى. كل شيء في بلدنا يضحك على بعضه البعض، وهناك بالفعل داخل أرضنا شيء يضحك على كل شيء على الإطلاق، على

القديم والجديد، ولا يبجّل إلا الشيء الخالد والسرمدي فقط. لذلك، لم يعبر لنا شعرنا عن الإنسان الروسي تماماً في أي مكان، لا في العقل الأعلى الذي ينبغي أن يكون فيه، ولا في الواقع الذي هو عليه الآن. لقد كؤم فحسب ظلالاً لا حصر لها من صفاتنا المتنوعة؛ وجمع في خزانة واحدة فحسب جوانب منفصلة من طبيعتنا المتنوعة... أحسّ شعراؤنا أنّ الوقت لم ينضج بعد لرسم أنفسنا بالكامل والتباهي بها، وأننا ما زلنا بحاجة إلى أنْ ننتظم، لنصبح أنفسنا، ونصبح روسيين حقاً. لقد زُفّت طبيعتنا من مدة قصيرة واستعدت لتأخذ الشكل الذي ينبغي لها؛ ولم يكن لدينا الوقت حتى الآن لاستخلاص النتائج من العديد من العناصر والمبادئ المطبقة من كل مكان على أرضنا، ولا يزال في كل واحد منا تلاقٍ غبي لأجنبي مع أجنبي، وليس استخلاصاً منطقياً للنتيجة ذاتها التي من أجلها مهد الله السبيل لهذا التلاقي. وعندما أحسّ شعراؤنا بذلك، بدؤوا يهتمون فحسب بألّا يضيع أفضل ما في طبيعتنا في هذا الصراع. لقد أخذوا هذا الأفضل من أي مكان وجدوه فيه، وأسرعوا لإخراجه إلى النور، من دون أنْ يهتموا بمكان وكيفية وضعه. مثلما يحاول صاحب المنزل المسكين أنْ ينتشل من منزله الذي شبت فيه النيران أثمن ما فيه فقط، ولا يهتم بالباقي. لم يصدح شعرنا لزمنه المعاصر، بل لكي نتمكن من رؤية ما هو الأفضل فينا حقاً، من خاصتنا بالذات، ولا ننسى أن نضعه في بنيتنا عندما يحين أوان الخصب في نهاية المطاف، وعندما تصبح فكرة البنية الداخلية للإنسان على الصورة التي أمره الله أنْ يكون عليها في البدايات الأصلية على الأرض فكرةً عامة لنا في جميع أنحاء روسيا، ومندوبةً للجميع بالقدر نفسه. ستنكشف لنا كنوزنا الشخصية أكثر فأكثر عندما نشرع بقراءة نتاجات شعرائنا بتمعن وتروٍّ وانتباه أكثر. فعندما نتعرف عليها بشكل أكبر وأفضل، ستنكشف لنا جوانبها السامية الأخرى، والتي لم يلاحظها أحد تقريباً حتى الآن: وسنرى أنّ شعراءنا لم يكونوا فحسب أمناء على خزائننا، بل حتى بنائين إلى حدٍّ ما، أو لديهم فكرة بالفعل عن ذلك، أو ليست لديهم تلك الفكرة بل لأنهم يُظهرون بطبيعتهم الأسمى من طبيعتنا بعضاً من صفاتنا الشعبية، التي تطورت في نفوسهم بشكل أوضح ثم على وجه التحديد لكي تتألق أمامنا بكل جمالها. لم تكن رغبة ديرجافين هذه في رسم صورة الرجل الحازم الثابت في نوع من العظمة الإنجيلية العملاقة طموحاً عشوائياً: لقد سمع بدايتها من الناس البسطاء لدينا. لقد شاعت الملامح العريضة للإنسان الفخم ويمكن الإحساس بها في جميع الأراضي الروسية بقوة لدرجة أنه حتى الأجانب الذين نظروا إلى الداخل الروسي شعروا بالدهشة منه حتى قبل أن يتاح لهم الوقت لتعلم طباع وعادات الناس في بلادنا. حتى وقت قريب، لم يستطع أحدهم(126)، الذي نشر ملاحظاته لكي يُظهر روسيا لأوروبا من الجانب السيئ، أنْ يُخفي دهشته من رؤية ساكني الأكواخ البسطاء في قُرانا. وكيف وقف مندهشاً أمام شيوخنا الموقرين ذوي الشعر الأبيض الجالسين على عتبات

Telegram:@mbooks90

أكواخهم، الذين بدوا له آباء مهيبين من العصور التوراتية القديمة. لقد اعترف أكثر من مرة أنه لم يرَ في أي مكان في بلدان أوروبا الأخرى، التي زارها، صورة إنسان بهذه العظمة، القريبة من العظمة التوراتية الأبوية. وقد كرر هذه الفكرة عدة مرات على صفحات كتابه المليء بالكراهية لنا. إنّ سمة القابلية على الإحساس هذه، التي كُشِف عنها بهذه الدرجة العالية في بوشكين، هي سمتنا الوطنية. دعونا نتذكر فقط الأسماء وحدها التي يميز بها الناس هذه السمة في أنفسهم، على سبيل المثال: الاسم «أنن»، الذي يُسمى به الشخص الذي تتوهج فيه جميع الأوردة وتتكلم، والذي لن يقف مكتوف الأيدي من دون عمل للحظة؛ والاسم «نجاح» الذي يُسمى به الشخص الذي يفلح في كل شيء ويتفوق في كل مكان؛ ولدينا الكثير من الأسماء الأخرى التي تحدد الظلال والانحرافات المختلفة لهذه السمة. إنّ هذه السمة عظيمة: فالرجل الروسي، الذي رسمه ديرجافين، لن يخرج بشكل كامل وعنيف، إذا لم تكن لديه غريزة التجاوب بحيوية مع كل شيء في الطبيعة، مندهشاً في كل خطوة من جمال خلق الله. هذا العقل، الذي يعرف كيف يجد الوسط القانوني لكل شيء، والذي كُشِف عنه في كريلوف، **هو عقلنا الروسي حقاً. في كريلوف** فقط انعكست هذه اللباقة الأصيلة للعقل الروسي الذي، كونه قادراً على التعبير عن الجوهر الحقيقي لأي عمل، يعرف كيف يعبّر عنه بطريقة لا تسيء إلى أي شخص بالتعبير ولا تثير حتى الأشخاص الذين يختلفون معه ضده أو ضد أفكاره، – باختصار، تلك اللباقة الأصيلة التي فقدناها في خضم تعليمنا العلماني والتي بقيت محفوظة لدى الفلاحين لدينا حتى يومنا هذا. يعرف فلاحنا كيف يتحدث مع الذين هم أعلى منه، وحتى مع القيصر، بطلاقة، مثلما نتحدث مع أيّ واحد منا، ولن يُظهر الفحش بكلمة واحدة، بينما نحن في الغالب لا نعرف كيف نتحدث حتى مع شخص مساوٍ لنا بطريقة لا نسيء إليه فيها بأيّ عبارة. ولكن من جهة أخرى، تشكلت في بعضنا بالفعل لباقة العقل الروسي هذه المركّزة والأصيلة حقاً، – فهي تحظى باحترام الجميع لدينا؛ سيسمح له الجميع بقول ما لن يُسمح به لأي شخص آخر؛ لم يغضب أحد منه بعد. كان ثمة أعداء لدى كتّابنا جميعاً، حتى لدى ألطفهم وأجملهم روحاً (يجدر بنا أن نتذكر كرامزين وجوكوفسكي)؛ ولكن لم يكن لدى كريلوف ثمة عدوّ واحد. إنّ جرأة الشاب هذه والشجاعة في الاندفاع نحو قضية الخير، التي تحتدم بشدة في قصائد يازيكوف، هي جرأة شعبنا الروسي، تلك السمة المُدهِشة، الخاصة به وحده، التي تمنحنا فجأة الشباب لكل من الشيخ والشاب عندنا، بمجرد أن تسنح الفرصة للجميع للاندفاع إلى عمل مستحيل بالنسبة لأي شعب آخر، – والتي تندمج عندنا فجأة في كتلة غير متجانسة بأكملها متخاصمة مع بعضنا البعض، وفي شعور واحد إلى درجة تُنسى فيها الخلافات والمزايا الشخصية لكل فرد، وتكون روسيا كلها فيها شخصاً واحداً. هذه السمات كلها، التي اكتشفها شعراؤنا، هي سماتنا الشعبية، التي تطورت فيهم

فحسب بشكل أوضح: الشعراء لا يأتون من مكان ما من وراء البحار، بل يأتون من شعبهم. إنهم – النيران التي انطلقت من الشعب، وهم بشائر رسل قوته. وعلاوة على ذلك، فإن شعراءنا قاموا بعمل الخير من خلال نشر البهجة، وهو أمر غير مسبوق حتى الآن. وإني لا أعرف في أدب آخر أنّ الشعراء قد أظهروا مثل هذا التنوع اللامتناهي من ظلال الصوت، والتي، بالطبع، ساعدت عليها جزئياً لغتنا الشعرية نفسها. فلكل أدب شعره الخاص ورنين جرسه الخاص. إنّ شعر ديرجافين هذا المتماسك واللامع كالبرونز الذي ما زالت آذاننا إلى الآن لا تستطيع نسيانه؛ وشعر بوشكين هذا الكثيف مثل القطران أو مثل سيل تيار متدفق عمره مائة عام؛ وشعر يازيكوف الساطع والاحتفالي الذي يحلق مثل شعاع نحو الروح، المنسوج كله من النور؛ وشعر باتوشكوف هذا، الغارق في عبير الجنوب، والحلو مثل عسل مأخوذ من وادٍ ضيق؛ وشعر جوكوفسكي الخفيف الرشيق، الذي يرفرف مثل صوت مكتوم من قيثارة غوڤس(127)؛ وشعر فيازيمسكي الثقيل، كما لو كان يجر نفسه على الأرض، والمشبع أحياناً بالحزن الروسي المرير المتواصل، – هؤلاء الشعراء كلهم حملوا رخامة الصوت عبر الأراضي الروسية ونشروها مثل أجراس متعددة الرنين أو مثل مفاتيح أرغُن واحد رائع لا حصر لها. إنّ رخامة الصوت ليست فارغة كما يعتقد أولئك الذين ليسوا على دراية بالشعر. ففي ظل رخامة الصوت، كما تحت ظل تهويدة جميلة من أمّ، يُهدهَد الشعب كالطفل حتى قبل أن يتمكن من ولوج معنى كلمات أغنية التهويدة نفسها، وبغير إحساس من تلقاء نفسها تهدأ عواطفه الجامحة وتخمد. ويحدث أنّ تكون رخامة الصوت مندوبةً جداً، مثل دخان المبخرة في الكنيسة، الذي يضبط الروح بشكل غير مرئي لكي تسمع شيئاً مُفضَلاً حتى قبل أنْ يبدأ القداس نفسه. لقد جرّب شعرنا جميع الألحان، وتربى شعراؤنا على آداب جميع الأمم، واستمعوا إلى قيثارات إبداع جميع الشعراء، فاستخرجوا لغة عالمية من أجل إعداد الجميع لخدمة ذات أهمية كبرى... لا يجوز الآن الحديث عن تلك الأشياء التافهة التي لا يزال الجيل الحالي من الشعراء الشباب، غير المدركين لها، يواصل الثرثرة عنها بطيش؛ ولا ينبغي خدمة الفن لذاته، بغض النظر عن مدى روعة هذه الخدمة، من دون فهم الهدف الأسمى منه ومن دون أن نحدد بأنفسنا ما حاجتنا الفعلية إلى الفن؛ ولا يجوز تكرار بوشكين. كلا، لا ينبغي أن يكون بوشكين ولا أيّ شخص آخر بعد الآن نموذجاً لنا: لقد حان زمن آخر. الآن لم يعد بوسع المرء أن يأخذ أيّ شيء – لا من خلال خصوصية عقله، ولا من خلال طبيعة شخصيته الخلابة، ولا من خلال الفخر بحركاته، بل يجب أنْ يتربى الشاعر من خلال التنشئة المسيحية السامية. وثمة أشياء أخرى ستأتي من أجل الشعر. وكما فعل الشعر خلال مرحلة فتوة الشعوب، عندما استُعمِل لدعوة الشعوب إلى القتال، من خلال إثارة روح التمرد فيهم، فسيكون عليه الآن دعوة الإنسان إلى معركة أخرى أسمى – إلى معركة لم تعد من أجل حريتنا وحقوقنا وامتيازاتنا

المؤقتة، بل من أجل روحنا التي يعدها خالقنا السماوي لؤلؤة خلقه. يبقى الآن ثمة الكثير أمام الشعر: فعليه أن يعيد إلى المجتمع كل ما هو جميل حقاً وما أبعدته الحياة الحالية التي لا معنى لها. كلا، إنّ شعرنا الآن لا يشبه شعر أحد من شعرائنا السالفين. فخطابه نفسه سيكون مختلفاً؛ سيكون أقرب وأحبّ إلى روحنا الروسية. ستظهر فيه مبادئنا الشعبية بشكل محسوس أكثر. لم ينبض بعد بكل قوته النبع الأصلي لشعرنا، الذي كان يفور وينبض في حضن طبيعتنا في ذلك الوقت، تماماً مثلما لم تنبس كلمة الشعر على شفاه أحد. ولم يستنبط أحد حتى الآن أعماق المنابع الثلاثة المذكورة في بداية هذا المقال. ولا يزال حتى الآن لغزُ هذا الصخب الذي لا يمكن تفسيره والذي يُسمع في أغانينا، يندفعُ إلى مكان متجاوزاً الحياة ومتجاوزاً الأغنية نفسها، كما لو كان محترقاً بالرغبة في وطنٍ أفضل، الذي يتوق إليه الناس منذ يوم خلقهم... لم ينعكس هذا الامتلاء الشعري المتعدد الجوانب لذهننا في شيء كما انعكس في أمثالنا المتبضرة التي تمكنت من استخلاص استنتاجات عظيمة في وقت قصير وفي إطار حدود ضيقة جعلت الإنسان الروسي يخرج من بزكة موحلة وأتاحت الفرصة أمام الإنسان الروسي الحالي أنْ يستخلص استنتاجات هائلة من زمانه الحاضر الواسع، الذي استُجمعت فيه نتائج جميع القرون مثل سلع لم تنفذ فجُمعت في كومة واحدة غير منظمة. واللغز الآخر بالنسبة للكثيرين يتمثل في هذه الغنائية غير العادية (ولادة الرصانة العليا للعقل) التي تنبع من الأناشيد والتراتيل الكنسية، التي تسمو بروح الشاعر من دون وعي مثلما تنقّي أصوات غنائنا الأصلية قلبه بالغريزة. وأخيراً، لغتنا الاستثنائية نفسها لا تزال لغزاً. فهي تحتوي على جميع النغمات والظلال، وجميع انتقالات الأصوات من الأصعب إلى الأكثر حساسية ونعومة؛ إنها غير محدودة ويمكنها أنْ تثري نفسها بنفسها، كالحياة، باستمرار. فهي، من ناحية، تستمد الكلمات السامية من اللغة الإنجيلية الكنسية، ومن ناحية أخرى، تنتقي مسميات مناسبة من لهجاتها المتنوعة التي لا تُعد ولا تُحصى المنتشرة في جميع أنحاء مقاطعاتنا، ومن خلال هذا تتيح الإمكانية، في الخطاب الواحد نفسه لأن يصعد إلى ارتفاع لا يمكن له في أيّ لغة أخرى الوصول إليه، وأنْ يهبط إلى البساطة، بلمسة يحس بها أكثر الناس بلادة، – هذه اللغة التي هي شاعر في حدّ ذاتها والتي لم يكن مجتمعنا الفاضل أنْ يتناساها عبثاً لمدة من الوقت: كان ينبغي أنْ نلقي بالقمامة كل ما علق بلغتنا من اللغات الأجنبية التي دخلت إلى لغاتنا مع التعليم الأجنبي، وأن لا نسمح لتلك الأصوات غير الواضحة والأسماء الأشياء غير الدقيقة (بنات الأفكار غير المفهومة والمشوشة التي تشوّه الألسن) أنْ تشوه وضوح لغتنا الفتية وأنْ نعود إليها ونحن على استعداد للتفكير والعيش بعقلنا وليس بعقل أجنبي. وهذا كله ليس سوى أدوات ومواد وصخور وخامات معادن ثمينة يمكن أنْ نصوغ منها خطاباً آخر أقوى. وسوف يمرّ هذا الكلام عبر أرواحنا كلها ولن يسقط على أرض قاحلة. وسوف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتوهج شعرنا بحزن ملائكي، ويضرب على كل الأوتار الكامنة في الإنسان الروسي، وسوف يجلب إلى أقسى النفوس أشياء مقدسة مما لا يمكن لأي قوة أو أدوات أن تؤكده في الإنسان؛ وسيستدعي لنا بلادنا روسيا - خاصتنا الروسية: ليست تلك التي يستدعيها لنا بوقاحة بعض الوطنيين المختمرين، وليست تلك التي يستدعيها لنا من وراء البحار الروس الذين أصبحوا غرباء، بل تلك التي سينتزعها منا الشعر ويبديها لنا بطريقة يقول بها كل واحد من شعرائنا بصوت واحد، بغض النظر عن أفكارهم المختلفة وصور التنشئة والآراء: «هذه هي بلادنا روسيا؛ إننا نشعر بالراحة والدفء فيها، وها نحن الآن في منزلنا حقاً، تحت سقفنا وليس في أرض غريبة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الثاني والثلاثون

عيد الفصح (أحد القيامة)

لدى الإنسان الروسي ثمة عناية خاصة بالاحتفاء بعيد الفصح. ويشعر بهذا بحيوية أكثر إذا ما صادف أن يكون في أرض أجنبية. فعندما يرى كيف أنّ هذا اليوم في كل مكان في البلدان الأخرى لا يختلف تقريباً عن الأيام الأخرى (المشاغل المعتادة نفسها، والحياة اليومية نفسها، والتعبير اليومي المعتاد على وجوه الناس نفسه) يشعر بالحزن ويولّي وجهه بشكل لا إرادي صوب روسيا. ويبدو له أنّ في روسيا يُحتفلُ بهذا اليوم أفضل احتفالٍ، والإنسان نفسه يتهلل فيه فرحاً وسعادة أفضل وأكثر منه في الأيام الأخرى، والحياة نفسها مختلفة إلى حدٍّ ما، وليست كما هو حالها كل يوم. فيتصور فجأة – تلك الليلة المهيبة، ورنين الجرس ذاك الذي يملأ الأسماع في كل مكان فينسكب منه بهدير موحّد على الأرض كلها هذا النداء «قام المسيح!» – الذي يحل بدلاً عن جميع التحيات في هذا اليوم، وهذه القُبلة التي تصدح عندنا فقط. – فيكاد يتهيأ ليهتف: «في روسيا وحدها فقط يُحتفل بهذا اليوم بالطريقة التي ينبغي الاحتفال بها!» وبالطبع، ما هذا كله سوى حلم: سيتلاشى فجأة، بمجرد أن ينتقل فعلياً إلى روسيا، أو حتى بمجرد أنْ يتذكر أنّ هذا اليوم هو يوم جلبة وضجيج لأناس شبه نائمين، وزيارات فارغة، وعدم التقاء متعمّد، بدلاً من اللقاءات المبهجة، وإذا ما حدثت اللقاءات فستستند إلى أكثر الأغراض نفعية؛ وإنّ حبّ الرفعة يراودنا في هذا اليوم أكثر منه في الأيام الأخرى، ولا يتحدث الناس فيه عن قيامة المسيح، بل عمّن سيحصل على ربح أكثر وماذا سيكسب فلان من القضية الفلانية؛ وحتى أنّ أولئك الناس، الذين اشتهر عنهم أنهم يفرحون أكثر من غيرهم، يتسكعون سكارى في الشوارع بمجرد انتهاء القداس المهيب، وحتى قبل أنْ ينبلج الفجر ويصب نوره على الأرض. وسوف يتنفس الإنسان الروسي المسكين الصعداء، إذا ما تذكر فقط كل هذا ورأى أنّ هذا مجرد رسم كاريكاتوري واستهزاء بالعيد، ولا ثمة وجود فعلي للعيد. فلمجرد التظاهر الشكلي يُقبّل أحد المسؤولين الكبار خدّ شخص معاق رغبةً منه في أن يُبدي للموظفين التابعين لإدارته كيف ينبغي للمرء أنْ يحب أخيه، ثم ما أنْ ينزعج أحد الوطنيين المتخلفين من الشباب الذين يشتمون عاداتنا الروسية القديمة ويدّعون أنّ لا شيء لدينا، يصيح غاضباً: «لدينا كل شيء – لدينا الحياة الأسريّة وفضائل الأسرة، والعادات في بلادنا تُحترم بكل قدسية؛ ونؤدي واجباتنا أداءً ليس له مثيل في أيّ مكان آخر في أوروبا؛ وإننا شعب يثير دهشة الجميع».

كلا، القضية لا تكمن في العلامات المرئية، ولا في الهتافات الوطنية ولا في القُبلة التي تُمنح لشخص معاق، بل تكمن، في حقيقة الأمر، في أنْ ننظر في هذا اليوم إلى الإنسان بغدّه أفضل

جوهرة عندنا، – وأنْ نعانقه ونحتضنه كما نعتنق ونحتضن أحبّ إخوتنا إلينا، وأنْ نسعد به كما نسعد بأفضل الأصدقاء لدينا، الذي لم نره منذ عدة سنوات والذي جاء إلينا فجأة بشكل غير متوقع. بل أكثر من ذلك! وأكثر بكثير! لأن الرابطة التي تربطنا به أقوى من قرابة الدم الدنيوية، وارتبطنا به من خلال أبينا السماوي الجميل الذي هو أقرب إلينا بعدة مرات من أبينا الأرضي، ونحن اليوم في عائلتنا الحقيقية معه، في منزله. هذا اليوم هو ذلك اليوم المقدس الذي تحتفل فيه البشرية جمعاء بأخوّتها المقدسة السماوية من دون استثناء إنسان واحد.

كيف يمكننا أنْ نقول إنّ هذا اليوم مفيد للناس في القرن التاسع عشر، الذي أصبحت فيه أفكار سعادة البشرية تقريباً هي الأفكار المفضلة لدى الجميع؛ والذي أصبح فيه الحلم المفضل لدى الشباب أن يحتضنوا البشرية جمعاء كإخوة؛ والذي ينحصر فيه حلم الكثيرين على كيفية تغيير البشرية جمعاء، وكيفية رفع القيمة الداخلية للإنسان؛ والذي يكاد نصف البشرية فيه يَقِرّ على نحوٍ مَهيب بأن المسيحية وحدها قادرة على تحقيق ذلك؛ هذا القرن الذي بدأ الناس فيه يؤكّدون على ضرورة إدخال شريعة المسيح عن كتب إلى حياة الأسرة وحياة الدولة على حدٍّ سواء؛ والذي بدؤوا فيه يتحدثون حتى عن ضرورة أنْ يكون كل شيء مشتركاً، بما في ذلك المنازل والأراضي؛ والذي أصبحت فيه مآثر التعاطف مع البائسين ومساعدتهم الحديث المفضل حتى في صالات استقبال الضيوف العصرية؛ والذي اكتظت فيه البلاد، أخيراً، بجميع أنواع المؤسسات الخيرية ودور الضيافة وملاجئ المشردين. حتى بدا القرن التاسع عشر كأنما يحتفل، حسب ما ينبغي، بفرح بهذا اليوم، الذي يشد إليه الجميع من خلال ما فيه من التحركات السمحة والخيرية! لكن في هذا اليوم بالذات، كما هو الحال على المحك، ترى مدى شحوب كل تطلعات إنسان القرن التاسع عشر المسيحية وكيف أنها كلها في الأحلام والأفكار فقط، وليس في الأفعال. وإذا ما أراد في الحقيقة أن يعانق أخاه في ذلك اليوم، معانقة الأخ للأخ، فلن يعانقه. إنه مستعد لاحتضان البشرية جمعاء، مثلما يعانق الأخ أخاه، لكنه لن يعانق أخاه الحقيقي... اعزل عن هذه البشرية (التي هو على استعداد لأنْ يعانقها مثل هذا العناق السماوي) الشخص الذي أساء إليه، والذي يأمره المسيح بمسامحته في تلك اللحظة بالذات، وسترى أنه لن يحتضنه على الإطلاق. اعزل عن هذه البشرية فرداً يختلف معه في بعض الآراء الدنيوية التافهة، وسترى أنه لن يحتضنه أبداً. اعزل عن هذه البشرية فرداً يعاني من تقرحات شديدة من عيوبه الروحية بشكل أكثر وضوحاً مما لدى غيره ممن يعانون منها، والذي يحتاج أكثر من أي شخص آخر إلى التعاطف معه – فسوف يدفعه بعيداً عنه ولن يحتضنه. إنه لا يعانق إلا أولئك الذين لم يسيئوا إليه بعد بأي شكلٍ من الأشكال، والذين لم تتح له الفرصة لأن يصطدم بهم، والذين لم يعرفهم ولم يزعم بعينيه. هذا هو نوع العناق الذي يعانق به الإنسان الحالي البشرية جمعاء، وغالباً ما

يظن نفسه عاشقاً حقيقياً للبشرية ومسيحياً بمعنى الكلمة! أجل، مسيحي! ولكن أولئك الناس، في حقيقة الأمر، طردوا المسيح إلى الشوارع، إلى المستوصفات والمستشفيات، بدلاً من أن يدعوه إلى زيارتهم في منازلهم، تحت سقوفهم، ومع هذا يظنون أنهم مسيحيون!

كلا، لا يحتفل في القرن الحالي بعيد القيامة كما ينبغي أن يحتفل به. هناك عقبة رهيبة، هناك عقبة لا يمكن التغلب عليها، اسمها – الفخر. كانت معروفة حتى في الأزمنة السابقة، لكن ذلك كان فخراً تطغى عليه الصبغة الطفولية أكثر، فخراً بالقوة الجسدية الشخصية، فخراً بالثروات الشخصية، وفخراً بالعشيرة وبالرتبة، لكنه لم يصل إلى التطور الروحي الرهيب الذي ظهر فيه الآن. لقد تجلى الفخر الآن في شكلين. الشكل الأول له – فخر الإنسان بنظافته.

فبعد أن غمرتنا الفرحة بحقيقة أننا أصبحنا أفضل من أسلافنا من نواحٍ كثيرة، وقعت البشرية في هذا القرن في حب نظافتها وجمالها. ولم يعد أحد يخجل من التباهي علناً بجماله الروحي ومن غدّ نفسه أفضل من الآخرين. فبمجرد أن يلقي المرء نظرة فاحصة فحسب، سيرى كيف يبدي كل واحد منا نفسه فارس نُبلٍ وشهامة، وكيف يحكم بقسوة وبلا هوادة على غيره. وبمجرد أن يستمع إلى تلك الأعذار التي يبرّر كل واحد منا بها لنفسه عدم احتضان أخيه حتى في عيد الفصح، سيقول من دون خجل وحتى من دون أن تختلج روحه: «لا أستطيع أن أعانق هذا الرجل: إنه مقرف، إنه حقير النفس، لقد لطّخ نفسه بأكثر الأفعال شناعة؛ لن أدع هذا الرجل يدخل حتى إلى دهليز الانتظار في منزلي؛ وحتى لا أريد أن أتنفس الهواء نفسه معه؛ سأسير بطريق منعطِف من أجل الالتفاف حوله وعدم مقابلته. لا يمكنني العيش مع أناس حقراء وأنذال – هل ينبغي عليّ حقاً أن أعانق مثل هذا الشخص كأخ؟» يا للحسرة! لقد نسي إنسان القرن التاسع عشر المسكين أن في هذا اليوم لا يوجد أناس حقراء وأنذال، بل كل الناس إخوة من عائلة واحدة، وكل فرد يُدعى باسم «أخ» وليس بأيّ اسم آخر. لقد نسي كل شيء دفعة واحدة وفجأة: لقد نسي أنه، ربما، أحاط به الناس الحقراء والأنذال بالذات لكي يستطيع أن يتوجه إلى نفسه، عندما ينظر إليهم، ويرى في ذاته ذلك الشيء نفسه الذي كان يفزع منه لدى الآخرين. لقد نسي أنه هو نفسه ربما، في كل خطوة حتى من دون أن يلاحظ ذلك بنفسه، يرتكب الفعل الدنيء نفسه، وإن كان بشكل مختلف، بشكل لا يجلب له العار علناً، غير أنه مع ذلك، كما يُقال في الأمثال، هو من العجينة نفسها لكن في طبق مختلف. لقد نسوا، ربما، أن سبب الزيادة في عدد الناس الحقراء والأنذال حدث من جزاء أن أفضل الناس وأجملهم أبعدوهم بقساوة وبلا إنسانية، وبالتالي جعلوا قلوبهم تقسو أكثر وأشد. إذ ليس من السهل على المرء أن يجلب الاحتقار لنفسه! الله أعلم، لربما، أن الآخر لم يولَد على الإطلاق شخصاً ذميماً؛ وربما أن روحه المسكينة العاجزة عن مجابهة الإغراءات طلبت المساعدة وتوسلت وكانت مستعدة لتقبيل يدَي

وقدمي من يسندها على حافة الهاوية ويمنعها من السقوط مدفوعاً بالشفقة الروحية. ولربما كانت حبة خردل من الحب كافية له حتى تعيده إلى طريق الحق. كما لو كان يصعب عليه أن يصل إلى قلبه عن طريق الحب! كما لو أنّ الطبيعة أصابته بالذهول لدرجة أنه لا يمكن معها لأي شعور أن يتحرك فيه، في الوقت الذي يكون فيه حتى السارق ممتناً للحب، وفي الوقت الذي يتذكر فيه حتى الوحش اليد التي كانت تداعبه! لكن إنسان القرن التاسع عشر نسي كل شيء، ودفع أخاه بعيداً عنه، مثلما يدفع رجلٌ ثريٌ متسولاً مجذوماً من شرفة داره الرائعة. إنه لا يهتم بمعاناته؛ المهم بالنسبة له ألّا يرى صديد جروحه. إنه لا يريد حتى سماع اعترافاته، خوفاً من أن تتأذى حاسة الشم لديه من رائحة فم الرجل البائس النتنة، بسبب الفخر برائحة نظافته. إذاً، هل يمكن لمثل هذا الشخص أنْ يحتفي بعيد الحب السماوي؟

هناك نوع آخر من الفخر، أقوى من النوع الأول – إنه الفخر بالعقل. لم يصل أبداً هذا الفخر إلى مثل هذه القوة التي وصل إليها في القرن التاسع عشر. يمكن الإحساس به في خوف كل فرد أنْ يوصف بأنه أحمق. إنّ إنسان القرن التاسع عشر يتحمّل كل شيء: يتحمّل أنْ يُدعى محتالاً، خسيساً؛ سفّه ما شئت، سيستحمل ذلك الاسم – ولكنه لن يستحمل اسم «أحمق» فقط. سيسمح لك بالضحك من كل شيء – ولكنه لن يسمح لك أنْ تضحك من عقله فقط. عقله بالنسبة إليه – مقدّس. إنه مستعد، بسبب أدنى استهزاء من عقله، أنْ يوقف أخاه في اللحظة نفسها على مسافة مناسبة ويطلق رصاصة في جبهته من دون أن يرف له جفن. إنه لا يؤمن بشيء ولا يثق بشيء؛ إنه يؤمن بعقله فقط. وإنّ ما لا يراه عقله ليس موجوداً بالنسبة له. وحتى أنه نسي أنّ العقل يتقدم عندما تتقدم جميع القوى الأخلاقية في الإنسان، ويقف بلا حراك بل ويعود إلى الوراء عندما لا ترتقي القوى الأخلاقية. وكذلك نسي أنه لا يوجد عقل مكتمل من جميع الجوانب في أيّ إنسان؛ وإنّ الإنسان الآخر يمكن أن يرى بالذات ذلك الجانب من الشيء الذي لا يمكنه (هو) أن يراه، وبالتالي يعرف ما لا يمكنه معرفته. إنه لا يؤمن بهذا، وكل ما لا يراه بنفسه – ليس سوى كذبة بالنسبة له. ولهذا لا يمكن أن يمسه ظل التواضع المسيحي بسبب كبرياء عقله. إنه يشك في كل شيء: يشك في قلب الإنسان الذي عرفه منذ عدة سنوات وفي الحقيقة وفي الله، لكنه لا يشك في عقله. لقد بدأت المشاجرات والخلافات ليس بسبب أيّ حقوق جوهرية، وليس بسبب الكراهية الشخصية – كلا، لم ينشب بين الناس جماح حواس، بل جماح عقل: لقد بدأ الناس يكرهون بعضهم البعض بسبب اختلاف الآراء، بسبب التناقضات في العالم العقلي. لقد شكّلت جماعات كاملة، لم تر بعضها البعض، ولم يكن لديها حتى الآن أي علاقات شخصية – ومع هذا تكره بعضها البعض. إنه لأمر مدهش: في الوقت الذي بدأ فيه الناس يعتقدون أنهم من خلال التعليم طردوا الغضب من العالم، يدخل الغضب إلى العالم بطريقة أخرى، من الطرف الآخر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– عن طريق العقل، وعلى أجنحة صفحات المجلات، مثل الجراد المدمّر تهاجم قلوب الناس في كل مكان. وصار حتى العقل نفسه يكاد لا يسمع. وحتى الناس الأذكياء بدؤوا يحكون الأكاذيب ضد قناعاتهم، لمجرد الرغبة بعدم التنازل للجماعة الخصم، ولمجزد أنّ كبرياءهم لا يسمح لهم بالاعتراف أمام الجميع بالخطأ – لقد ساد الحقد الخالص محلّ العقل.

وهل يمكن لإنسان هذا القرن أن يحب ويشعر بالحب المسيحي للإنسان؟ هل يمكن أنْ تتحقق له تلك البراءة المشرقة الطفولية والملائكية التي تجمع كل الناس في عائلة واحدة؟ هل بمقدوره أنْ يشمّ عبق رائحة أخوّتنا السماوية؟ هل بإمكانه الاحتفاء بهذا اليوم؟ لقد ولّى حتى ذلك التعبير الودود ظاهرياً السائد في القرون البسيطة السالفة، الذي يوحي للراني وكأنّ الإنسان أقرب إلى الإنسان. لقد قضى عليه عقل القرن التاسع عشر الفخور. فخرج الشيطان إلى العالم بلا قناع. وتوقفت روح الكبرياء عن الظهور في صور مختلفة لتخيف الناس الذين يؤمنون بالخرافات، وصارت تظهر في شكلها الشخصي الحقيقي. وبعد أن استشعرت روح الكبرياء أنّ الناس يقرون بهيمنتها، توقفت عن التكلف معهم. وصارت تضحك بوقاحة جريئة في عيون مَن يتعرف عليها؛ فجعلت تطرح للعالم أغبى القوانين، التي لم تُطرَح مثلها مِن قَبل – والعالم يرى ذلك ولا يجرؤ على عصيانه. ماذا تعني هذه الموضة، التافهة، المنحطّة، التي سمح بها الإنسان في البداية كشيء ضئيل، وكعمل بريء، والتي أصبحت الآن تتحكم في منازلنا، كصاحبة المنزل تماماً، بعد أنْ طردت أهم الأشياء وأفضلها في الإنسان؟ لا أحد يخاف من أنْ ينتهك عدة مرات في اليوم قوانين المسيح الأولى الأكثر قداسة، ومع ذلك يخشى الإنسان ألا يطيع أدنى أوامر تلك الروح، ويرتجف أمامها مثل صبي خجول. ماذا يعني أنْ يهبّ، حتى أولئك الذين يضحكون منها، ويبدؤون يرقصون مثل السفهاء الطائشين على لحنها؟ ما معنى ما يسمى بآداب السلوك التي لا تُعدّ ولا تُحصى، والتي أصبحت أقوى من أي مراسم أساسية؟ ما الذي تعنيه هذه السلطات الغريبة التي تشكلت إلى جانب السلطات الشرعية، وهذه التأثيرات الجانبية الدخيلة؟ ماذا يعني أنّ الخياطات والخياطين والحرفيين من جميع الأصناف يسيطرون الآن على العالم، ويبقى الذين اختارهم الله على الهامش؟ إنّ الأشخاص المشبوهين وغير المعروفين لأي أحد الذين ليس لديهم أفكار وقناعات صادقة صاروا يتحكمون بآراء وأفكار الناس الأذكياء، وصار المنشور الصحفي، الذي يعرف الجميع أنه مكذوب، مشرّعاً غير محسوس به للإنسان الذي لا يصدّق به. ماذا تعني كل هذه القوانين غير الشرعية، والتي يبدو، في ذهن الجميع، أنّ قوة نجسة تنبع من الأسفل قد صفّمتها، وأنّ العالم يرى هذا كله ولا يجرؤ على التحرك حياله، كأنه مسحور؟ يا له من استهزاء رهيب بالإنسانية! ولماذا، مع مثل هذا المسار للأشياء، لا يزال الناس يحافظون ظاهرياً على عادات الكنيسة المقدسة التي ليس لسيدها السماوي سلطان عليها؟ أم أنّ هذا استهزاء

جديد آخر نابع من روح الظلام؟ من أجل ماذا هذا العيد الذي فقد معناه؟ لماذا يأتي مرة أخرى وينادي جميع الناس الفشلتين بصوت أكثر همساً ليجمعهم معاً في عائلة واحدة، ويغادر بعد أنْ يلقي على الجميع نظرة حزينة، مثل شخص غريب وغير مألوف للجميع؟ هل أنه فعلاً غريب وغير مألوف للجميع؟ ولكن، يا ترى، لماذا ينجو هنا وهناك الناس الذين يُخيَّل إليهم أنهم يتألقون في هذا اليوم ويحتفلون بطفولتهم – تلك الطفولة، التي تنساب منها القُبلة السماوية، مثل قُبلة الربيع الأبدي، إلى الروح، تلك الطفولة الجميلة التي فقدها الإنسان الحالي المتكبر؟ وعلامَ لم ينسَ الإنسان بَعد هذه الطفولة إلى الأبد، كما لو أنه شاهدها في حلم بعيد، وعلامَ ما زالت تحرك أرواحنا؟ لماذا كل هذا، ومن أجل أيّ شيء؟ ألا نعرف لماذا؟ ألا نستطيع أن نرى لماذا؟ ربما، كي يستطيع البعض على الأقل، الذين ما زالوا يشقون عبق أنفاس هذا العيد الربيعية، أنْ يستشعروا فجأة الحزن الشديد، الشبيه بحزن ملاك في السماء. وبعد أنْ يصرخوا صرخة تفطر نياط القلب، يجثون عند أقدام إخوانهم، متوسلين لكي يُعزِّل هذا اليوم وحده على الأقل من بين الأيام الأخرى، لكي يَنتَشِل يوم واحد فقط ويَقضي خارج نطاق عادات القرن التاسع عشر، بل في وفق عادات القرن الأبدي، وأنْ نحتضن في هذا اليوم فقط ونضم إليه إنساناً آخر مثل صديق مذنب يحتضن صديقاً رحيماً قد غفر له كل شيء، حتى لو ندفعه بعيداً عنا يوم غد ونقول له إنه غريب وغير مألوف لنا. ليتْ كل واحد منا يرغب في ذلك، وليته يجبر نفسه على فعله، وأنْ يتشبّث بهذا اليوم، كما يتشبث رجل يغرق بلوح! الله أعلم، ربما من أجل هذه الرغبة وحدها، يكون الشلّم جاهزاً ليُقذَف لنا من السماء وتُمَدّ يدٌ لتساعدنا على أنْ نُحلِّق به.

بيد أنّ إنسان القرن التاسع عشر لا يريد أن يقضي حتى يوماً واحداً على هذا النحو! وقد اضطرمت الأرض بضجر غير مفهوم؛ وصارت الحياة أقسى فأقسى؛ وبدأ كل شيء يتضاءل ويصغر، إلا شيئاً واحداً يكبر على مرأى من الجميع – إنها صورة الملل العملاقة وحدها، التي تزداد مع كل يوم حتى وصلت طولاً لا يقاس. وخَفَتْ كل شيء في كل مكان وصمَتْ صمت القبور. يا إلهي! أصبح كل شيء في عالمك فارغاً ومخيفاً!.

لماذا لا يزال الإنسان الروسي وحده يعتقد أنّ هذا العيد يُحتفل به كما ينبغي، ويُحتفل به بهذا الشكل في بلاده وحدها؟ هل هذا، حلم؟ لكن لماذا لا يأتي هذا الحلم لغير الروس؟ ماذا يعني حقاً، أنّ العيد نفسه قد اختفى، مع أنّ علاماته المرئية تكتسح وجه الأرض بشكل واضح: إذ تُسمع كلمات: «المسيحُ قام!» – ويُقبّل الناس بعضهم البعض، وفي كل مرة تحلّ بالمهابة نفسها الليلة المقدسة، ورنات الأجراس التي تدق في جميع أصقاع الأرض، كما لو كانت توقِظنا؟ وحيثما تكون الأطياف بهذا الوضوح، فهي لا تنتشر عبثاً؛ وحيثما تُنبِّه، فهي توقِظ. لن تموت تلك العادات المصممة على أن تكون أبدية. قد تموت شكلياً، لكنها تحيا في الروح. قد تخمد مؤقتاً،

وتموت في الحشود الفارغة والمتقلبة، لكنها تنهض مرة أخرى بقوة متجددة في المضطهدين، ثم في أقوى ضوء منبعث منهم تنتشر في جميع أنحاء العالم. لن تموت من عاداتنا القديمة ذرة مما هو روسي حقاً فيها، ومما يقدسه المسيح نفسه. ستنتشر بأوتار الشعراء الرنانة، وسيعلن عنها من خلال شفاه القديسين العطرة، وسيشتعل ما خفد - وسوف يحتفل بعيد الفصح المجيد، كما ينبغي، ويكون الاحتفال به في بلادنا قبل أنْ تحتفي به الشعوب الأخرى! فعلى أي شيء نستند، وعلى أي معطيات موجودة في قلوبنا نعتمد، حتى يمكننا أن نقول هذا؟ هل نحن أفضل من الشعوب الأخرى؟ هل نحن أقرب بحياتنا إلى المسيح منهم؟ لسنا أفضل من أيّ شعب آخر، وحياتنا أكثر تخبطاً واضطراباً من الجميع. «نحن أسوأ من الآخرين كلهم» - هذا ما يجب أن نقوله دائماً عن أنفسنا. ولكن ثمة شيئاً في طبيعتنا ينبئنا بهذا. إنْ اضطرابنا ذاته ينبئنا بهذا. نحن ما زلنا معدناً منصهراً، لم يُصبّ ويتخذ شكله الوطني؛ وإنْ أمامنا الفرصة سانحةً أيضاً حتى نتخلص من الأشياء غير اللائقة ونبعدها عن أنفسنا ونجلب إلى أنفسنا كل ما يتعذر على الشعوب الأخرى التي اكتسبت شكلها وتصلّبت فيه. إنْ وجود الكثير مما يقرب من شريعة المسيح في طبيعتنا الأصلية، والذي نسيناه، - هو دليل على أنْ المسيح أتى إلينا بدون السيف، وأنْ أرضَ قلوبنا المستعدة له دعت بذاتها كلمته، التي صارت بداية للأخوّة في المسيح في طبيعتنا السلافية، وأنْ تآخي الناس كان في بلادنا حتى أقرب من أخوّة الدم، وأننا ما زلنا لا نمتلك الكراهية الشديد لطبقة ضد طبقة وليس لدينا تلك الجماعات الحاقدة الموجودة في أوروبا والتي تشكل عقبة كأداء أمام توحيد الناس وأمام المحبة الأخوية بينهم. وأخيراً لدينا شجاعة لا شبيه لها، إذا ما واجهنا جميعاً بعض القضايا التي لا يمكن لأيّ شعب آخر أنْ يتغلب عليها تماماً، حتى لو، على سبيل المثال، أنْ نلقي عن عاتقنا كل أوجه القصور لدينا فجأة وفي الحال، وكل ما يعيق الطبيعة السامية للإنسان، ثم من خلال ألم أجسادنا، من دون أنْ نأسى على أنفسنا، كما حدث في العام الثاني عشر(128)، من دون أن نبخل بالممتلكات، أحرقنا منازلنا وثروات أراضينا، هكذا سيندفع الجميع لدينا للتخلص من كل شيء فيه عار علينا وشين لنا، ولن تتخلف نفس واحدة عن غيرها، ففي مثل هذه اللحظات تُنسى جميع المشاجرات والكراهية والعداوات، وسيتعلق الأخ بصدر أخيه، وتكون روسيا كلها كرجل واحد. وبناءً على ذلك يمكننا القول إنْ عيد قيامة المسيح سيحتفل به عندنا قبل أن يُحتفل به لدى البلدان الأخرى. وهذا ما تقوله لي روحي بحزم؛ وإنْ هذه ليست مجرد فكرة خطرت لي في رأسي. هذا النوع من الأفكار لا يُختلَق. إنه يتولد بوحي من الله في وقت واحد في قلوب كثير من الناس الذين لم يروا بعضهم البعض والذين يعيشون في أصقاع مختلفة من الأرض، وينطق به الجميع في وقت واحد، كما لو كانوا يتكلمون من فم واحد. أعلمُ على وجه اليقين أنْ الكثير من الناس في روسيا،

على الرغم من أنني لا أعرفهم، يؤمنون بهذا بقوة ويقولون: «يحتفل في بلادنا بعيد قيامة المسيح المجيد قبل أنْ يحتفى به في أي بلد أخراء.

نُشرت هذه المقالة في طبعة مستقلة من سان بطرسبورغ، عام 1847.

---

(1)- الحقيقة أن هذا التاج لم يصل إلينا ولم يُعرف مصيره. (الملاحظة من ناشر النص الأصلي).

(2)- تتضمن الفقرة وصايا تخص شؤون العائلة لهذا لم ينشرها أصدقاؤه ضمن الوصية. (الناشر).

(3)- يقصد ملحمة «النفوس الميتة». (الملاحظة من ناشر النص الأصلي).

(4)- غافريل رومانوفيتش ديرجافين (1743-1816): واحد من أعظم الشعراء الروس قبل ألكسندر بوشكين، وكان رجل دولة أيضاً. وعلى الرغم من عدّ أعماله تقليدية كلاسيكية أدبية، فإن أفضل أشعاره غنيةٌ بالنقائض والأصوات المتضاربة وتشبه أعمال الشعراء الميتافيزيقيين. (المترجم).

(5)- قاسيلي جوكوفسكي (1783-1852) شاعر ومترجم روسي شهير، يُعدّ أحد مؤسسي مذهب الرومانسية في الأدب الروسي. (المترجم).

(6)- الأوديسة: واحدة من ضمن ملحمتين إغريقيتين كبريين منسوبتين إلى هوميروس. وهي جزئياً تتمة لملحمة الإلياذة المنسوبة هي الأخرى إلى هوميروس. وتعد ركناً رئيساً للأدب الغربي الحديث. فهي ثاني أقدم عمل أدبي أنتجته الحضارة الغربية، بينما الإلياذة هي الأقدم. يعتقد العلماء أن الأوديسة أُلفت بنهاية القرن الثامن قبل الميلاد، في منطقة إيونيا اليونانية الساحلية في الأناضول. (المترجم من ويكيبيديا).

(7)- الروكوكو: أسلوب في الفن المعماري والزخرفة في نهاية القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر. (المترجم).

(8)- سوفريمينيك (المعاصر): مجلة أدبية واجتماعية وسياسية روسية أسسها ألكسندر بوشكين، صدرت في الأعوام 1836-1866. (المترجم).

(9)- ميخائيل لومونوسوف (1711-1765): عالم وشاعر روسي مشهور، مؤسس جامعة موسكو الحكومية. عاش في القرن الثامن عشر. له مساهمات مهمة في مجالات أدبية وعلمية عديدة مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والاقتصاد والتاريخ والنحو واللغة والشعر وغيرها. (المترجم).

(10)- غافريل رومانوفيتش ديرجافين (1743-1816): واحد من أعظم الشعراء الروس قبل ألكسندر بوشكين، وكان رجل دولة أيضاً. وعلى الرغم من عدّ أعماله تقليدية كلاسيكية أدبية، فإن أفضل أشعاره غنيةٌ بالنقائض والأصوات المتضاربة وتشبه أعمال الشعراء الميتافيزيقيين. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(11)- ألكسندر سيرغييفتش بوشكين (1799-1837): شاعر روسي، وكاتب مسرحي، وروائي في الحقبة الرومانسية، يعتبره الكثيرون الشاعر الروسي الأعظم ومؤسس الأدب الروسي الحديث واللغة الروسية الأدبية المعاصرة. (المترجم).

(12)- نيكولاي ميخائيلوفيتش بازيكوف (1803-1847) - شاعر روسي من عصر الرومانسية وأحد ألمع ممثلي العصر الذهبي للشعر الروسي، أطلق على نفسه لقب «شاعر الفرح والمرح». وكذلك «شاعر العربدة والحرية». في نهاية حياته كان قريباً من ذوي النزعة السلافية.

(13)- إليسع (إليشع): نبي من أنبياء الله الذين لم تذكر الكتب العدة التي عاشها. لكنه كان في منطقة بانياس في سورية. (المترجم).

(14)- ستيفان باتوري (1533-1586) ابن إشتيفان باتوري الثامن، سليل عائلة سوملیو في عائلة باتوري المجرية النبيلة، كان أمير ترانسيلفانيا (1571-1586) وملك بولندا (1576-1586). يعد ستيفان باتوري من أشهر ملوك بولندا الذين انتخبوا. في عام 1581 تسلل جيش ستيفان إلى روسيا، وفرض حصاراً على مدينة بسكوف. (المترجم).

(15)- الإمبراطورة يكاتيرينا الثانية: إحدى أبرز وأهم وأكبر حكام روسيا عبر التاريخ، وأعظم شخصية حكمت البلاد الروسية في التاريخ الحديث، ومن أطول النساء الحاكمات عهداً، إذ امتدّ عصرها من سنة 1762 حتى وفاتها سنة 1796 عن عمر يناهز 67 سنة، كما أنها من بين أشهر النساء الحاكمات عبر التاريخ ومن أعظمهنّ شأناً وتأثيراً.(المترجم).

(16)- قصر أنيتشكوف: أحد القصور الإمبراطورية في سانت بطرسبورغ، عند جسر أنيتشكوف على كورنيش نهر فونتانكا (شارع نيفسكي بروسبكت، 39). اكتسب القصر اسمه من الجسر الذي يحمل الاسم أنيتشكوف نفسه. (المترجم).

(17)- وردت عبارة «مسلة ألكسندر» في نص بوشكين لكن لسبب ما شوهها جوكوفسكي ووضع بدلاً عنها «مسلة نابليون». (المترجم).

(18)- أسرة رومانوف: الأسرة الحاكمة الثانية بعد أسرة روريك والأخيرة في حكم روسيا، فقد تأسست عام 1613 واستمرت حتى تنازل القيصر نيقولا الثاني في 15 مارس،1917. (المترجم).

(19)- ديمتري ميخائيلوفيتش بوجارسكي (1578-1642) - أمير (كنياز)، وبطل قومي روسي، زعيم عسكري وسياسي، زعيم القوات الشعبية التي حررت موسكو من المحتلين البولنديين واللتوانيين. (المترجم).

(20)- الأمير دميتري تيموفيفيتش تروبيتسكوي (توفي 1625) - قائد عسكري وسياسي روسي في زمن الاضطرابات، أحد قادة القوات الشعبية الأولى. قاد جنباً إلى جنب مع ديمتري بوجارسكي وكوزما مينين حرب تحرير العاصمة من البولنديين، ولمدة بعد طرد البولنديين وقبل انتخاب ميخائيل فيدوروفيتش، انتخب حاكماً للدولة. بسبب أنشطته، حصل على لقب «منقذ الوطن» وكان أحد المتنافسين على العرش القيصري في عام 1613. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(21)- روريك: مؤسس الإمارة الروسية التي ظلت أسرته تحكمها لمدة ثمانية قرون. استناداً إلى السجلات التاريخية، فإنه في عام 862، توجهت القبائل السلافية في الشمال التي أنهكتها الصراعات والخلافات المستمرة بطلب إلى أمراء إسكندينافيا ليقوموا بإرساء النظام فأتى روريك مع أخويه سينيوس وتروفور فأصبحا حكام البلاد. أوقف روريك وفريقه الفتنة المندلعة بين القبائل السلافية وصار يحكم في نوفغورود. توفي روريك عام 879. (المترجم).

(22)- في عام 1614 انتخب مجمع «زيمسكي» أو بالأحرى مؤتمر ممثلي فئات الشعب في عموم روسيا ميخائيل فيودوروفيتش ابن فيودور نيكيتيش وحفيد أناستاسيا قيصراً لعموم روسيا. وحكمت ذريته التي تدعى تقليدياً بيت أسرة رومانوف روسيا حتى عام 1917. (المترجم).

(23)- البويار: هم أعلى الأفراد رتبة في الأرستقراطيات الإقطاعية في روسيا القديمة وبين الشعوب السلافية. وقد حافظ البويار في روسيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على نفوذهم. ومع ذلك، مع توحيد الأمراء المسكوفيين لقواتهم، قل نفوذ البويار بشكل تدريجي، خصوصاً إبان فترة حكم إيفان الثالث وإيفان الرابع. وقد قيد القيصر إيفان الرابع «إيفان الرهيب» من نفوذ البويار بشكل كبير أثناء القرن السادس عشر. (المترجم).

(24)- آدم بيرنارد ميتسكيفيتش (1798-1855): شاعر وطني بولندي، وكاتب مقالات ومترجم وناشر وكاتب سياسي. كان ممثلاً رئيساً للحقبة الرومانسية البولندية، وواحداً من الشعراء الوطنيين الثلاثة ببولندا وأعظم شاعر في تاريخ الأدب البولندي. ويعد واحداً من أعظم الشعراء السلافيين والأوروبيين. وقد وصفه الناس ولقبوه «بالشاعر الوطني السلافي». وقد كان كاتباً مسرحياً رومانسياً رائداً وكان يناظر في بولندا وأوروبا الشاعر البريطاني بايرون والشاعر الألماني غوته. (المترجم).

(25)- إفريز: ما أشرف من الحائط خارجاً عن البناء وهو عبارة عن جزء بسيط مزخرف بين الجلية المعمارية. (المترجم من قاموس اللغة العربية المعاصر).

(26)- نيكولاي ميخائيلوفتش كارامزين (1766-1826): شاعر ومؤرخ وروائي روسي. كتب رسائل رحالة روسي 1792، سجل فيها انطباعاته في أثناء رحلته إلى غرب أوروبا وإنكلترا وأدخل بذلك الوعي العالمي في الأدب الروسي. كذلك تبين روايته المفرقة في العاطفة ليزا المسكينة 1792 بداية حركة ما قبل الرومانسية في الأدب الروسي. (المترجم).

(27)- ميخائيل بتروفيتش بوغودين (1800-1875) - مؤرخ روسي، وصحفي وناشر، وكاتب روائي. (المترجم).

(28)- يوحنا ذهبي الفم أو يوحنا فم الذهب: يوانوس خريسوستوموس، (347-407 م)، كان بطريرك القسطنطينية واشتهر كقديس ولاهوتي. عُرف باليونانية بـ «ذهبي الفم» لفصاحته. (المترجم).

(29)- الفودفيل: نوع من المسرحيات الفكاهية. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(30)- ميخائيل سيميونوفيتش شيكين (1788-1863) - ممثل روسي، أحد مؤسسي مدرسة التمثيل الروسية. (المترجم).

(31)- فاسيلي أندريفيتش كاراتيغين (1802-1853) - ممثل تراجيدي روسي. (المترجم).

(32)- إيفان خليستاكوف: بطل كوميديا «المفتش العام» التي ألفها نيقولاي غوغول. وهو واحد من أشهر شخصيات الأدب الروسي. (المترجم).

(33)- مثل يُطلق على الكاتب غير الكفوء. (المترجم).

(34)- الربوبية: التأليه الطبيعي: مذهب يعترف بالإله وبخلقه للعالم ولكنه يرفض تدخله في شؤون الكون والمجتمع. (المترجم).

(35)- السيرافيم: ملائكة الطبقة الأولى. (المترجم).

(36)- فاسيلي جوكوفسكي (1783-1852) شاعر ومترجم روسي شهير، يُعد أحد مؤسسي مذهب الرومانسية في الأدب الروسي. (المترجم).

(37)- حسب ما ورد في سفر دانيال، أقام الملك البابلي بيلشاصر وليمة وشربوا الخمر فيها من آنية الذهب التي أخرجت من الهيكل الذي في أورشليم، ظهرت أصابع يد إنسان، وكتبت على حائط قصر الملك، والملك ينظر طرف اليد الكاتبة.. ففزع الملك بيلشاصر جداً وتغيرت فيه هيئته، واضطرب عظماؤه. (المترجم).

(38)- ستيبان بليوشكين: شخصية خيالية في رواية نيقولاي غوغول «النفوس الميتة». إنه مالك أرض يقوم بجمع وحفظ كل ما يجده بحماسة، لدرجة أنه عندما يرغب في الاحتفال بصفقة ما مع بطل الرواية تشيتشيكوف، يأمر أحد أقنانه بالعثور على كعكة أحضرها زائر قبل عدة سنوات، وأن يزيلها من القالب، ويحضرها لهم. وفي الوقت نفسه، فإن عزبته في حالة مزرية بشكل لا يصدق. فالقمح المحصود قد تعفن على الأرض إضافة إلى ضياع إمكانية الحصول على أي دخل. (المترجم).

(39)- النفوس الميتة: رواية ملحمية ساخرة كتبها نيقولاي غوغول. وتُعدُّ واحدة من أعظم التتاجات الأدبية العالمية. صُنفت الرواية في الأصل كإصدار من ثلاثة مجلدات. نُشر المجلد الأول عام 1842. وفُقِدَ المجلد الثاني تقريباً، ولكن بقيت عدة فصول في المسودات. المجلد الثالث لم يبدأ، وبقيت عنه بعض المعلومات.

(40)- مريم أخت لعازر الذي أقامه يسوع من بين الأموات حسب الإنجيل. (المترجم).

(41)- مرثا: هي أخت لعازر ومريم اللذين من بيت عنيا، وكانت مرثا مشغولة بخدمة المسيح، وهي التي قال لها المسيح: «أنا هو القيامة والحياة»، مشيراً اعترافها بالإيمان: «أنا أؤمن أنك أنت المسيح ابن الله». (المترجم من ويكيبيديا).

(42)- طائر الفينيق: أو فينكس حسبما يُسمى في الميثولوجيا الإغريقية: هو طائر عجيب يجدد نفسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دائماً بشكل متكرر. فهو يولد من رماد احتراق جسده. وفي السجلات التاريخية، نجد الفينكس يرمز تارة إلى الإمبراطورية الرومانية وتارة أخرى إلى التقمص في الفلسفة، وأخرى إلى البعث بعد الموت. (المترجم من ويكيبيديا).

(43)- النشناش: الخفيف في العمل أو السفر أو الحركات. (المترجم من القاموس الوائلي).

(44)- هنريخ دانيال غامبس (1765-1831) صانع آلات من ألمان بروسيا، عمل في سان بطرسبورغ. مؤسس عائلة كبيرة من حرفيي الآلات، الذين اكتسبت منتجاتهم اسماً شائعاً في روسيا: آلات غامبس. (المترجم).

(45)- يقصد الكاتب ي. ن. جوكوفسكايا زوجة محافظ كالوجسكايا. (الملاحظة من ناشر النص الأصلي).

(46)- يقصد الكاتب أ. يو. أوبولينسكايا، زوجة الأمير أوبولينسكي الذي كان محافظ كالوجسكايا للمدة 1825-1831. (الملاحظة من ناشر النص الأصلي).

(47)- point d'honneur: مسألة الشرف (وردت العبارة في الأصل باللغة الفرنسية - الناشر).

(48)- يقصد الكاتب حرب عام 1812 على أثر غزو نابليون لروسيا أو ما يعرف بالحرب الوطنية. (المترجم).

(49)- ألكسندر أندريفيتش إيفانوف (1806-1858) - رسام وأكاديمي روسي: رسم أعمالاً رائعة حول مواضيع أسطورية توراتية وقديمة، أحد أبرز ممثلي المدرسة الأكاديمية في الرسم الروسي، ومؤلف لوحة «ظهور المسيح للناس». (المترجم).

(50)- كارل بافلوفيتش بريولوف (1799-1852) - فنان روسي مشهور، رسام جداريات، رسام ألوان مائية، أستاذ في بورتريه. حائز على عدة جوائز من أكاديمية الفنون، فنحت للوحاته. حائز على الميدالية الذهبية في معرض أقيم في باريس عام 1834. تربى عدد كبير من الفنانين الروس والرسامين الأجانب على أعمال بريولوف. (المترجم).

(51)- فيودور أنتونوفيتش بروني (1799-1875) - فنان روسي من أصل إيطالي، ممثل للأسلوب الأكاديمي في الرسم، أكاديمي وأستاذ في الأكاديمية الإمبراطورية للفنون. (المترجم).

(52)- بنطس: الاسم اليوناني لمنطقة تاريخية تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وتقع في منطقة البحر الأسود الشرقية في تركيا الحديثة. (المترجم).

(53)- كوبيك: عملة نحاسية روسية تساوي جزءاً من مئة من الروبل الروسي. (المترجم).

(54)- كما ينبغي، على النحو المطلوب (وردت العبارة في النص الأصلي باللغة الفرنسية - المترجم).

(55)- سيخلير: عائلة فرنسية امتلكت سلسلة من متاجر الموضة والأزياء في موسكو وبطرسبورغ.

(المترجم).

(56)- انقذ نفسك. الخ بنفسك. (باللغة الفرنسية - الناشر).

(57)- إشارة إلى ما ورد في سفر الخروج 10: 21: ثم قال الرب لموسى: «مُدَّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلمَس الظلام». (المترجم).

(58)- بافيل ديميتريفيتش تسيتسيانوف والمعروف أيضاً باسم بافل ديميتريس تسيتسشفيلي. ولد في 19 سبتمبر 1754 وتوفي في 20 فبراير 1806. كان جنرالاً بارزاً في الجيش الإمبراطوري الروسي ومسؤولاً عن احتلال أجزاء كبيرة من أراضي القوقاز التابعة لبلاد فارس خلال الحرب الروسية الفارسية التي امتدت من 1804-1813. شغل منصب القائد العام لروسيا في القوقاز من 1802 إلى 1806. (المترجم).

(59)- أليكسي بتروفيتش إرمولوف (1777-1861) - قائد عسكري روسي ورجل دولة ودبلوماسي. شارك في العديد من الحروب الكبرى التي خاضتها الإمبراطورية الروسية من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى عشرينيات القرن التاسع عشر. (المترجم).

(60)- سفر متى 6: 33. (المترجم).

(61)- محكمة الضمير: هي محكمة في محافظات الإمبراطورية الروسية. أسّست بمبادرة من الإمبراطورة يكاتيرينا الثانية عام 1775 لتوفير حماية إضافية للحقوق المدنية لفئات معينة من القضايا (المتهمين الأحداث وما شابههم) على أساس مبدأ «العدالة الطبيعية». اختصت المحكمة بضبط شرعية احتجاز المتهمين، ومحاولة التوفيق بين الأطراف المتنازعة، وتخليص المحاكم العامة من العبء الإضافي للقضايا المعقدة والجرائم التي لا تشكل خطراً عاماً كبيراً. (المترجم).

(62)- يقصد بذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي تشكلت في عام 1776 من مستعمرات إنكليزية. (الملاحظة من ناشر النص الأصلي).

(63)- الكلام هنا يدور حول الديسمبريين. (الملاحظة من ناشر النص الأصلي). والديسمبريون هم أعضاء في حركة روسية مناهضة للحكومة القيصرية، وأعضاء في جمعيات سرية مختلفة في النصف الثاني من العقد الأول من القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من عشرينياته، الذين نظموا انتفاضة في ميدان مجلس الشيوخ في بطرسبورغ في 14 ديسمبر 1825 وسميت انتفاضتهم باسم الشهر الذي نشبت فيه. (المترجم).

(64)- بطرس الأكبر (1672-1725): أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها. كان بطرس شجاعاً بعيد النظر ذكياً أدخل الكثير من الإصلاحات في بنية النظام الإداري وأدخل الصناعات، دفر عدة مؤسسات قائمة ولكنه أدخل تأثيرات إيجابية من الغرب إلى بلده روسيا. (المترجم).

(65)- ميخائيل لومونوسوف (1711-1765): من أكبر العلماء والشعراء والمؤرخين والمتقفين الروس. كان ميخائيل لومونوسوف ابن فلاح فن أظهر مواهب في التعليم وساعده الإقطاعي في مسعاه. وهو الذي طرح فكرة تأسيس جامعة موسكو الحكومية ووضع مشروعاً لهذه المؤسسة التعليمية التي أطلق عليها اسمه

بعد. له العديد من المساهمات في العلوم المختلفة وهو الذي شكّل أساساً نحو اللغة الروسية وعلم الاشتقاق اللذين لم يفقدا قيمتهما حتى الآن عند علماء اللغة. (المترجم).

(66)- إيفان إيفانوفيتش شوفالوف (1727-1797): رجل دولة روسي، راعٍ للعلوم والفنون، مؤسس جامعة موسكو وأكاديمية الفنون.(المترجم).

(67)- الرسالة عبارة عن قصيدة طويلة جداً. تحدث فيها لومونوسوف عن جميع حالات استخدام الزجاج. قصة هذه الرسالة على النحو التالي: كان لومونوسوف في مأدبة عشاء عند شوفالوف. لاحظ أحد الضيوف البارزين، الذي ألقى نظرة فاحصة على العالم الشهير، وجود أزرار زجاجية على قفطانه وقال إنها لم تعد في الموضة. بدأ لومونوسوف يتحدث عن فوائد الزجاج في الحياة المنزلية، وفي العلوم وفي الفنون. أحب المضيف خطابه الرائع لدرجة أنه طالب لومونوسوف أن يعبّر عنه في قصيدة شعرية. (المترجم).

(68)- الياسب، أو الفمبق: تفعيلة شعرية ذات مقطعين. (المترجم).

(69)- فاسيلي بتروفيتش بتروف (كان لقبه في البداية بوسيبلوف) (1736-1799) - شاعر روسي ومترجم ومربي. (المترجم).

(70)- غافريل رومانوفيتش ديرجافين (1743-1816): واحد من أعظم الشعراء الروس قبل ألكسندر بوشكين، وكان رجل دولة أيضاً. وعلى الرغم من عدّ أعماله تقليدية كلاسيكية أدبية، فإن أفضل أشعاره غنيةٌ بالنقائض والأصوات المتضاربة وتشبه أعمال الشعراء الميتافيزيقيين. (المترجم).

(71)- يكاتيرينا الثانية (1729-1796) - إمبراطورة روسيا من 1762 إلى 1796. (المترجم).

(72)- الأورطة: وحدة إدارية عسكرية للأقوام الرحل المغولية الطورانية. (المترجم).

(73)- فيرست: مقياس روسي قديم للطول يعادل 1060 متراً. (المترجم).

(74)- القيصر ألكسندر بافلوفيتش (1777- 1825): في عهد ألكسندر الأول (1801-1825) ترافقت محاولات تحديث الدولة الروسية مع تضخم الجهاز الإداري للدولة وإحلال النظام البوليسي في البلاد. كان أعظم إنجازات ألكسندر هو انتصاره على نابليون، الذي هاجم روسيا في عام 1812. خلال النصف الثاني من حكمه، أصبح ألكسندر تعسفياً بشكل متزايد، ورجعياً، وخائفاً من المؤامرات ضده؛ ونتيجة لذلك ألغى العديد من الإصلاحات التي قام بها في وقت سابق. (المترجم).

(75)- غلندوز: حسنُ الشَّباب، غلندز، ناعمٌ، شديد التأنُّق في الملبس والمظهر. والجمع: غنادرة. (المترجم من معجم المعاني الجامع).

(76)- جان دي لافونتين (1621-1695): أشهر كاتب قصص خرافية (القصص التي تدور أحداثها على ألسنة الحيوانات والطيور) في تاريخ الأدب الفرنسي. (المترجم).

(77)- إيفان إيفانوفيتش ديمتريف (1761-1837): كاتب وشاعر روسي وشخصية مهمة في الحركة العاطفية في الأدب الروسي. نظم ديمتريف الشعر، وكتب قصصاً خيالية، واشتهرت قصائده الغنائية من بين أعماله، وعلى وجه الخصوص ملحمته الدرامية حول يرماك القائد القوزاقي الذي غزا سيبيريا. نُشرت أعماله كاملة في ثلاثة مجلدات في سانت بطرسبورغ في عام 1823، وكتب ترجمة ذاتية في آخر حياته نُشرت في موسكو في عام 1866. (المترجم).

(78)- إيفان إيفانوفيتش خمنيتسر (1745-1784): كاتب قصص خرافية روسي من أصول ألمانية. على عكس سوماروكوف وغيره من كتاب القصص الخرافية الروس المتقدّمين، فإنّ خمنيتسر هو أوّل من قدّم فنّ القصص الخرافية الخالص إلى الأدب الروسي، بينما تُعتبر قصص المتقدّمين عليه نقديّة ساخرة في الأساس، ويُعدّ خمنيتسر أحد أسلاف كريلوف، وتتميّز قصص خمنيتسر بأصالتها برغم أنّ بعضها تضمّنت إلى درجة ما ترجمةً أو تقليداً لأعمال جان دو لافونتين وكريستيان فورشتيفوت غيلرت. (المترجم).

(79)- بوغدانوفيتش إيبوليت فيدوروفيتش (1743-1803) - شاعر ومترجم وصحفي روسي. اشتهر بكتابة الحكايات الخرافية. (المترجم).

(80)- فاسيلي فاسيليفيتش كابنيست (1758-1823): شاعر وكاتب مسرحي روسي. (المترجم).

(81)- البالادا: قصيدة قصصية مستمدة من موضوعات أسطورية وفولكلورية. (المترجم).

(82)- يوهان كريستوف فريدريش فون شيلر (1759-1805) شاعر ومسرحي كلاسيكي وفيلسوف ومؤرخ ألماني. يعتبر هو وغوته من مؤسسي الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني، ويعتبر من الشخصيات الرئيسة في التاريخ الأدبي الألماني. (المترجم).

(83)- لودويغ أوهلاند (1787-1862): لغوي، وشاعر، وكاتب، وسياسي، ومحامي، ومؤرخ أدبي، وأستاذ جامعي ألماني. (المترجم).

(84)- والتر سكوت (1771-1832) روائي وكاتب مسرحي وشاعر اسكتلندي. لا تزال أعماله تقرأ في العصر الحالي في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا. وهو كاتب الرواية الشعبية المعروفة إيفانهو التي تحكي قصة الفارس ويلفريد إيفانهو الذي ينحدر من آخر سلالات العائلات النبيلة. (المترجم).

(85)- جورج غوردون بايرون (1788-1824) شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي. كانت قصائده تعكس معتقداته وخبرته. شعره تارة ما يكون عنيفاً وتارة أخرى رقيقاً، وتتصف قصائده في أغلب الأحيان بالغرابة. يصر اللورد بايرون على حرية الشعوب. (المترجم).

(86)- بافلوفسك: مدينة تقع على نهر سلافيانكا، على بعد 25 كم إلى الجنوب من بطرسبورغ و3 كم إلى الجنوب الشرقي المركز الإقليمي لمدينة بوشكين. (المترجم).

(87)- أونديا: قصة طويلة نظمها جوكوفسكي شعراً. هذا العمل المعروف على نطاق واسع ليس مستقلاً تماماً: إنه إعادة صياغة شعرية لرواية نثرية للكاتب الألماني لاموت فوكيه، لكن يمكننا أن نقول بأمان إنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتقن هذا العمل بأوصاف حية للطبيعة، وصور رائعة، والأهم من ذلك - خلق صورة ساحرة لأونديا. وأونديا - هي كائن أسطوري أنثوي شبيه بحورية البحر. (المترجم).

(88)- كونستانتين نيكولايفيتش باتوشكوف (1787-1855) - شاعر وناثر روسي. تكمن أهمية باتوشكوف في تاريخ الأدب الروسي وميزته الرئيسية في حقيقة أنه عمل بجدّ على معالجة خطابه الشعري الأصلي ومنح اللغة الشعرية الروسية تلك المرونة والدانة والانسجام الذي لم يعرفه الشعر الروسي حتى ذلك الحين. (المترجم).

(89)- لودوفيكو أريوستو (1474-1533): شاعر إيطالي. اشتهر بوصفه صاحب ملحمة أورلاندو فوريوسو الرومانسية (1516). (المترجم).

(90)- توركواتو تاسّو (1544-1595): كاتب وشاعر إيطالي. في عام 1575 عانى من انهيار وفقدان لكامل قواه العقلية. عاش سنواته الأخيرة في رعاية ألفونسو الثاني دوق فيرارة. (المترجم).

(91)- فرانشيسكو بترارکا أو بترارك (1304-1374): باحث وشاعر إيطالي وأحد أوائل الإنسانيين في عصر النهضة. يسمى بترارك أحياناً كثيرة «أب الإنسانية». (المترجم).

(92)- إيفاريست بارني (1753-1814) شاعر فرنسي غنائي تأثر بفولتير. (المترجم).

(93)- بالالايكا: آلة موسيقية وترية روسية. (المترجم).

(94)- يوهان فولفغانغ فون غوته (1749-1832): أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة، وقد تنوع أدب غوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر وأبدع في كل منهما، واهتم بالثقافة والأدب الشرقيين، واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق مقبلاً على العلم، متعمقاً في دراساته. (المترجم).

(95)- بروتوس: إله البحر في الأساطير اليونانية أو إله الأنهار والمسطحات المائية الفحيطيّة، كان يمتلك موهبة التنبؤ. (المترجم).

(96)- سونيتة: أو الأغنية القصيرة، أحد أهم أشكال الشعر الغنائي الذي انتشر في أوروبا في العصور الوسطى وكتب فيها كبار الشعراء. وتتألف من أربعة عشر بيتاً بأوزان وقوافٍ معروفة وتركيب منطقي. اهتمت السونيتة بمعالجة بعض الموضوعات مثل الحب العفيف. تتميز السونيتة بلغتها المكثفة وصورها البلاغية المؤثرة والتطلع إلى الكمال في صنعتها الشعرية. (المترجم).

(97)- إشارة إلى ما ورد في سفر نشيد الأناشيد الإصحاح الرابع: «أَسْنَانُكِ كَقُطْعِ الْجَزَائِزِ الصَّاعِدَةِ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُثْنِمٌ، وَلَيْسَ فِيهِنَّ عَقِيمٌ». (المترجم).

(98)- يفغيني أونيغين: رواية شعرية من تأليف ألكسندر بوشكين، تُعد واحدة من أهم كلاسيكيات الأدب

الروسي. المواضيع الرئيسة التي تناولتها الرواية - العلاقة بين الخيال والحب والحياة والحقيقية وحقيقة الإنسان الزائد. (المترجم).

(99)- الترتسا (الموشح أو القافية الثالثة): مقطع شعري ثلاثي الأبيات ابتدعه دانتي. (المترجم).

(100)- دانتي أليغييري (1265-1321) ويعرف عادة باسم دانتي وهو شاعر إيطالي من فلورنسا. أعظم أعماله: الكوميديا الإلهية المكونة من ثلاثة أقسام الجحيم، المطهر والفردوس، ويعد البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجته أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة. دانتي معروف في الأدب الإيطالي بالشاعر الأعلى. (المترجم).

(101)- البارون أنطون أنطونوفيتش ديلفيغ (1798-1831) - شاعر وصحفي وناشر روسي. (المترجم).

(102)- إيفان إيفانوفيتش كوزلوف (1779-1840) - شاعر ومترجم روسي من العصر الرومانسي. (المترجم).

(103)- يفيفيني أبراموفيتش باراتينسكي (1800-1844): شاعر روسي عاش في القرن التاسع عشر، ظلّت شهرته غير ذات أهمية حتى أشهره الأدباء الرمزيون الروس كواحد من أشهر شعراء الفكر في تاريخ الأدب الروسي. كان الحزن والتشاؤم الطابع السائد في جميع قصائده، ثم سرعان ما تحوّل تشاؤمه إلى يأس، وأصبح الرثاء موضوعه المفضّل. نشر باراتينسكي عدّة دواوين شعرية، واستقبلها نقاد الأدب بحفاوة شديدة، في الوقت الذي أهملها فيه العامة. (المترجم).

(104)- نيكولاي ميخائيلوفيتش يازيكوف (1803-1846) - شاعر روسي من عصر الرومانسية، وأحد ألمع ممثلي العصر الذهبي للشعر الروسي، والذي أطلق على نفسه لقب «شاعر الفرح والخمر»، وكذلك «شاعر العربدة والحرية». (المترجم).

(105)- لقب العائلة «يازيكوف» مشتق من الكلمة «يازيك» التي تعني لساناً أو لغة. (المترجم).

(106)- الكلام يدور هنا حول حريق موسكو الذي حدث بتاريخ 14 سبتمبر سنة 1812، وهو اليوم الذي استسلمت فيه القوات الروسية بجانب المدنيين في المدينة بعد تقدم القوات الفرنسية بقيادة نابليون ودخولها المدينة في أعقاب معركة بورودينو. وقد ظل الحريق مشتعلاً حتى 18 سبتمبر، مدمراً حوالي ثلاثة أرباع موسكو. (المترجم).

(107)- دنيس إيفانوفيتش فونفيزين (1744-1792): كاتب مسرحي عاش في القرن الثامن عشر واضطلع في حركة التنوير الروسية. اشتهر فونفيزين بمسرحياته التي سخرت من طبقة النبلاء الروسية، وما زالت تُعرض في المسارح الروسية حتى اليوم، وتعد من أشهر المسرحيات في تاريخ الأدب الروسي. (المترجم).

(108)- هذه الأبيات للشاعر نيكولاي يازيكوف من قصيدة طويلة بعنوان «إلى فولف وتوتشيف وشيبيليف «كان زمان استمتعنا به، أيها الأصدقاء»». (المترجم).

(109)- إيفان أندريفيتش كريلوف (1769-1844): كاتب حكايات روسي، وقبل ذلك كان كاتباً مسرحياً وصحفياً، اكتشف نوع كتاباته عندما كان في سن 40. كانت أغلب حكاياته مبنية على حكايات إيسوب وحكايات لافونتين ولكن لاحقاً كتب حكاياته بنفسه مع طابع من الشعر. (المترجم).

(110)- الحكاية الرمزية أو الخرافة هي قصة مقتضبة، سواء كانت نثراً أو شعراً، توظف تجسيداً من الحيوانات أو المخلوقات الأسطورية أو النبات أو الكائنات غير الحية أو الظواهر الطبيعية، وتبين درساً أخلاقياً، ويضرّح في نهايتها عنه بشكل صريح وبليغ. (المترجم).

(111)- آرغوس: وفق الأساطير الإغريقية هو عملاق ذو عيون كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده، قيل إنها 100 عين. ووفق الأسطورة كلّفت الإلهة هيرا آرغوس بحراسة آيو وذلك بعد أن حوّلها عشيقها زيوس إلى عجلة (بقرة صغيرة). ولذلك فقد قام آرغوس بحراسة آيو وإبقائها مقيدةً في شجرة زيتون مقدسة، بعيداً عن زيوس. وبأمرٍ من زيوس قتل هرمس آرغوس، فكرّمت هيرا حارسها المخلص عبر حفظ عيونه إلى الأبد في ذيل طاووس. (المترجم).

Telegram:@mbooks90

(112)- ألكسندر فاسيليفيتش سوفوروف (1730-1800) - قائد عسكري روسي، مؤسس النظرية العسكرية الروسية. حائز على جميع الأنواط والأوسمة الروسية في وقته التي تُمنح للرجال، بالإضافة إلى سبعة أوسمة أجنبية. وهو من القادة القلائل في التاريخ الذين لم يخسروا معركة واحدة. (المترجم).

(113)- ألكسندر إفيموفيتش إزمايلوف (1779-1831) - موظف روسي كبير (عضو مجلس الدولة)، كاتب حكايات، ناشر، ومربٍ. (المترجم).

(114)- أنتيوخ ديمتريفتش كانتمير (1708-1744): مفكّر وكاتب وشاعر ودبلوماسي من أصول مولدافية عاش في روسيا القيصرية في القرن الثامن عشر، واضطلع في حركة التنوير الروسية، وساهم بأعمال أدبية مكّنته من احتلال مكانةٍ مميزة في تاريخ الأدب الروسي، وهو اليوم يُعدّ الأب الروحي للشعر باللغة الروسية. كتب ملحمة شعرية تمجّد إصلاحات بطرس الأكبر. (المترجم).

(115)- ديسيموس يونيوس يوفيناليوس: شاعر روماني قديم عاش في القرنين الأول والثاني الميلاديين، عُرف بأشعاره الهزلية الساخرة التي بقي محفوظاً منها 16 نصاً ساخراً أكسبته شهرته العالمية في جميع العصور، وقد طرح الشاعر فيها قضايا ذات طبيعة فلسفية وأخلاقية. (المترجم).

(116)- السيدة بروستاكوفا: الشخصية السلبية الرئيسة في المسرحية. إنها امرأة جاهلة من طبقة النبلاء، تحب ابنها كثيراً وتسعى كي يتزوج ابنها من صوفيا بعد أن علمت بميراثها. تبرر قساوتها على الجميع بأنها تريد الحفاظ على بيتها متماسكاً. (المترجم).

(117)- تاراس سكوتينين:شقيق السيدة بروستاكوفا، وهو رجل قاسٍ وصارم. يريد الزواج من صوفيا. يحب الخنازير. (المترجم).

(118)- تيرنتي بروستاكوف: رب الأسرة. رجل ضئيل وضعيف. يحاول إرضاء زوجته في كل شيء. يحب ابنه كما يليق بالوالدين. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(119)- ميتروفان بروستاكوف: ابنهما القاصر. إنه شاب جاهل مدلل وناكر للجميل. لا يخجل من غبائه. فظ غليظ القلب مثل والدته. (المترجم).

(120)- يريميفنا: مربية ميتروفان ومرضعته التي وقفت من أجله صامدة مثل الجبل، برغم تعاستها الشديدة بسبب قسوة السيدة بروستاكوفا عليها. (المترجم).

(121)- ألكسندر غريبويدوف (1795-1829): دبلوماسي وسفير وكاتب مسرحي وشاعر روسي، عمل سفيراً لروسيا من سنة 1828م إلى سنة 1829. (المترجم).

(122)- «نو العقل يشقى» (أو «مصيبة بسبب العقل») هي كوميديا شعرية من تأليف ألكسندر غريبويدوف. تجمع بين عناصر الكلاسيكية والرومانسية والواقعية اللتين كانتا جديدتين في بداية القرن التاسع عشر. تصف مجتمع الطبقة الأرستقراطية في زمن نظام القنانة وتكشف عن جوانب الحياة في الحقبة الممتدة من عام 1808 إلى عام 1824. (المترجم).

(123)- كما ينبغي (باللغة الفرنسية - المترجم).

(124)- أريستوفان أرشطفان أو أرشطفانيس (446-386 ق.م. تقريباً): مؤلف مسرحي كوميدي، يُعدّ من رواد المسرح الساخر في اليونان القديمة. لم يبق من أعماله سوى إحدى عشرة مسرحية، وفيها يسخر من كل أنواع البشر بما فيهم الشخصيات المعروفة أمثال سقراط الذي كان يعده صديقاً. كانت مسرحياته تغص بالنكات والمبالغات والنقد السياسي اللاذع على الرغم من إلباسها بمهارة فائقة ثوب العبارات الهزلية. (المترجم من ويكيبيديا).

(125)- ميخائيل يوريفيتش ليرمنتوف (1814-1841) أديب روسي رومانتيكي. أحد أهم الشعراء الروس بعد وفاة ألكسندر بوشكين. وبرغم المدة القصيرة التي قضاها ليرمنتوف في عمله الأدبي والتي لم تتجاوز 13 سنة، والحياة الصاخبة التي عاشها في منطقة القوقاز إلا أنه تمكن من كتابة الكثير من القصائد الجميلة، ومنها «أسير القوقاز»، و«الشركسي»، و«الخريف»، و«الشراع»، و«القرصان»، و«النخلات الثلاث»، و«النبي»، و«الخنجر»، و«الشاعر»، و«الشيطان». كما كتب ليرمنتوف مسرحيتي «حفلة تنكرية»، و«الشقيقان». وأبدع ليرمنتوف رواية «بطل من زماننا» التي اشتهر بها في جميع أنحاء العالم، وأثبت من خلالها بأنه دخل تاريخ الأدب الروسي والعالمي ليس بوصفه شاعراً كبيراً فقط بل وناثراً لامعاً ومؤلفاً مسرحياً بارزاً. (المترجم).

(126)- ماركيز كوستين (1790-1857): كاتب ورحالة فرنسي. اكتسب شهرة عالمية بنشره ملاحظاته حول روسيا التي زارها عام 1839. (المترجم).

(127)- غوڤس: إله الرياح عند الإغريق. (المترجم).

(128)- يقصد الكاتب غزو فرنسا بقيادة نابليون لروسيا في عام 1812، الذي يُعرف في روسيا بالحرب الوطنية. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner